تأملات في أدعية أهل البيت عليهم السلام

الشيخ جميل الربيعي

شبكة الفكر
alfeker.net

تأملات في
أدعية أهل البيت(ع)

تأملات في
أدعية أهل البيت(ع)

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

جميع حقوق النشر محفوظة ومسجلة للناشر ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة طبع أو ترجمة أو نسخ الكتاب أو أي جزء منه إلا بترخيص خطي من الناشر تحت طائلة الشرع والقانون

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع
تلفون: ٠٠٩٦١٣٤٦١٥٩٥
بيروت - لبنان ٠٠٩٦١١٤٧٢١٩٢
E-mail:daralsalamco@hotmail.com

تأملات في
أدعية أهل البيت(ع)

جميل مال الله الربيعي

دار السلام
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ

إهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع ...

إلى سيدي ومولاي ...

سيد الساجدين الإمام زين العابدين عليه السلام

«إن الأدعية والمناجاة التي وصلتنا عن الأئمة المعصومين عليهم السلام، أعظم دليل يرشد إلى معرفة الله جلّ وعلا، وأسمى وسيلة لسلوك طريق العبودية، وارفع رابطة بين الحق والخلق. كما أنها تشتمل في طياتها على مختلف المعارف الإلهية ، وتمثل أيضاً وسيلة ابتكرها أهل بيت الوحي عليهم السلام للأنس بالله جلت عظمته، فضلاً عن أنها تمثل نموذجاً لحال أصحاب القلوب وأرباب السلوك. فلا تصدنّك وساوس الغافلين الجاهلين، عن التمسك أو الأنس بها. إننا لو أمضينا أعمارنا بتمامها نقدم الشكر على أن هؤلاء المتحررين من قيود الدنيا والواصلين إلى الحق هم أئمتنا ومرشدونا لما وفينا هذا الأمر حقه من الشكر»[1]

الإمام الخميني قدس سره

---

(١) الإمام الخميني قدس سره، المظاهر الرحمانية: ١٧.

تمهيد

الدعاء في حياة أهل البيت عليهم السلام :

من أبرز الظّواهر في حياة أهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام ظاهرة الدّعاء ولا نبالغ إذا قلنا بأنّ حياتهم كلّها ذكر لله تعالى، وهم أصدق مصاديق الذّاكرين لله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، والدّعاء والذكر لا يكاد يفارق سلوكهم في كل أحوالهم على حدٍّ سواء في الشدة والرّخاء، والعافية، والبلاء، والفقر، والغنى والحرب، والسلم، والخلوة، والاجتماع... فمدار حياتهم كله قائم على ذلك بلا توقف ولا فتور، ولا يعرف الانقطاع أبداً، وقد أعطانا الإمام الصادق عليه السلام أدق صورة لهذه الحقيقة وهو يتحدّث عن الذّكر في حياة أبيه الإمام الباقر عليه السلام قال عليه السلام:

«وكان أبي عليه السلام كثير الذّكر لقد كنت أمشي معه، وإنه ليذكر الله، وآكل معه وإنه ليذكر الله، ولقد كان يحدِّث القوم [و]ما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول: لا إله إلا الله، وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس، ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا، ومن كان لا يقرأ منا أمره

بالذكر))[١].

ولو استقرأنا سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرة أهل بيته عليهم السلام لوجدنا في حياة كلٍّ منهم لكلٍّ حالة دعاء، والسر في ذلك أنهم قد عرفوا الله تعالى معرفة حقيقية فتجردّوا لله، وأخلصوا دينهم له، فمَلَكَهم حب الله؛ ولذا كانت كل حركة من حركاتهم خطوةً إلى الله تعالى، وإقبالاً عليه، وقصداً لوجهه، وطلباً لمرضاته بل لا يجدون لذة أو أُنساً إلا في ذكّر الله تعالى ومناجاته، ورغم ذلك كانوا يطلبون المزيد من ذلك، ويستغفرون الله من كل لذة في غير ذكره تعالى.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة الذاكرين: ((**وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بِغَيْرِ ذِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ رَاحَةٍ بِغَيْرِ أُنْسِكَ**))[٢] ويتضرع إلى الله قائلاً: ((**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رَغْبَتِي فِي مَسْأَلَتِي مِثْلَ رَغْبَةِ أَوْلِيَائِكَ فِي مَسَائِلِهِمْ**))[٣].

ولو وقفنا عند بعض مفردات حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لرأينا ذلك واضحاً جلياً في كل حياته فما من حركة من حركاته، ولا سكنة من سكناته إلا كان داعياً ذاكراً لله خاشعاً متضرعاً، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**كان صلى الله عليه وآله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر**[٤] **لا يوطن الأماكن**[٥]**، وينهى عن إيطانها**))[٦] ولم يقتصر في دعائه على أوقات العبادة، أو في أماكنها فقط، وإنما كان لكل حالة من حالاته، ولكل

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٤٩٩/٢.

(٢) مناجاة الذاكرين.

(٣) الصحيفة السجادية: الدعاء: ٥٤.

(٤) في المصادر:ذكر الله جل اسمه.

(٥) أي لا يتخذ لنفسه مجلساً يعرف به.

(٦) العلامة الطباطبائي قدس سره، سنن النبي: ١٦، ط/انتشارات كتابفروشي اسلامية.

عمل من أعماله ذكر ودعاء، فإذا لبس ثوباً جديداً، قال: ((**الحمد لله الذي كساني ما يواري عورتي وأتجمل به في الناس**))[١].

وإذا نظر في المرآة قال: ((**الحمد لله الذي أكمل خلقي، وأحسن صورتي، وزان مني ما شان من غيري، وهداني للإسلام...**))[٢].

وإذا استوى على راحلته خارجاً إلى سفر كبّر ثلاثاً، ثم قال: ((**اللّهم إنّا نسألك في سفرنا هذا البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى...**))[٣].

((**اللّهم... وأنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل**))[٤].

وإذا قام من مجلسه قال: ((**سبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك**))[٥] كما روي أيضاً مرفوعاً إليه ﷺ إنه قال: ((**من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه: سبحان ربك ربِّ العزّة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين**))[٦].

وإذا آوى إلى فراشه قال: ((**اللّهمَّ قني عذابك يوم تبعث عبادك**))[٧].

---

(١) الطبرسي، مكارم الأخلاق: ٣٦، والمحدث المجلسي في بحار الأنوار: ٢٥١/١٦، والأربلي في كشف الغمة: ١٧٣/١.

(٢) الجعفريات: ١٨٦.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٩٣/٧٦.

(٤) المصدر نفسه: ٢٩٢.

(٥) العلامة الطباطبائي قدس سره، سنن النبي: ٣٢٠.

(٦) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٢٢/٨.

(٧) الطبرسي، مكارم الأخلاق: ٣٨.

وإذا وضع يده على الطعام قال: ((**بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا، وعليك خلفه**))[١].

وإذا ورد عليه ما يسرّه قال: ((**الحمد لله على هذه النعمة**))[٢].

وإذا ورد عليه أمر يغتم به قال: ((**الحمد لله على كل حال**))[٣].

وإذا رأى ما يحب قال: ((**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**))[٤].

وهكذا نجد في كل حالة من حالات رسول الله ﷺ دعاء يناسبها، ومن أراد التفصيل فليراجع الأسفار الكثيرة التي أُلفت في ذلك.

وعلى سننه سار أهل بيته المعصومين ﷺ، وفي حياة كل واحد منهم شواهد جمة من ذلك، وعلى ذلك كانت نشأتهم، وعليه استمرت سيرتهم ﷺ.

جاء في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني أن علياً ؑ قال لفاطمة ؑ: ((**إئتي أباك فسليه خادماً تتقين به العمل**)) وبعد تردد أتت رسول الله ﷺ ومعها علي ؑ ولما رآهما رسول الله ﷺ قال: ((**ما أتى بكما؟ فقال علي ؑ: يا رسول الله شقّ علينا العمل فأردنا أن تُعطينا خادماً نتقي به العمل، فقال لهما رسول الله ﷺ: هل أدلكما على خيرٍ لكما من حمر النعم؟ قال علي ؑ: يا رسول الله، نعم! قال: تكبيرات، وتسبيحات، وتحميدات مائة حين تريدا أن تناما، فتبيتا على ألف حسنة، ومثلها حين تصبحان فتقومان على ألف حسنة**))[٥]

---

(١) الطبرسي، مكارم الأخلاق: ٢٧.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٨٩٦/٢، باب استحباب التحميد ح/٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الطبرسي، مكارم الأخلاق: ١٩.

(٥) أبي نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ٦٩/١.

وفي رواية أخرى عن علي (عليه السلام) قال: ((**أتانا رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى وضع رجليه بيني وبين فاطمة فَعَلَّمنا ما نقول إذا أخذنا مضاجعنا: ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، وثلاثاً وثلاثين تحميدة، وأربعاً وثلاثين تكبيرة، قال علي: فما تركتها بعد، فقال له رجل: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين**))[١].

هكذا كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يربي أهل بيته (عليهم السلام)، وعلى هذا ساروا من أولهم إلى آخرهم.

وفي حياة أمير المؤمنين (عليه السلام) الكثير من الأدعية والمناجاة قد أفردها في مجلد كامل صاحب نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة جمع فيه بعضاً من مناجاته وأذكاره لله تعالى في مختلف مجالات حركته إلى الله تعالى لا سيما في مجال معرفته تعالى، فقد أثبت فيها أدقَّ المعارف الإلهية التي تجعل المتأمل فيها يعيش في رياض الذاكرين في حله وترحاله خاشعاً خاضعاً شاعراً بهيمنة الله تعالى في كل خطوة يخطوها، فلنتأمل ببعض تلك الأدعية والمناجاة يقول (عليه السلام) في إحدى مناجاته: ((**يَا مَنْ لا تَنْقُصُ خزَائِنُهُ، وَلا يَبِيْدُ مُلْكُهُ، وَلا تَراهُ العُيُوْنُ، وَلا تَعْزُبُ مِنْهُ حَرَكَةٌ، وَلا سُكُوْنٌ، لَمْ تَزَلْ سَيِّدي وَلا تزَالُ، لا يَتَوارىَ عَنْكَ مُتَوارٍ في كَنِيْنِ[٢] أرْضٍ وَلا سَمَاءٍ وَلا تُخُومٍ[٣]، تَكَفَّلْتَ بالأرْزَاقِ يَا رَزَّاقُ**))[٤].

ونحن إذا تأملنا في هذا الدعاء الشريف نجد أنه أثبت لنا من المعارف الإلهية

---

(١) أبي نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء: ٧٠/١.

(٢) أي مستورها من الكن بمعنى الستر.

(٣) التخوم: الفصل بين الأرضَين من الحدود والمعالم، والتَّخْمُ: منتهى كل قرية أو أرض يقال فلان على تَخْم من الأرض، وهي بمعنى الحدود كما قال الفراء.

(٤) محمد باقر المحمودي، نهج السعادة: ١٣/٦.

ما تشدُّ الإنسان إلى الله، وتجعل قلبه متعلقاً به، راجياً له، خائفاً منه؛ لأنه تعالى بيده خزائن السماوات والأرض التي لا تنقضي، بل ولا تنفد، وبيده ملكوت كل شيء ونحن في عينه لا تخفى منا خافية في حركة ولا سكون. ثم إنه عليه السلام يعود مرّة أخرى ليُركِّز لنا حقيقة العبودية في النفوس فيقول: **((إلهي عَبْدُكَ يَحْمَدُ، وَفي الشَّدائد عَلَيْكَ يَعْتَمدُ، فَلَكَ الحَمْدُ وَالمَجْدُ؛ لأنَّكَ المَالكُ الأبدُ، وَالرَّبُّ السَّرْمَدُ...))**(١) .

وهذا ما نجده واضحاً في زبور آل محمد (الصحيفة السجادية) في أول دعاء حيث يقول الإمام السجاد عليه السلام: **((الحَمْدُ لله الأوَّل بلا أوَّل كَانَ قَبْلَهُ، وَالآخر بلا آخرٍ يَكُونُ بَعْدَهُ، الّذي قَصُرَتْ عَنْ رُؤْيَته أَبْصَارُ النّاظرينَ، وَعَجَزَتْ عَنْ نَعْته أَوْهَامُ الوَاصفينَ))**(٢) .

فإذن نجد أنهم عليهم السلام في أغلب أدعيتهم يريدون أن يركِّزوا دعائم التوحيد، وينقضوا اباطيل الكفر، وهذا ما كانوا يؤكدونه في مناجاتهم لله تعالى: **((إلهي أطَعْتُكَ فيْ أحَبِّ الأشْيَاء إلَيْكَ وَهُوَ التَّوْحيْدُ، وَلَمْ أعْصكَ فيْ أبْغَض الأشْيَاء إلَيْكَ وَهُوَ الكُفْرُ))**(٣) .

وفي معظم الأدعية والمناجاة الواردة عنهم عليهم السلام بعد أن يثبتوا معالم التوحيد ويجذروها في النفوس، ويؤصِّلوها في الوجود والوجدان يَعْرجون منها إلى المَعْلَم الآخر من معالم الإسلام، والدعامة الثانية من دعائمه وهي النبوة فتراه في محراب عبادته بين يدي الله شاهداً لرسول الله صلى الله عليه وآله بالنبوة، وتبليغ الرسالة وأنه إمام الرحمة،

---

(١) محمد باقر المحمودي، نهج السعادة: ١٣/٦.

(٢) الصحيفة السجادية: الدعاء الأول.

(٣) محمد باقر المحمودي، نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة: ٤٩/٦.

وقائد الخير، والداعي إليه، ومفتاح البركة لجميع العباد والبلاد ورحمة للعالمين... إلى أن يقول في موضع آخر: ((**نَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ الرِّسالَةَ، وَأَدّى النَّصيْحَةَ، واجْتَهَدَ للأمَّة، وَأوذيَ فيْ جَنْبك، وَجاهَدَ فيْ سَبيْلكَ وعَبَدَكَ حَتّى أتاهُ اليَقيْنُ فَصلّى اللهُ عَلَيْه وَآله الطَّيِّبيْنَ**))[1] وهذا المعنى نفسه ورد أيضاً في الدعاء الثاني من الصحيفة حيث أوضح عليه السلام فيه فضل الله تعالى ولطفه ومنته على العباد برسوله محمد صلى الله عليه وآله. كما أوضح معالم شخصية الرسول صلى الله عليه وآله فهو أمين الله على وحيه، وصفيّه من عباده، وقائد الخير، ومفتاح البركة... ثم يوضح ما عاناه رسول الله صلى الله عليه وآله في تبليغ رسالة الله فيقول عليه السلام:

((**وَالْحَمْدُ للهِ الّذي مَنَّ عَلَيْنا بمُحَمّد نَبيِّه صلى الله عليه وآله دُونَ الأُمَم الْماضيَة وَالْقُرُون السّالفَة... اللّهُمَّ فَصلِّ عَلى مُحَمّد أَمينكَ عَلى وَحْيكَ، وَنَجيبكَ منْ خَلْقكَ، وَصَفيِّكَ من عبادكَ، إمامِ الرَّحْمَة، وَقَائد الْخَيْر، وَمفْتاح الْبَرَكَة... كَما نَصَبَ لأمْرك نَفْسَهُ، وَعرَّضَ فيكَ للْمَكْرُوه بَدَنَهُ، وكَاشَفَ فيْ الدّعَاء إلَيْكَ حَامَّتَهُ، وَحَارَبَ فيْ رضاكَ أُسْرَتَهُ، وَقَطَعَ فيْ إحْيَاء دينكَ رَحمَهُ، وَأَقْصى الأَدْنَين عَلى جُحُودهمْ، وَقَرَّبَ الأَقْصَيْنَ عَلى اسْتجابَتهمْ لَكَ، وَوَالى فيكَ الأبْعَدينَ، وَعَادى فيكَ الأقربينَ، وَأَدْأَبَ نَفْسه فيْ تَبْليغ رسَالَتكَ، وَأَتْعَبَهَا بالدُّعاء إلَى ملَّتكَ، وَشَغَلَهَا بالنُّصْح لأهْلِ دَعْوَتكَ، وَهَاجَرَ إلَى الْغُرْبَة، وَمَحَلِّ النَّأي عَنْ مَوْطن رَحْله، وَمَوْضع رجْله، وَمَسْقَط رَأْسه، وَمَأنَس نَفْسه إرَادَةً منْهُ لإعْزَاز دينكَ، وَاسْتنْصاراً عَلَى أَهْلِ الْكُفْر بكَ، حَتّى اسْتَتَبَّ لَهُ مَا حَاوَلَ في أَعْدَائكَ، وَاسْتَتَمَّ لَهُ مَا دَبَّرَ فيْ أَوْليَائكَ فَنَهَدَ إلَيْهمْ مُسْتَفْتحاً بعَوْنكَ وَمُتَقَوِّياً عَلَى ضَعْفه بنَصْركَ**

---

(١)محمد باقر المحمودي، نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة: ٦/ ٢٣-٢٤.

فَغَزَاهُمْ فِيْ عُقْرِ دِيَارِهِمْ، وَهَجَمَ عَلَيْهِمْ فِيْ بُحْبُوحَةِ قَرَارِهِمْ، حَتّى ظَهَرَ أَمْرُكَ، وَعَلَتْ كَلِمَتُكَ، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾))(١).

فإذاً ما ركّز دعائم التوحيد والنبوة في النفس حركها نحو عالم الآخرة والمعاد وهو يرسم لها صورة حيّة، متحركة، ناطقة تنقل السامع من مرحلة إلى أخرى حتى أن الإنسان حين يتأملها بدقة، ويعيشها بإيمان، ووعي يشعر بأنه قد خرج من هذا العالم إلى عالم آخر، وهو ينتقل من عقبة إلى أخرى من عقبات يوم القيامة، فلنتأمل قليلاً في مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول: ((**إلهي ارْحَمْنَا غُرَبَاءَ إذَا تَضَمَّنَتْنَا بُطُوْنُ لُحُوْدِنَا، وغُمِّيَتْ باللَّبِنِ سُقُوْفُ بُيُوْتِنَا، وأُضْجِعْنَا مَسَاكِيْنَ عَلَى الأيْمَانِ فِيْ قُبُوْرِنَا وَخُلِّفْنَا فُرَادى فِيْ أَضْيَقِ المَضَاجِعِ، وَصَرَعَتْنَا المَنَايَا فِيْ أعْجَبِ المَصَارِعِ، وَصِرْنَا فِيْ دَارِ قَوْمٍ كَأنَّهَا مَأهُوْلَةٌ وَهِيَ مِنْهُمْ بَلاقِعُ.**

إلهي ارْحَمْنَا إذَا جِئْنَاكَ عُرَاةً حُفَاةً، مُغْبَرَّةً مِنْ ثَرَى الأَجْدَاثِ رُؤُوسُنَا، وَشَاحِبَةً مِنْ تُرَابِ المَلاحِيْدِ وُجُوْهُنَا، وَخَاشِعَةً مِنْ أَفْزَاعِ القِيَامَةِ أبْصَارُنَا...))(٢).

وهذا ما نجده واضحاً جلياً أيضاً في دعاء السحر للإمام زين العابدين عليه السلام وهو يصور حاله بين يدي الله تعالى بتلك المناجاة الجزلة التي تدل ببلاغتها البليغة ونورها الساطع، وعلومها الغزيرة بذاتها على ذاتها، أي أنها صدرت من خزائن النبوة والإمامة ولا يمكن أن تصدر من غير ذلك المنبع الفياض والكنز الرسالي من بيت العصمة والطهارة. فتراه عليه السلام يصور حاله بضراعة وخشوع تهتز لها الجبال الرواسي، ويتصاغر بين يدي الله تعالى في مواقف يُفني فيها ذاته ووجوده لله تعالى من خلال إحساسه بالتقصير في حق الله في الوقت الذي يشعر بسوء حاله إن نقل

---

(١) الصحيفة السجادية: الدعاء الثاني.

(٢) محمد باقر المحمودي، نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة: ٥٤/٦.

إلى القبر على تلك الحالة، وهذا الإحساس هو أروع صور التذلل، والعبودية والتصاغر بين يدي الواحد الأحد في محراب العبادة مجسداً فيه حقيقة العودة إلى الله، والوقوف بين يديه عز وجل في ساحة الحساب حاملاً أثقال الذنوب مع أنه هو المُطَهر منها، ولكن العارف بالله مهما عبد الله، وأفنى ذاته في عبادته يبقى يشعر بالوجل والخوف من عقاب الله تبارك وتعالى، يعطي كل شيء، ولا يُبقي لنفسه شيئاً، ورغم ذلك كله يقول: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾(١).

وهكذا نجد الإمام زين العابدين عليه السلام يوضح حقيقة المعاد مبتدءاً بالقبر بتصوير رائع يهز أوتار القلب، وينقل شعور الإنسان إلى عالم الآخرة، يقول عليه السلام:

«... فَمَنْ يَكُونُ أَسْوَأَ حالاً مِنِّي إِنْ أَنَا نُقِلْتُ عَلَى مِثْلِ حالِي إِلى قَبْرٍ لَمْ أُمَهِّدْهُ لِرَقْدَتِي، وَلَمْ أَفْرُشْهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ لِضَجْعَتِي؟ وَمَا لِي لا أَبْكِي؟ وَلا أَدْرِي إِلى مَا يَكُونُ مَصِيرِي، وَأَرى نَفْسِي تُخادِعُنِي، وَأَيَّامِي تُخاتِلُنِي، وَقَدْ خَفَقَتْ عِنْدَ رَأْسِي أَجْنِحَةُ الْمَوْتِ، فَما لِي لا أَبْكِي! أَبْكِي لِخُرُوجِ نَفْسِي، أَبْكِي لِظُلْمَةِ قَبْرِي، أَبْكِي لِضِيقِ لَحْدِي، أَبْكِي لِسُؤالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ إِيَّايَ أَبْكِي لِخُرُوجِي مِنْ قَبْرِي عُرْياناً ذَلِيلاً حامِلاً ثِقْلِي عَلَى ظَهْرِي، أَنْظُرُ مَرَّةً عَنْ يَمِينِي، وَأُخْرى عَنْ شِمالِي إِذِ الْخَلائِقُ فِي شَأْنٍ غَيْرِ شَأْنِي ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۞ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾(٢)»(٣).

كانت هذه بعض الصور من أدعية أهل البيت عليهم السلام توصّل وتجذّر عقيدة

---

(١) الإنسان: ١٠.

(٢) عبس: ٣٧-٤١.

(٣) مفاتيح الجنان: دعاء أبي حمزة الثمالي.

التوحيد، والنبوة، والمعاد... وما يرتبط بها من معارف إلهية تزكي النفوس، وتطهر القلوب، وترتفع بالإنسان من عالم التراب، وزخارف الدنيا إلى عالم النور في معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، وبيان حقيقة دينه وسمات أنبيائه ورسله (عليهم السلام)، يقول (عليه السلام): ((**اللّهُمَّ بذمَّة الإسْلامِ أتوسَّلُ إلَيْكَ، وَبحُرْمَة الْقُرْآن أعْتَمدُ عَلَيْكَ، وَبحُبِّي النَّبيَّ الأُمِّيَّ، الْقَرَشيَّ، الْهاشميَّ، الْعَرَبيَّ، التِّهاميَّ، الْمَكِّيَّ، الْمَدَنيَّ أرْجُو الزُّلْفَةَ لَدَيْكَ، فَلا تُوحشْ اسْتيناسَ إيماني، وَلا تَجْعَلْ ثَوابي ثَوابَ مَنْ عَبَدَ سواكَ...**))[١].

وفي ميدان النفس الإنسانية، وما تحويه من أسرار... وما تتضمنه من غرائز وشهوات وأهواء نجد أن الأئمة (عليهم السلام) يكشفون لنا من خلال الدعاء أسمى المعارف النفسية، والتربوية، والسلوكية في الحياة الاجتماعية، ففي مجال بيان حقيقة النفس نجد في مناجاة الشاكين أروع وأبدع تصوير، وأدق كشف وبيان لحقيقة النفس الأمارة بالسوء فيقول (عليه السلام): ((**إلهي إلَيْكَ أشْكُو نَفْساً بالسُّوء أمَّارَةً، وَإلَى الْخَطيئَة مُبادرةً، وَبمَعاصيكَ مُولَعَةً، وَلسَخَطكَ مُتَعَرِّضَةً، تَسْلُكُ بي مَسالكَ الْمَهالك، وَتَجْعَلُني عنْدَكَ أهْوَنَ هالك. كَثيرَةَ الْعلَل، طَويلَةَ الأمَل، إنْ مَسَّها الشَّرُّ تَجْزَعُ، وَإنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ تَمْنَعُ، مَيَّالَةً إلَى اللَّعب، وَاللَّهْو، مَمْلُوءَةً بالْغَفْلَة وَالسَّهْو، تُسْرعُ بي إلى الْحَوْبَة، وَتُسَوِّفُني بالتَّوْبَة...**))[٢]، ثم بعد ذلك يوضح أمراض القلب فيقول (عليه السلام): ((**إلهي إلَيْكَ أشْكُو قَلْباً قاسياً مَعَ الْوَسْواس مُتَقَلِّباً، وَبالرَّيْن وَالطَّبْع مُتَلَبِّساً، وَعَيْناً عَن الْبُكاء منْ خَوْفكَ جامدَةً، وَإلى ما يَسُرُّها طامحَةً**))[٣].

---

(١) مفاتيح الجنان: دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) مناجاة الشاكين.

(٣) المصدر نفسه.

وفي دعاء مكارم الأخلاق، وهو يمثل أعظم مدرسة أخلاقية في التغيير والبناء الفردي والاجتماعي نجد الإمام السجاد عليه السلام يوضح الأمراض التي تصيب النفس وهي: البطر، والكبر، والعُجب، والمنّ... وهي أمراض نفسية خطيرة تخرج الإنسان من إنسانيته، وتسقطه في مستنقع الكبرياء، والطغيان، والجبروت؛ لأنها تحصره في الإنية والأنانية، بل تخرجه من ولاية الله إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان.

يقول عليه السلام: ((**اللَّهُمَّ صَلّ عَلَى مُحَمَّد وَآله... وَلا تَفْتنّي بالنّظَر وَأعزّني، وَلا تَبْتَلِيَنّي بالكبْر، وَعَبّدْني لَكَ، وَلا تُفْسد عبَادَتي بالْعُجْب**))[1] وبعد أن شخّص تلك الأمراض راح يوضح أساليب الحماية والوقاية من الوقوع في شباك النفس وأهوائها، وهي اللجوء إلى الله والتوسل به؛ ليسلك بالإنسان سبيل الرشاد ويمنحه الهداية الصالحة، والطريقة الحقة، والنية الرشيدة، يقول عليه السلام: ((**اللَّهُمَّ صَلّ عَلَى مُحَمَّد وَآل مُحَمَّد، وَمَتّعني بهُدىً صالحٍ لا أسْتَبْدلُ به، وَطَريقَة حَقٍّ لا أزيغُ عَنْهَا، وَنيّة رُشْد لا أشُكُ فيهَا...**))[2] .

وهكذا استمر عليه السلام يحدد للإنسان الغايات والوسائل؛ ليضعه على جادة الصواب، وبهذا استطاع ((أن ينشر من خلال الدعاء جواً روحياً في المجتمع الإسلامي يساهم في تثبيت الإنسان المسلم عندما تعصف به المغريات وشدّه إلى ربه حينما تجره الأرض إليها، وتأكيد ما نشأ عليه من قيم روحيّة؛ لكي يظلّ أميناً عليها في عصر الغنى والثروة كما كان أميناً عليها، وهو يشد حجر المجاعة على بطنه))[3] .

---

(١)الصحيفة السجادية: الدعاء رقم: ٢٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره، مقدمة الصحيفة السجادية: ١٥.

ولو أردنا أن نتتبع – بدقة وتأمل – أدعية أهل البيت عليهم السلام لوجدنا أنها خزائنُ علم، ومعرفة، وتربية، وأدب في مختلف مجالات الحياة الإنسانية، وعلى مختلف الأصعدة الفكرية، والأخلاقية، والاقتصادية، والاجتماعية، والكونية وعلى جميع المستويات الفردية والاجتماعية، وفي كل الحالات التي تمر على الإنسان من اليسر والعسر، والشدة والرخاء، والصحة والمرض، والحرب والسلم، فهم عليهم السلام يعرضون أنفسهم كلما يمرون به على ساحة القدس الإلهي، ولا يتجاوزونها بحال؛ لأنهم صلوات الله عليهم قد سخروا كل حياتهم لعبادة الله تعالى، ولتعبيد خلقه إليه بالتبشير، والإنذار، والترغيب، والترهيب.

وقبل أن نختم هذا البحث لابد أن نشير إلى تصور عند البعض، خلاصته هو: أن أئمة أهل البيت عليهم السلام إنما يدعون الله تعالى بهذه المفاهيم العالية والعبارات الجزلة الرائعة؛ ليوصلوا مفاهيم الإسلام من خلال الدعاء، والمناجاة، والذكر؛ لأن الظروف السياسية أجبرتهم على ذلك فسلكوا مسلك الدعاء؛ ليربوا الناس بواسطته.

ونحن لا نشك بخطأ هذا التصور[1]؛ وذلك لأن الهداة إلى الله إذا وقفوا بين يديه تعالى للدعاء والمناجاة تجردوا لله عن كل خاطر ودافع يرتبط بالدنيا وبالناس وليس في نيّتهم أية ضميمة أخرى سوى إرادة وجه الله... وكيف لا يكونوا كذلك وقد عرفنا من سيرتهم أنهم إذا عزموا على الوضوء ارتعدت جوارحهم وجوانحهم واصفرت وجوههم، وغلبت على مشاعرهم الخشية والخوف من الله تعالى حتى إنهم لا يشعرون بوجود من سواه.

فأين تقع الإرادات الأخرى من هذا؟ روى الحافظ أبو نعيم الأصفهاني عن

---

(١) راجع كلام الإمام الخميني في المظاهر الرحمانية: ١٧، وقد ذكرناه في أول الكتاب.

الإمام زين العابدين عليه السلام أنه: ((إذا فرغ من وضوئه للصلاة، وصار بين وضوئه وصلاته أخذته رعدة ونفضة، فقيل له في ذلك، فقال: **ويحكم أتدرون إلى من أقوم؟ ومن أريد أن أناجي**))(١) .

ونحن لا ننكر تأثير تلك الأدعية على سامعيها من الإمام، وأنها أدت دوراً هاماً في تغيير كثير من الناس، ولكننا ننكر أن الأئمة كانوا يدعون لأجل ذلك والعياذ بالله، يقول الإمام الخميني قدس سره لولده أحمد: ((عزيزي؛ فلتقرأ أدعية الأئمة المعصومين؛ ولِتَنظر كيف أنهم يعتبرون حسناتهم سيئات، وكيف يرون أنهم يستحقون العذاب الإلهي، ولا يفكرون سوى برحمة الحق تعالى، وأهل الدنيا - وتلك الفئة من المعممين اللاهثين وراء بطونهم- إنما يؤوّلون هذه الأدعية؛ لأنهم لم يعرفوا الحق جل وعلا.

بني: والأمر في ذلك فوق ما نتصوره، فهم بين يدي عظمة الله، فانون من أنفسهم، لا يرون غيره تعالى، وفي تلك الحال ليس هناك كلام أو ذكر أو فكر وليس هناك ذات، وهذه الأدعية الكريمة والمناجاة إنما صدرت منهم في حال الصحو قبل المحو، أو بعد المحو))(٢) .

ورغم هذه الأهمية لأدعية أهل بيت الوحي والرسالة عليهم السلام، والدور الذي

---

(١) أبي نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء: ١٣٣/٣، دار الكتاب العربي.

(٢) الإمام الخميني، المظاهر الرحمانية: ٨٧ ، وموعد اللقاء: ١٣٣. وقال قدس سره: ((تفكر قليلاً في حالة علي بن الحسين عليهما السلام الرقيقة التي تعلم عباد الله آداب العبودية، ولست أقصد من قولي هذا أن مناجاة هؤلاء العظام كانت تهدف تعليم العباد، فهذا كلام فارغ، وقول باطل لا ينتج إلاّ عن الجهل بمقام الربوبية ومعارف أهل البيت عليهم السلام، فقد كانوا عليهم السلام أكثر الجميع خوفاً وخشية من الحق تعالى، إذ أن عظمة الحق وجلاله تجلت في قلوبهم بما يفوق ما يتجلّى على أيّ قلب)) آداب الصلاة، ترجمة دار الآثار: ٢٣٨.

أخذته في حياة المؤمنين إلا أنها لم تحض من قبل العلماء بدراسات تحليلي توضح ما فيها من أبعاد كثيرة - إلا ما ندر - نسأل الله أن يوفق الرساليين من حم الأقلام للقيام بدراسات تكشفُ ما في هذه الأدعية من كنوز المعرفة، والعل والأدب.

وما دونته في هذا البحث المبسط هو عبارة عن تأملات في مقطع من دع الإمام زين العابدين عليه السلام الوارد بعد زيارة أمين الله لأمير المؤمنين عليه السلام، ومقط آخر من دعاء مكارم الأخلاق، ثم عرضت في الفصل الثالث إلى أسباب الجفاء الروحي من خلال مقطع من دعاء السحر ثم ختمت هذه البحوث بدراسة موج عن زيارات أهل البيت عليهم السلام باعتبار أن الزيارة دعاء وتعهد لله في مشاه المطهرين لمواصلة السير على نهجهم. أسأل الله تعالى أن يجعل هذه الوريقا ذخيرة لي ولوالدي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

المؤلف

٢٠ / شعبان / ١٤٢٧ هـ

١

الكمالات النفسية
في
أدعية أهل البيت (ع)

((**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسي مُطْمَئِنَّةً بِقَدَرِكَ، راضِيَةً بِقَضائِكَ، مُولَعَةً بِذِكْرِكَ وَدُعائِكَ، مُحِبَّةً لِصَفْوَةِ أَوْلِيائِكَ، مَحْبُوبَةً في أَرْضِكَ وَسَمائِكَ، صابِرَةً عَلَى نُزُولِ بَلائِكَ، شاكِرَةً لِفَواضِلِ نَعْمائِكَ، ذاكِرَةً لِسَوابِغِ آلائِكَ، مُشْتاقَةً إلى فَرْحَةِ لِقائِكَ، مُتَزَوِّدَةً التَّقْوى لِيَومِ جَزائِكَ، مُسْتَنَّةً بِسُنَنِ أَوْلِيائِكَ، مُفارِقَةً لأَخْلاقِ أَعْدائِكَ، مَشْغُولَةً عَنِ الدُّنْيا بِحَمْدِكَ وَثَنائِكَ**)).

((من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام بعد زيارة أمين الله))

وقفة تأمل دقيقة عند النص المتقدم نعرف من خلالها ما يجب أن تتصف به نفس المؤمن من صفات سامية في رحاب العلاقة مع الله تعالى، فكل مقطع من مقاطع هذا الدعاء يُبَرِّزُ صفة نفسية عالية تنبئ عن وعي إيماني عميق الغور للعلاقة مع الله تعالى.

وكأنَّ الإمام عليه السلام يريد أن يقول، وهو ممتثل بين يدي رب العزة والجلال أن نفس الإنسان ما لم تتحلى بتلك الخصال لا يمكنها مواصلة السير والكدح إلى الله تعالى فالاطمئنان بصلاح تقدير الله للإنسان، والرضا بقضائه، والتولع بذكره ودعائه، والحب لأوليائه، والصبر عند نزول بلائه، والشكر على نعمائه، والذكر لسوابغ آلائه،

والشوق إلى لقائه، والتزود بالتقوى ليوم جزائه، والاستنان بسنن أوليائه، والمفارَقة لأخلاق أعدائه، والانشغال عن الدنيا بحمده وثنائه... كلها صفات نفسية سامية، وأخلاق عملية راقية، ترسم العلاقة مع الله تعالى في التوجه إليه تعالى بقلب خاشع سليم مسلمة لأمره، منقادة لأحكامه، منفذة لأوامره.

وهذه الصفات هي قمة الكمال الإنساني في البناء الروحي، والفكري والأخلاقي... فلنقف قليلاً عند كل فقرة من فقرات هذا الدعاء؛ لنستوحي منها ما يصلح نفوسنا، ويطهرها من أدران الذنوب، وسيئات الأخلاق؛ ولنرى ما فيها من أبعاد روحية لبناء، وصياغة النفسية المؤمنة التي لا ترى مؤثراً في الوجود إلا الله تبارك وتعالى، ولنعلم أن التأمل والتدبر في أدعية المعصومين هو ديدن العارفين، وسبيل المجاهدين يقول العارف الكبير الإمام الخميني في إحدى وصاياه لولده أحمد: ((وليكن التأمل في أدعية المعصومين وتحرقهم وتفجعهم خوفاً من الحق، وعذابه ديدنك في أفكارك وسلوكاتك))[1] ولنعود إلى الخصال التي أبرَزَها الدعاء، حيث توسل الإمام إلى الله تعالى أن يرزقه إياها رغم وجودها فيه، وهذه الخصال هي:

أولاً: الاطمئنان بالقدر الإلهي:

((**اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي مُطْمَئِنَّةً بِقَدَرِكَ**)).

الاطمئنان بالقدر الإلهي مرتبة نفسية عالية يرزقها الله لمن أسلم وجهه له تعالى بصدق، وإخلاص، ووعي. والاطمئنان هو: سكون نفس الإنسان، وتسليمها إلى كل ما يقدره الله تعالى مما تحب أو تكره، فان ورد عليها ما تحب شكرت،

---

(١) الإمام الخميني ، موعد اللقاء: ١٢٠.

وإن ورد عليها ما تكره صبرت بدون جزع واعتراض، بل ولا تسائل، لأن المؤمن بالقدر الإلهي يرى نفسه عبداً لله لا يملك لنفسه خيراً ولا شراً، ولا نفعاً ولا ضراً، ويوقن أن ما قدره الله تعالى له سواء كان مرغوباً لنفسه، أو ثقيلاً عليها فهو لصالحه وخيره؛ لأن الله تعالى في سننه لا يُقَدر للإنسان، ولا يختار له إلا ما يصلحه ويهديه قيل للإمام الحسن المجتبى عليه السلام: ((إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليَّ من الغنى، والسقم أحب إليَّ من الصحة، فقال عليه السلام: **رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من أتكل على حُسن اختيار الله له، لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختارها الله تعالى له، وهذا حد الوقوف على الرضا بما تصرّف به القضاء**))[1].

وعلى كل حال فالإنسان محكوم لتقدير الله، وأعني بذلك أن الله تعالى وضع سنناً للكون والحياة، والإنسان مهما عظمت قدرته وقابليته، واتسعت حيلته لا يستطيع أن يفلت من القدر الإلهي ففي الحديث عن ابن نُباتَةَ، قال: ((قال أمير المؤمنين عليه السلام: **أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: يا داود تريد وأريد، ولا يكون إلا ما أريد، فإن أسلمت لما أريد أعطيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد**))[2] ولا يعني ذلك سلب اختيار الإنسان، وتسيّره كآلة صماء لا تستطيع أن تخرج عما رُسِمَ إليها؛ لأن الإنسان حر مختار، ولكن اختياره في دائرة السنن الكونية، وقد منحه الله تعالى نسبة عالية من الاختيار فعندما خلق الله الإنسان وسواه وعدله وضع له القوانين، وهداه إلى تقديره، وأمره بالتحرك ضمن تلك القوانين، وحذره من مخالفتها، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ

---

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: ٢٩/٧.

(٢) الشيخ الصدوق، التوحيد: ٣٣٧.

﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[(١)].

((أي هدى ما خلقه إلى ما قدر له، ثم أتم ذلك بإمضاء القضاء، وفي معناه قوله في الإنسان: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾[(٢)] ويشير بقوله: ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ إلى أن التقدير لا ينافي اختيارية أفعاله الاختيارية))[(٣)].

((معنى القدر))

لغة ما يقدره الله عز وجل من القضاء، ويحكم به من الأمور قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[(٤)] أي الحكم كما قال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾[(٥)].

((فالقدر بالفتح فالسكون ما يقدره الله من القضاء، وبالفتح ما صدر مقدوراً عن فعل القادر))[(٦)].

وفي نهج البلاغة: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن القَدَر، فقال: ((**طريق مظلم فلا تسلكوه، وبحر عميق فلا تلجوه، وسرّ الله فلا تتكلفوه**))[(٧)].

قال بعض الشارحين: ((معنى القدر هنا مالا نهاية له من معلومات الله فإنه لا

---

(١) الأعلى: ٢-٣.

(٢) عبس: ١٩-٢٠.

(٣) العلامة الطباطبائي قدس سره، الميزان في تفسير القران: ٩١/١٩.

(٤) القدر: ١.

(٥) الدخان: ٤.

(٦) الشيخ الطريحي، مجمع البحرين: ٤٥٠/٣ .

(٧) الشريف الرضي، نهج البلاغة: قصار الحكم: ٢٨٧ .

طريق لنا، ولا إلى مقدوراته، وقيل: القَدَر هنا ما يكون مكتوباً في اللوح المحفوظ، وما دللنا على تفصيله، وليس لنا أن نتكلفه))[١].

ويقول العلامة الطباطبائي قدس سره: ((القدر وهو هندسة الشيء، وحد وجوده مما تكرر ذكره في كلامه تعالى فيما تكلم فيه في أمر الخلقة، قال تعالى: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾[٢].

ويؤيد ذلك ما ورد من تفسير القدر بمثل العرض، والطول، وسائر الحدود والخصوصيات الطبيعية الجسمانية كما في المحاسن عن أبيه عن يونس عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: **لا يكون إلا ما شاء الله وأراد، وقدّر، وقضى**، قلت: فما معنى شاء؟ قال: **ابتدأ الفعل**، قلت: فما معنى أراد؟ قال: **الثبوت عليه**، قلت: فما معنى قدَّر؟ قال: **تقدير الشيء من طوله وعرضه**، قلت: فما معنى قضى؟ **قال: إذا قضى أمضاه فذلك الذي لا مرد له.**

وروى هذا المعنى عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمّد بن إسحاق عن الرضا عليه السلام في خبر مفصل، وفيه: فقال: **أو تدري ما قدر؟** قال: لا، قال: **هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء**))[٣].

إذن التقدير هو التخطيط الذي وضعه الله للإنسان، لسلوك منهجه، وتطبيق شريعته، ورَسم له خطوات سلوكه، وحدد إليه وسائله، ولم يجبره على سلوكه بقوة قاهرة لا مفر منها، بل منحه قدرة الاختيار، في الوقت الذي أمره بامتثال أوامره وأوعده حسن الجزاء إن امتثل، وحذَّره من عقابه إن خالف وعصى وتمرد... ومن

---

(١) الشيخ الطريحي، مجمع البحرين: ٤٥١/٣ .

(٢) الحجر: ٢١.

(٣) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٩٠/١٩.

خلال هذا التصور لا يبطل الثواب والعقاب، ولا يسقط الوعد والوعيد، ويتضح لنا ذلك جلياً بجواب أمير المؤمنين للشامي الذي سأله قائلاً: ((أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ فقال : **ويحك! لعلك ظننت قضاء لازماً، وقدراً حاتماً ولو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولم يطع مكرهاً ولم يرسل الأنبياء لعباً ولم يُنزل الكتاب للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً** ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾))[1].

فالإنسان حر في اختياره، وتحركه ضمن دائرة التقدير الإلهي، وهناك تلازم بين عمل الإنسان بحريته واختياره والتقدير الإلهي. قيل للإمام زين العابدين : ((أبقَدر يصيب الناس ما أصابهم أم بعمل؟ فقال: **إنّ القدر والعمل بمنزلة الروح والجسد، فالروح بغير الجسد لا يحس، والجسد بغير روح صورة لا حراك بها فإذا اجتمعا قَويا وصلُحا، وكذلك العمل والقدر، فلو لم يكن القدر واقعاً على العمل لم يُعرف الخالق من المخلوق، وكان القدر شيئاً لم يحس، ولو لم يكن العمل لموافقة من القدر لم يمض ولم يتم، ولكنهما باجتماعهما قويا، والله فيه العون لعباده الصالحين**))[2].

إذن هناك ترابط وتلازم بين التقدير الإلهي وعمل الإنسان، وبعبارة أخرى

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: الكلمات القصار: ٧٨، والمحدث المجلسي في بحار الأنوار: ١٢٦/٥.

(٢) الفيض الكاشاني، نوادر الأخبار: ١٠٢، تحقيق مهدي الأنصاري ألقمي نشر مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنكي.

رغم أن الإنسان حر مختار إلا أنه لا يملك الاستقلالية المطلقة عن إرادة الله تعالى كما أنه لم يكن مُسَيّراً تسيّراً آلياً لا يستطيع أن يحيد عنه؛ لان الله تبارك وتعالى وضع للإنسان منهجاً، وأوضحه إليه وضوحاً كاملاً كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١].

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٢].

والنجد هو الطريق المرتفع والمراد بالنجدين طريق الخير وطريق الشر فيكون المعنى ((علمناه طريق الخير، وطريق الشر بإلهام منا فهو يعرف الخير ويميزه من الشر))[٣].

وكما أوضح له طريق الهدى، وطريق الضلال وبيَّن له عواقب المسير في كل منهما في الوقت الذي منحه القدرة على السير في كل منهما منحه قوة التمييز والتشخيص. بين الخير والشر، والحق والباطل... الخ .

إذن التخطيط، والبيان، ومنح القدرة، والقوة على الحركة، والوعد والوعيد كلها هبات للإنسان من الله مقرونة بالترغيب والترهيب، وعليه أن يمتثل للأوامر الإلهية ضمن التقدير المحدد من قبل الله تعالى، ولكن لا بصيغة التسيِّر الآلي وإنما بصيغة الطاعة الاختيارية، ومن هنا تحقق التلازم بين العمل والتقدير، وما يجب أن يُسَلِمَ الإنسان إليه، ويطمئن به هو صحة ذلك التقدير، وأنه فوق كل تقدير وتخطيط آخر، ولما كان هو التخطيط والتقدير الأمثل، والأسمى والأصح الذي لا يعتريه نقصان ولا عيب؛ لأنه نزل من رب العزة والكمال فالنجاة من شقاء الدنيا

(١) الإنسان: ٣.

(٢) البلد: ١٠.

(٣) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢٩٢/٢٠.

والآخرة تنحصر به دون سواه. إذن اليقين بقدر الله يحفظ الإنسان من التعب النفسي، والانهزام أمام الواقع الفاسد، والجزع عند حلول المصائب، وبهذا المعنى وردت أحاديث كثيرة كقولهم (عليهم السلام):

((**عجب... لمن يؤمن بالقدر كيف ينصب؟**))[١].

((**عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يفرق؟**))[٢].

((**عجب لمن أيقن بالقدر كيف يحزن؟!**))[٣].

((**عجبت لمن أيقن بالقدر كيف يستبطئ الله في رزقه؟!**))[٤].

وسر هذا التعجب أن المؤمن بالله تعالى، وبحسن تقديره لم يعد يخشَ إلا الله تعالى، ومن لا يخشى إلا الله يرزقه الله الاطمئنان في كل حالاته المُسرة والمحزنة، ويدخل هذا في كل تفاصيل حياة الإنسان، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): ((**إن الله تعالى لم يجعل للعبد، وإن اشتدت حيلته، وعظمت طلبته، وقويت مكيدته أكثر مما سُمي له في الذكر الحكيم، ولم يحل بين العبد في ضعفه، وقلة حيلته أن يبلغ دون ما سمُي له في الذكر الحكيم، وإن العارف لهذا، العامل به أعظم الناس راحة في منفعة، وأن التارك له، والشاك فيه لأعظم الناس شغلاً في مضرة**))[٥].

وفي حديث آخر عنه (عليه السلام): ((**من أيقن بالقدر لم يكترث بما نابه**))[٦].

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧١/١٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٦/١٣.

(٣) المصدر نفسه: ٢٨٨.

(٤) المصدر نفسه: ٢٩٥.

(٥) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٠٢، ح/١٧٩٧ .

(٦) المصدر نفسه: ١٠٣، ح/١٨١٩.

((لوازم الاطمئنان بالقدر الإلهي))

لا يمكن أن يفوز الإنسان بالاطمئنان الكامل بالقدر الإلهي ما لم يوجد في نفسه لوازمه ومقتضياته، ومن أهم لوازمه ومقتضياته:

١- الإيمان الصادق بالله تعالى، والوعي التام لأحكامه: وأعني بالإيمان الصادق الإيمان الذي يعتمد على البرهان الصحيح، وينزل من عالم العقل والفكر إلى عالم القلب والوجدان حتى يتفاعل عالم الفكر والبرهان مع الوجدان العاطفي؛ ليتحول إلى حب لكل أمر يأتي من المولى الحق تعالى سواء كان محبوباً للنفس، أو ثقيلاً عليها بل تُسَلم تسليمَ الرضا والاطمئنان لذلك الأمر، فالإيمان المقصود هو: الاطمئنان النفسي، والشعور العميق بالله الذي يصدر عنه المؤمنون في جميع أعمالهم وحركاتهم، والتي تعبر عنه الآية الكريمة بهذه اللهجة الرقيقة المؤمنة التي تشف عن إيمان بالله عميق ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[١].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لابد لتلك النفس أن تعي أحكام الله وتفقه ما تريد، وتلتزم بها التزاماً دقيقاً، فإذا تحقق للإنسان ذلك فلا يمكن أن يعترض على أمر نزل به، أو حكم كُلف فيه، فلا يسخط، ولا يتبرم، ولا يتكاسل ولا يتهاون، بل يواصل السير بقدم ثابت، وهذا هو تمام التدين بدين الله تعالى يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

((الدين شجرة أصلها التسليم والرضا)) .

((كن راضياً تكن مرضياً)) .

((نعم قرين الإيمان الرضا))[٢] .

---

(١) الأنعام: ١٦٢.

(٢) الآمدي، تصنيف غرر الحكم: ١٠٣، ح/١٨٢٤-١٨٣٠-١٨٣٢.

٢- معرفة سنن الله تعالى، والسير ضمن دائرتها: لعل كل الذين أساءوا فهم القدر الإلهي لم يفهموا سنن الله تعالى في الكون والحياة والإنسان، أو تصوروا أن القدر يعمل منفصلاً عن السنن الإلهية في المجال الكوني والاجتماعي بكل جوانبه السياسية والاجتماعية، ولكن الحقيقة لا يمكن أن ينصر الله من يتقاعس عن حمل رسالته والتضحية في سبيله؛ لأن الصراع بين الحق والباطل سنة من سنن الله، ومن يعمل على نشر رسالة الله لابد أن يواجه المحن والفتن والابتلاء وكل ذلك من سنن الله التي لا مفر منها بحال فإذا وعى الإنسان ذلك فسوف يواصل سيره وكدحه إلى الله رغم الصعوبات والمشاكل والعوائق والأشواك التي تعترض طريق سيره، ورغم ذلك فسيكون راضياً مطمئناً على كل حال، فهو لا ينظر إلى نتائج عمله، ولكن يريد أن يحافظ على امتثال أمر ربه تعالى يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**إن من شغل نفسه بالمفروض عليه عن المضمون له، ورضي بالمقدور عليه وله. كان أكثر الناس سلامة في عافية، وربحاً في غبطة، وغنيمة في مسرة**))[١] .

ثانياً: الرضا بالقضاء:

((**راضِيَةً بِقَضائِكَ**)) .

وهذه مرتبة أخرى من مراتب الإيمان، بل عَدّته بعض الأحاديث من أركان الإيمان الأساسية فعن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال: ((**الصبر والرضا عن الله رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضى عليه مما أحب أو كره [لم يقض الله له فيما أحب أو كره] إلا ما هو خير له**))[٢] .

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم: ١٠٣، ح/١٨١٦.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٥٩/٧١.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((**أجدر الأشياء بصدق الإيمان: الرضا والتسليم**))[١].

وقال عليه السلام: ((**من أفضل الإيمان الرضا بما يأتي به القدر**))[٢].

ومعنى الرضا: هو أن يستقبل العبد ما يأمر به الله بصدر منشرح، ونفس مطمئنة بدون اعتراض، ولا جزع، ولا تساؤل، بل بصبر، ورضاً، وطاعة، وتسليم مطلق، يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته: ((ورضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمراً لأمره، ومنتهياً عن نهيه، قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[٣]))[٤].

ومعنى الرضا هنا: ((موافقة النفس لفعل من الأفعال من غير تضادٍ وتدافع، يقال: رضي بكذا أي وافقه، ولم يمتنع منه، ويتحقق بعدم كراهته إياه سواء أحبه، أو لم يحبه، ولم يكرهه، فرضى العبد عن الله هو أن لا يكره بعض ما يريده الله، ولا يحب بعض ما يبغضه، ولا يتحقق إلا إذا رضي بقضائه تعالى، وما يظهر من أفعاله التكوينية، وكذا بحكمه، وما أراده منه تشريعاً، وبعبارة أخرى إذا سلم له في التكوين والتشريع، وهو الإسلام والتسليم لله سبحانه))[٥].

وعلى كل حال الرضا مقام من مقامات العارفين بالله، وهو من أعلى وأسمى تلك المقامات لا يناله إلا من عرف الله معرفة يقينية، وبالتالي هو ثمرة من ثمرات

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم: ١٠٣، ح/١٨٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ح/١٨٢١.

(٣) التوبة: ١٠٠.

(٤) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ١٩٧.

(٥) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٧٥/٩.

المحبة كما يقول علماء الأخلاق كما نسب للإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ((**صفة الرضاء أن يرضي المحبوب والمكروه، والرضاء شعاع نور المعرفة، والراضي فانٍ عن جميع اختياره، والراضي حقيقة هو المرضي عنه، والرضا اسم يجتمع فيه معاني العبودية، وتفسير الرضا سرور القلب. سمعت أبي محمد الباقر عليه السلام يقول: تعلق القلب بالموجود شرك، وبالمفقود كفر، وهما جناحان من سنة وأعجب بمن يدّعي العبودية لله كيف ينازعه في مقدوراته، حاشا الراضين العارفين عن ذلك**))(١) .

وقال صاحب كتاب منازل السائرين في تعريف الرضا: ((**والرضا اسم للوقوف الصادق، حيث ما وقف العبد لا يلتمس متقدماً ولا متأخراً، ولا يستزيد مزيداً، ولا يستبدل حالاً، وهو من أوائل مسالك أهل الخصوص وأشقها على العامة**))(٢) .

وقد أوضح الشارح هذه العبارات المغلقة بقوله: ((الوقوف الصادق هو الوقوف مع مراد الحق تعالى حقيقة من غير تردد في ذلك))(٣) .

وخلاصة الكلام: الرضا هو التسليم المطلق لإرادة الله، والامتثال الكامل لأوامره تعالى بصدر منشرح، وقلب مسرور بدون اعتراض، ولا تسائل، وإنما قبول بسرور وانشراح كما تلقى نبي الله إسماعيل الأمر بذبحه حينما قال له أبوه عليهما السلام:

﴿**قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ**﴾(٤) .

---

(١) مصباح الشريعة: ١٨٢ .

(٢) عفيف الدين التلمساني، شرح منازل السائرين: ٢٢٥ .

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الصافات: ١٠٢.

إنه موقف صعب حرج عسير، بل مستصعب على النفس بأقسى درجات الصعوبة ولكن الراضي بقضاء الله، وقدره لم يكن ليلاقي تلك الصعوبات بتضجر أو استنكار، وإنما أجاب على الفور وبدون تردد ولا تسائل ولا اعتراض ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

هذا الموقف من أجلى مصاديق الرضا بالقضاء الإلهي، هكذا يتلقى الراضون بالقضاء والقدر أمر الله تعالى بتسليم واطمئنان قائلين: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[2].

((معنى القضاء))

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: ((القضاء فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً وكل واحد منهما على وجهين: إلهي وبشري، فمن القول الإلهي: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[3] أي أمر بذلك ...))[4].

وقال المحدث المجلسي: ((وسمعت بعض أهل العلم يقول إن القضاء على عشرة أوجه: **فأول وجه منها** : العلم، وهو قول الله عز وجل : ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا﴾[5] يعني علمها.

---

(١) الصافات: ١٠٢.

(٢) البقرة: ٢٨٥.

(٣) الإسراء: ٢٣.

(٤) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٤٠٦.

(٥) يوسف: ٦٨.

والثاني: الإعلام، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ**﴾[١] وقوله عزّ وجلّ: ﴿**وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ**﴾[٢] أي أعلمناه.

والثالث: الحكم، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾[٣] يعني يحكم بالحق.

والرابع: القول، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ**﴾[٤] أي يقول الحق.

والخامس: الحتم، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿**فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ**﴾[٥] يعني حتمنا، فهو القضاء الحتم.

والسادس: الأمر، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ**﴾[٦] يعني أمر ربك.

والسابع: الخلق، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿**فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ**﴾[٧] يعني خلقهن.

والثامن: الفعل، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿**فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ**﴾[٨] أي افعل ما أنت

---

(١) الإسراء: ٤.

(٢) الحجر: ٦٦.

(٣) يونس: ٩٣.

(٤) غافر: ٢٠.

(٥) سبأ: ١٤.

(٦) الإسراء: ٢٣.

(٧) فصلت: ١٢.

(٨) طه: ٧٢.

فاعل.

والتاسع: الإتمام، وهو قوله ﷻ: ﴿**قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ**﴾[(١)] وقوله ﷻ حكاية عن موسى: ﴿**أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾[(٢)] أي أتممت.

والعاشر: الفراغ من الشيء، وهو قوله ﷻ: ﴿**قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**﴾[(٣)] يعني فرغ لكما منه، وقول القائل: **(قد قضيت لك حاجتك)** يعني فرغت لك منها فيجوز أن يقال: إن الأشياء كلها بقضاء الله وقدره تبارك وتعالى بمعنى أن الله ﷻ قد علمها، وعلم مقاديرها، وله ﷻ في جميعها حكم من خير أو شر، فما كان من خير فقد قضاه بمعنى أنه أمر به وحتَّمَه، وجعله حقاً، وعلم مبلغه ومقداره، وما كان من شر فلم يأمر به ولم يرضه، ولكنه ﷻ قد قضاه وقدره بمعنى أنه علمه بمقداره ومبلغه وحكم فيه بحكمه))[(٤)] انتهى كلامه رفع الله مقامه.

فالقضاء إذن معنى متشعب المعاني واسع الأبعاد، وإنما ذكرنا ذلك توضيحاً للأمر كما ذكره القرآن الكريم؛ لنتوصل بذلك إلى المعنى الأساسي المراد في بحثنا كما بينه المحدث المجلسي حيث قال: ((والوجه عندنا في القضاء والقدر بعد الذي بيناه أن لله تعالى في خلقه قضاءاً و قدراً، وفي أفعالهم أيضاً قضاءاً وقدراً معلوماً، ويكون المراد بذلك أنه قد قضى في أفعالهم الحسنة بالأمر بها، وفي أفعالهم القبيحة بالنهي عنها، وفي أنفسهم بالخلق لها، وفيما فعله فيهم بالإيجاد له، والقدر

(١) القصص: ٢٩.

(٢) القصص: ٢٨.

(٣) يوسف: ٤١.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٠٧/٥-١٠٨.

منه سبحانه فيما فعله إيقاعه في حقه وموضعه، وفي أفعال عباده ما قضاه فيها من الأمر والنهي والثواب والعقاب؛ لأن ذلك كله واقع موقعه وموضوع في مكانه لم يقع عبثاً، ولم يصنع باطلاً.

فإذا فُسر القضاء في أفعال الله تعالى والقدر بما شرحناه زالت الشبهة منه وثبتت الحجة به، ووضح القول فيه لذوي العقول، ولم يلحقه فساد ولا اختلال))[١]

والقضاء الإلهي الذي يجب على الإنسان أن يرضى به، وتقتنع نفسه وتطمئن إليه هو الخضوع لحكم الله، والالتزام به له أو عليه، وأن يعتقد اعتقاداً لا تردد فيه بأنه ((لا يكون إلا ما شاء وأراد وقدر وقضى)) و ((**إن الله إذا شاء شيئاً أراده، وإذا أراد قدره، وإذا قدره قضاه، وإذا قضاه أمضاه**))[٢]، وأن يوقن أن كل قضاء إلهي يجري هو لصالح الإنسان ومنفعته سواء كان حلواً أو مراً، إلتذت به النفس، أو اشمأزت منه؛ لأن كل ما يجريه الله تعالى للإنسان هو خير له فسواء ملك الدنيا وسيطر عليها، وتصرف في خيراتها فهو خير له، أو شُرد وسُجن وقُتل فهو خير له يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((**عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاء إلا كان خيراً له، وإن قُرِضَ بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له**))[٣].

وعنه عليه السلام: ((**إن فيما أوحى الله عز وجل إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى بن عمران، ما خلقت خلقاً أحب إليَّ من عبدي المؤمن، فإني إنما ابتليه لما هو خير له، وأعافيه لما هو خير له، وأزوي عنه ما هو شر له لما هو خير له، وأنا**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٥/ ٩٩.

(٢) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٧٤/١٣.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٦٢/٢.

أعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرض بقضائي أكتبه في الصدِّيقين إذا عمل برضائي، وأطاع أمري))(١) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: ((**ضحك رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا تسألوني مم ضحكت؟ قالوا: بلى يا رسول الله؛ قال: عجبت للمرء المسلم إنه ليس من قضاء يقضيه الله عز وجل له إلا كان خيراً له في عاقبة أمره))**(٢) .

((شروط تحصيل الرضا بالقضاء والقدر))

لا يمكن لنفس الإنسان أن ترضى وتطمئن للقضاء والقدر الإلهي ما لم تتوفر لها عناصر الاطمئنان والرضا من الإيمان، والعلم، والعمل. ويمكننا من خلال بعض الأحاديث أن نحدد تلك العناصر بما يلي:

١ - **المعرفة بالله تعالى:** فمن كان عارفاً بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه وسننه في الكون والحياة والإنسان، وموقن بأن الله خالقه، ومدبره ومراقبه، ومحييه، ومميته، ومحاسبه، وأنه لن يفلت من قضاء الله وتقديره، وأن الله لن يُقَدِر له إلا الخير والصلاح والهدى، فسوف تطمئن نفسه بقضائه، وترضى بقدره في كل حالة من حالاته سراء كانت أم ضراء، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**أعلم الناس بالله أرضاهم بقضائه))**(٣) .

وقال الإمام الباقر عليه السلام: ((**أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله عز وجل من**

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢/٦١-٦٢.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١/١٤١.

(٣) الآمدي، تصنيف غرر الحكم: ١٠٣، ح/١٨١١.

عرف الله عز وجل))[١] .

وقد دلت هذه الأحاديث ((على أن الرضا بالقضاء تابع للعلم والمعرفة، وأنه قابل للشدة والضعف مثلها، والوجه فيه، أن بناء الرضا على العلم، بأنه عدل حكيم يفعل الأشياء على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فكلما كان العلم بالله أزيد وأتم كان الرضا بقضائه أكثر وأعظم، وأيضاً الرضا به ثمرة المحبة والمحبة تابعة للعلم به))[٢] .

وخلاصة الكلام: ((إن من عرف الله حق معرفته، وعرف حكمته، وعدله ولطفه، وإحسانه فهو أحق أن يسلم ما قضاه الله عليه من غيره؛ لأن التسليم له تابع للمعرفة، فكلما كانت المعرفة أكمل وأكثر كان التسليم أولى وأجدر))[٣] .

ومعرفة الله تعالى في الفكر الإسلامي هي العمود الفقري الذي تتقوم به كل المعارف الإسلامية الأخرى، منه تنبع، وبه تتقوم، وإليه تعود، وبدونها لا يحصل الكمال في أي جانب من الجوانب المعنوية في حياة الإنسان، ولذا تتفاوت الشخصيات قوة وضعفاً بتفاوت درجات المعرفة، فكلما ازدادت المعرفة ازدادت المحبة، وكلما ازدادت المحبة قوي الرضا بالوارد من المحبوب؛ لأن الوارد من المحبوب محبوب.

ولما كان الإيمان مراتبَ ودرجات فيمكن للإنسان من خلال دراسته لشخصيته ومعرفته بنفسه، والتدقيق بتصوراته وأفكاره ومواقفه أن يعرف في أي درجة من درجات الإيمان هو؛ وحينئذ يتسنى له رفع قدرته المعنوية، وهذا الأمر

(١) النراقي، جامع السعادات: ٢٠٤/٣.

(٢) المولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي: ١٩٨/٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢٠٢.

من أهم ما يجب أن يلحظه الإنسان في نفسه؛ ليعرف نفسه، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه... وبهذه المعرفة يترقى الإنسان من مرتبة إلى أخرى، وبذلك يتصاعد في مراتب الكمال رويداً رويداً... ولأجل هذا لابد للإنسان أن يراجع تصوراته وتفكيره ومواقفه؛ ليحاسب نفسه محاسبة دقيقة، وليقف على حقيقة إيمانه، ولعله من أجل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**ما بلغ من إيمانكم؟**)) لمن قالوا له: ((**نحن مؤمنون حقاً يا رسول الله**)).

وعن أبي الحسن الرضا عن أبيه عليهما السلام قال: ((**رُفع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قوم في بعض غزواته، فقال: مَنْ القوم؟ فقالوا: مؤمنون يا رسول الله، قال: وما بلغ من إيمانكم؟ قالوا: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بالقضاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: حلماء علماء كادوا من الفقه أن يكونوا أنبياء إن كنتم كما تصفون فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتّقوا الله الذي إليه ترجعون**))(١) .

٢- **حب الله والحب لله تعالى**: وهو إخلاء القلب من كل شاغل غير الله ومن كل ذكر سواه، ولعله هذا هو معنى قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ((**حب الله نار لا يمر على شيء إلا احترق، ونور الله لا يطّلع على شيء إلا أضاء... فمن أحب الله أعطاه كل شيء من المال والملك**))(٢) .

وحب الله هو ثمرة المعرفة، فكلما اتسعت معرفة الإنسان بالله تعالى ازداد شوقه إليه، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: ((**إذا تجلى ضياء المعرفة في الفؤاد هاج**

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٤٨/٢.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٣/٧٠-٢٤.

ريح المحبة، وإذا هاج ريح المحبة استأنس ظلال المحبوب، وآثر المحبوب على ما سواه))[١] .

إذن حب الله تعالى نور ينبعث في قلب الإنسان، ويطهره من كل شيء وبذلك يصبح القلب خالصاً لله، وحرماً له تعالى دون سواه، وحينئذ يستأنس بكل وارد من المحبوب، فيجد في نفسه الاطمئنان والرضا، وهما ((ثمرة المحبة الكاملة، ومحبة العبد للرب إذا بلغت حد الكمال يمكن أن يرجح إرادته على إرادة نفسه، بل يمكن أن لا يرى لنفسه مراداً غير مراده تعالى؛ لاستقراره في بحر المحبة، أو لأن فعل المحبوب مثله محبوب، أو لأنه لا يجد في نفسه ألم ما يكرهه؛ لاستغراق قلبه في محبته تعالى، وغفلته عن نفسه فضلاً عن الأمور الموافقة أو المخالفة لها))[٢] .

٣- اليقين بأن كل مقدر كائن لا محال: عَرَّف اللغويون اليقين بأنه اعتقاد جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهة وإن قويت، وقال أهل المعرفة بأنه من أعلى مراتب الإيمان بل هو الكبريت الأحمر الذي لا يفوز به إلا الأوحدي من أهل المجاهدة والعرفان، وقد وصفته أحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام بأنه: رأس الدين، ونظامه، وعنوان الإيمان، وعماده، وغايته، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

((**اليقين رأس الدين**)) .

((**سنام الدين الصبر واليقين ومجاهدة الهوى**)) .

((**اليقين عنوان الإيمان**)) .

((**اليقين عماد الإيمان**)) .

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٣/٧٠.

(٢) السيد علي خان المدني، رياض السالكين: ٦٥/٣-٦٦.

((**غاية الإيمان الإيقان**)).

((**لا إيمان لمن لا يقين له**))(١).

فإذا أيقن الإنسان أن كل ما قدره الله وقضاه عليه لابد وأن يمر به، وأن ذلك لخيره وصالحه ومنفعته استقبل ما يصيبه بصدر رحب، ونفس مطمئنة راضية سواء كان ذلك حلواً أو مراً، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**من أيقن بالقدر لم يكترث بما نابه**))(٢).

وباليقين يتذوق الإنسان حلاوة الإيمان على كل حال، حيث يشعر بأن يد الله تعالى معه، وان كل شيء يرد من الله لأجل سعادته.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الضار النافع هو الله عز وجل**))(٣) وهكذا يجد الإنسان في نفسه الرضا بقضاء الله وقدره.

٤- **الإيمان بالألطاف الخفية:** قد يُجْري الله تعالى على عبده أمراً يثقل على نفسه فتكرهه، لان حكمته غير منكشفة له في ساعة حدوثه، يقول تعالى:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(٤).

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٥).

---

(١) الآمدي، تصنيف الغرر الحكم: ٦٢، ح/٧٢٤-٧٢٨-٧٣٠-٧٣١-٧٣٣-٧٣٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٣، ح/١٨١٩.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٥٨/٢.

(٤) البقرة: ٢١٦.

(٥) النساء: ١٩.

والرضا في هذه الحالة يحتاج إلى صفاء نفسي، وتسليم لله تعالى، ويقين بحسن التقدير الإلهي؛ ولهذا رأينا العبد الصالح الإمام الخميني حين يُقتل ولده وهو فلذة كبده، وعضده الأيمن في مواصلة جهاده ضد الاستكبار العالمي فيقول: ((إن في قتل مصطفى لطف خفي)).

ولذلك ينبغي للمؤمن بالله تعالى -بل يجب- أن يحسن الظن بالله تعالى فإن الله يعطي الإنسان بمقدار حسن ظنه بربه، عن الإمام الرضا ﴿عليه السلام﴾ أنه قال: **((أَحسِنْ الظن بالله فإن الله ﴿عز وجل﴾ يقول: أنا عند ظن عبدي المؤمن بي، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً))**[1].

وعن الإمام الباقر ﴿عليه السلام﴾ قال: **((وجدنا في كتاب علي ﴿عليه السلام﴾ أن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ قال - وهو على منبره -: والّذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمن قطٌّ خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنَّه بالله، ورجائه له، وحسن خلقه، والكف عن اغتياب المؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنَّه بالله، وتقصيره من رجائه، وسوء خلقه، واغتيابه للمؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظنَّ عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظنِّ عبده المؤمن؛ لأن الله كريم، بيده الخيرات يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخلف ظنَّه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظَّن، وارغبوا إليه))**[2].

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٧٢/٢.

(٢) المصدر نفسه : ٧١-٧٢.

((آثار الرضا بالقضاء))

إن الرضا بالقضاء والقدر الإلهي له آثار وضعيّة عظيمة في الحياة الدنيا فضلاً عن الثواب العظيم الذي يفيضه الله على الراضين بقضائه وقدره ومن تلك الآثار:

١- **الطمأنينة والاستقرار عند نزول البلاء**، ومواجهة ما يخالف رغبات الإنسان: فالراضي بالقضاء لا تكبر عليه مصائب الدنيا، ولا يضطرب منها، ولا تقلقه، بل يستقبلها بقلب مطمئن ثابت؛ لأن الرضا بالقضاء يهون المصائب، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**الرضا بقضاء الله يهون عظيم الرزايا**))[(١)] فما أعظم هذا الأثر إذا عرفنا أن المنغصات في الدنيا أكثر من أن تحصى، وإن الدنيا دار البلايا والمصائب.

٢- **طيب العيش**: إن كل ما يسعى الإنسان إليه في حياته هو طلب الراحة ليطيّب عيشه، ويهدئ باله بها، وهذا لا يوجد في هذه الدنيا؛ وذلك ((لأن لذات هذا العالم هي دفع للآلام، ونستطيع أن نقول إن لذاته تبعث على الآلام؛ لأنَّ أثر كل لذة شقاء ونصب وألم)) إذن طيب العيش بالراحة والاستقرار لا يحصل للإنسان إلا بالرضا، والتسليم لأمر الله تعالى ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام:

((**إنكم إن رضيتم بالقضاء طابت عيشتكم وفزتم بالغناء**)).

((**من رضي بالقضاء استراح**)).

((**من رضي بالقضاء طابت عيشته**)).

((**من رضي بالقضاء طاب عيشه**)).

((**ارض تسترح**)).

((**كل راض مستريح**))[(٢)].

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم: ١٠٣، ح/١٨٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٣-١٠٤، ح/١٨٣٦-١٨٣٩-١٨٤٠-١٨٤١-١٨٥١-١٨٥٣.

ولا شك أن كل إنسان يعرف ما لهذا الأثر من دور فعال على حياته حيث يحقق له أهم مطالب الحياة الإنسانية وأسماها وهي الراحة النفسية والاطمئنان القلبي.

٣- طرد الهم: إن هموم الدنيا كثيرة، ومنغصاتها وفيرة، لا تقف عند حد إلا بالموت، ولا شيء يطرد الهم، وينقذ النفس منه كالرضا بالقضاء والقدر يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

((**نعم الطارد للهم الاتكال على القدر**)).

((**نعم الطارد للهم الرضا بالقضاء**))[1].

وسر ذلك أن الراضي بالقضاء والقدر قد أوكل أمره إلى الله، وسلم نفسه إليه فلم يعد يفكر بشيء سوى رضا ربه بتنفيذ أوامره، والامتثال لأحكامه، جاء في مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام: ((**المفوض أمره إلى الله في راحة الأبد والعيش الدائم الرغد، والمفوض حقاً هو العالي عن كل همة دون الله تعالى كما قال أمير المؤمنين** عليه السلام:

رضيت بما قسم الله لي ... وفوّضت أمري إلى خالقي
كما أحسن الله مما مضى ... كذلك يحسن فيما بقى))[2]

والتفويض إلى الله هو: التسليم إليه، والتحرّك في سبيل تطبيق أحكامه والاعتصام به دون سواه، والرضا بقضائه وقدره على كل حال، يقول الإمام الرضا عليه السلام: ((**الإيمان أربعة أركان: التوكل على الله عز وجل، والرضا بقضائه، والتسليم لأمر الله، والتفويض إلى الله، قال عبد صالح: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ**

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم: ١٠٤، ح/١٨٥٠-١٨٤٣.

(٢) مصباح الشريعة: ١٧٥.

بِٱلْعِبَادِ ۞ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا﴾(١)))(٢).

٤- الفوز بالعزة والغنى: فإن من رضي بقضاء الله، واطمئن لقدره استغنت نفسه عما سواه فلا تمتد عينه إلى غيره. يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

((**نال الغنى من رضي بالقضاء**)).

((**ثمرة الرضا الغناء**)).

((**إنكم إن رضيتم بالقضاء طابت عيشتكم وفزتم بالغناء**))(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ((**ثق بالله تكن مؤمناً، وارض بما قسم الله لك تكن غنياً**))(٤).

٥- الصبر: ومن آثار الرضا بالقضاء هو أن الراضي بالقضاء يرزقه الله الصبر يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**من حسن رضاه بالقضاء حسن صبره على البلاء**))(٥).

ثالثاً: الولع بذكر الله تعالى:

((**مُولَعَةً بِذِكْرِكَ وَدُعائِكَ**)).

الولع لغة: هو العلاقة الشديدة المستحكمة والمُولَع بالشيء هو المتعلق به، والمنشد إليه بقوة، المغرم به، والواله بحبه ،فالمولَع بذكر الله تعالى ودعائه هو الذي فرَّغَ قلبه لله تعالى وطهره عن كل شاغل، فهام بحبه واشتغل بذكره عمن

---

(١) غافر: ٤٤-٤٥.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٣٥/٧١.

(٣) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٠٣-١٠٤، ح/١٨٤٤-١٨٥٢-١٨٣٦.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٣٥/٧١.

(٥) الآمدي، تصنيف غرر الحكم و درر الكلم: ١٠٣، ح/١٨٤٢.

سواه فلا يفتر عن ذكره تعالى في سراء ولا ضراء، ولا شدة ولا رخاء كما وصف تعالى بعض عباده بأنهم: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** ﴾[1] فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى؛ لأن ذكر الله استقطب جميع جوانب حياتهم ظاهراً وباطناً جوارحاً وجوانحاً، فهم مستغرقون فيه في كل حالاتهم ((بالليل والنهار، في البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية))[2] .

فالمتولِع بذكر الله هو الذي لا ينسى الله لا في قلبه ولا لسانه، ولا في سره ولا علنه، لان عقله تنَّور به، وقلبه تفرغ له، ولسانه لهج به فكان مصداقاً لما وصف أمير المؤمنين ﷺ الذاكرين بقوله: ((**عباد ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة، يُـذَكِّرون بأيام الله، ويخوِّفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات. من أَخذَ القصد حمدوا إليه طريقه، وبشَّروه بالنجاة، ومن أَخذَ يميناً وشمالاً ذموا إليه الطريق، وحذَّروه من الهلكة، وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات، وأدلة تلك الشبهات وإن للذَّكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله، في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة، وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك...**))[3] ونحن إذا تأملنا في هذا النص

(١) آل عمران: ١٩١.

(٢) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء: ٢٦٦/٢.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ٢٢٢.

الشريف عرفنا حقيقة الذاكرين لله المتولّعين بـذكره، فهـم عبـاد الله تعـالى ألهمهـم ذكره فاصبحوا لا يفكرون بغير عظمة الله، ولا يأتمرون بغيـر أوامـره، ولا ينقـادون لغير دينه لا تنتابهم غفلة، ولا يساورهم نسيان، بل هم فـي يقظـة تامـة، إذا نظـروا اعتبروا، وإذا سمعوا وعوا... فسـماتهم إذن هـي العبوديـة لله، والـوعي التام لدينـه تعالى، يحملون رسالته، ويهـدون عبـاده يـذكرون، وينـذرون، ويبشـرون وبـذلك أصبحوا هداة إلى الله، مصابيح في ظلمات الوهم، والجهل، والضلال. وأدلـة رشـاد إلى سبيل السعادة الدائمة. فهـم ذاكـرون لله، ومـذكرون خَلْقَـه بـه تعـالى بـالفكر، والذكر، والسلوك المستقيم، إذا رآهم الرائـي تـذكّر بالإسـلام، وعـاد إلـى صـراطه السوي... كانوا مصداقاً للداعية الصـامت، لأن حيـاتهم كلهـا ارتبطـت بـالله تبـارك وتعالى، ولعل مصداق ذلك ما توسل به أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميـل بقولـه: **((يَا رَبِّ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، أَسْأَلُكَ بِحَقِّكَ، وَقُدْسِكَ وَأَعْظَمِ صِفاتِكَ وَأَسْمائِكَ، أَنْ تَجْعَلَ أَوْقاتي فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بِذِكْرِكَ مَعْمُورَةً، وَبِخِدْمَتِكَ مَوْصُولَةً، وَأَعْمـالي عِنْدَكَ مَقْبُولَةً، حَتَّى تَكُونَ أَعْمـالي وَأَوْرادي كُلُّهـا وِرْداً واحِـداً، وَحـالي فـي خِدْمَتِكَ سَرْمَداً))** .

وواضح دعاء أمير المؤمنين علي عليه السلام بهذه الحرقـة والشـوق يطلـب العـون والمدد من الله تعالى؛ لِيَعْمُرَ أوقاته كلها بذكره تعالى، هذا مع علمنا بمواصـلة أميـر المؤمنين ذكر ربه ليل نهار كما هو واضح، ولكن رغم ذلك كله يشعر بالحاجة إلى المزيد لولعه بذكر الله تعالى.

ولذلك إذا تتبعنا حياة نبينا صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام نجد حياتهم طافحـة بالـذكر والدعاء، بل جعلوا لكل حالة ذكر، ولكل حاجة دعاء، ولكـل قضـية مناجـاة حتـى أنك لا تجدهم في أية حالة فارغين من ذكر ربهم أو منشغلين بغيره.

((في رحاب الذاكرين))

كل ما تحدثنا عنه حول الذكر والدعاء يدور حول الجانب النظري في ذلك والآن لندخل بشكل مختصر في رحاب حياة الذاكرين؛ لنرى مصاديق ذلك بشكل عملي:

١- **في رحاب رسول الله ﷺ**: لو تتبعنا واستقرأنا حياة رسول الله وسيرته نجدها طافحة بذكر الله تعالى، وفي جميع حالاته الشريفة حتى روي عنه أنه كان ((**لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر**))[(١)] وقد روى المؤرخون عنه أنه ((كان يقوم من الليل (أي مصلياً لله) حتى تتفطر قدماه، فقيل له: لِم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: **أفلا أكون عبداً شكوراً؟!**))[(٢)] .

وقد وردت روايات كثيرة تؤكد أن النبي ﷺ ((لما نزلت عليه ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾[(٣)] قام الليل كله حتى تورمت قدماه فجعل يرفع رِجلاً ويضع رِجلاً ... فخفف الله عنه ذلك فأنزل عليه ﴿**طه ۞ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ**﴾[(٤)]))[(٥)] .

ورغم ذلك كله كان يقطع ليله و نهاره بذكر الله تعالى، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**كان رسول الله ﷺ في بيت أم سلمة في ليلتها، ففقدته من الفراش، فدخلها في ذلك ما يدخل النساء، فقامت تطلبه في جوانب البيت حتى انتهت**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الانوار: ١٥٢/١٦.

(٢) سعيد حوى، كتاب الرسول: ٥٦.

(٣) المزمل: ١-٢.

(٤) طه: ١-٢.

(٥) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١٢٦/١٤-١٢٧.

إليه وهو في جانب من البيت قائم رافع يديه يبكي، وهو يقول: ((اللهم لا تنزع مني صالح ما أعطيتني أبداً، اللهم لا تشمت بي عدواً ولا حاسداً أبداً، اللهم ولا تردَّني في سوء استنقذتني منه أبداً، اللهم ولا تَكِلْني إلى نفسي طرفة عين أبداً)) قال: فانصرفت أم سلمة تبكي حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله لبكائها فقال لها: ما يبكيك يا أم سلمة؟ فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ولِم لا أبكي وأنت بالمكان الذي أنت به من الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، تسأله أن لا يشمت بك عدواً أبداً، وأن لا يردَّك في سوء استنقذك منه أبداً، وأن لا ينزع منك صالحاً أعطاك [إياه] أبداً، وأن لا يكلك إلى نفسك طرفة عين أبداً؟ فقال: يا أم سلمة وما يؤمنني؟ وإنما وكَلَ الله يونس بن متي إلى نفسه طرفة عين وكان منه ما كان))[1].

وعن معاوية بن وهب قال: ((سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول - وذكر صلاة النبي صلى الله عليه وآله -: **كان يأتي بطهور فيخمّر عند رأسه، ويوضع سواكه تحت فراشه، ثم ينام ما شاء الله، فإذا استيقظ جلس، ثم قلب بصره في السماء، ثم تلا الآيات من آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم يستن ويتطهر، ثم يقوم إلى المسجد فيركع أربع ركعات على قدر قراءته ركوعه، وسجوده على قدر ركوعه، يركع حتى يقال: متى يرفع رأسه؟ ويسجد حتى يقال: متى يرفع رأسه؟ ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، ويقلب بصره في السماء، ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيصلي أربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله،**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٦/٢١٧-٢١٨.

ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، ويقلب بصره في السماء، ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصلي الركعتين، ثم يخرج إلى الصلاة))(١).

وواضح من هذه الرواية المباركة أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقطع ليله ذاكراً لله تعالى، وهذا هو ديدن النفوس القدسية التي تولّعت بذكر الله تعالى، ومما يؤكد ذلك رواية أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((**قال علي بن الحسين عليه السلام: إن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلم يدع الاجتهاد له، وتعبّد بأبي هو وأمي حتى انتفخ الساق، وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً**))(٢).

وهذا غيض من فيض من حالات رسول الله صلى الله عليه وآله في ذكره ودعائه وإلا فقد روى مؤرخو سيرته الشريفة أن له في كل حالة من حالاته، وموقف من مواقفه دعاء وذكر خاص به.

٢- **في رحاب الإمام على بن أبي طالب** عليه السلام: عندما يتأمل المفكر في شخصية علي عليه السلام يقف محتاراً ماذا يقول، وكيف يقول، وهو يشرف على بحر الكمالات الذي لم يعرفه إلا الله ورسوله وخصوصاً في ولعه بذكر الله تعالى وانشغاله به دون سواه في كل كلمة قالها، بل في كل نفس تنفسه، وفي كل لحظة جفن أدارها، وهو القائل: ((**ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله، وبعده ومعه**))(٣).

يقول شارح نهج البلاغة ابن أبي الحديد وهو يعدد فضائله: ((وأما العبادة

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٧٦/١٦.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٨/١٦.

(٣) الشيخ جعفر السبحاني، العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام: ١٣٧-١٣٨.

فكان أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصوماً، ومنه تعلم الناس صلاة الليل، وملازمة الأوراد، وقيام النافلة؛ وما ظنك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يُبْسَط له نِطَعٌ بين الصفَّيْنِ ليلة الهرير(١)، فيصلي عليه وِرْدَه والسهام تقع بين يديه، وتمر على صماخيه يميناً وشمالاً، فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته! وما ظنك برجل كانت جبهته كَثَفِنَة البعير لطول سجوده!.

وأنت إذا تأملت دعواته ومناجاته، ووقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله، وما يتضمنه من الخضوع لهيبته، والخشوع لعزته والاستخذاء له عرفت ما ينطوي عليه من الإخلاص، وفهمت من أي قلب خرجت، وعلى أي لسان جرت!))(٢).

نعم، كان علي عليه السلام أعبد البشرية لله تعالى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأكثرها ذكراً فما تحرك بحركة إلا وكان لسانه لهجاً بذكر الله تعالى، وما عرّفنا التاريخ أن أحداً اندك في عقيدته كعلي عليه السلام إلا رسول الله صلى الله عليه وآله في حلّه وترحاله وفي جميع مواقفه حتى أن الإمام زين العابدين عليه السلام الذي فاق جميع الأمة بعبادته كان يستصغر عبادته إلى عبادة جده علي عليه السلام فقد روى الشيخ المفيد عن سعيد بن كلثوم قال:

((كنت عند الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام فذكر أمير المؤمنين علي بن أبي

(١) قال جابر بن عمير الأنصاري: ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق الله السماوات والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب. إنه قتل فيما ذكر العادون زيادة على خمسمائة من أعلام العرب يخرج بسيفه منحنياً فيقول: معذرة إلى الله عز وجل وإليكم من هذا؛ لقد هممت أن أصقله ولكن حجزني عنه أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول كثيراً: ((**لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي**)) وأنا أقاتل به دونه. نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ٤٧٧-٤٧٨.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٧/١.

طالب عليه السلام فأطراه ومدحه بما هو أهله، ثم قال: **والله ما أكل علي بن أبي طالب عليه السلام من الدنيا حراماً قط حتى مضى لسبيله، وما عرض له أمران قط هما لله رضا إلا أخذ بأشدهما عليه في دينه، وما نزلت برسول الله صلى الله عليه وآله نازلة قط إلا دعاه ثقة به، وما (أطاق) قدر عمل رسول الله صلى الله عليه وآله من هذه الأمة غيره، وإن وصيته كان ليعمل عمل رجل كأنَّ وجهه بين الجنة والنار، يرجو ثواب هذه، ويخاف عقاب هذه، ولقد أعتق من ماله ألف مملوك في طلب وجه الله والنجاة من النار مما كد بيديه، ورشح منه جبينه، وإن كان ليقوت أهله بالزيت والخل والعجوة، وما كان لباسه إلا الكرابيس إذا فضل شيء عن يده من كُمه دعا بالمقراض فقصه، وما أشبهه من ولده ولا أهل بيته أحد أقرب شبهاً في لباسه وفقهه من علي بن الحسين عليهما السلام ولقد دخل أبو جعفر ابنه عليهما السلام عليه فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد فرآه قد اصفر لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته، وأنخرم أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة، فقال أبو جعفر عليه السلام: فلم أملك حين رأيته بتلك الحال البكاء فبكيت رحمة عليه وإذا هو يفكر فالتفت إليَّ بعد هنيئة من دخولي، وقال: يا بني أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام فأعطيته فقرأ فيها شيئاً يسيراً ثم تركها من يده تضجّراً، وقال: من يَقوى على عبادة علي عليه السلام !))**[1] .

ولنتابع ما ذكره المؤرخون، وكتّاب السيَر؛ لنرى مصاديق تلك العبادة التي ما عرف التاريخ أعرق، ولا أعمق، ولا أصدق، ولا أخلص منها في حركة الإنسان إلى الله، فقد روي عن عروة بن الزبير، قال: ((كنا جلوساً في مجلس في مسجد رسول

---

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢٥٥-٢٥٦، ط/منشورات مكتبة بصيرتي-قم.

الله ﷺ فتذاكرنا أعمال أهل بدر وبيعة الرضوان، فقال أبو الدرداء: يا قوم ألا أخبركم بأقل القوم مالاً، وأكثرهم ورعاً، وأشدهم اجتهاداً في العبادة؟ قالوا: من؟ قال: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: فوالله إن كان في جماعة أهل المجلس إلا مُعرض عنه بوجهه، ثم انتدب له رجل من الأنصار فقال له: يا عويمر لقد تكلمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها، فقال أبو الدرداء: يا قوم إني قائل ما رأيت، وليقل كل قوم منكم ما رأوا شهدت علي بن أبي طالب عليه السلام بشويحطات(١) النجار، وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممن يليه واستتر بمغيلات(٢) النخل، فافتقدته، وبَعُد عليَّ مكانه، فقلت: لحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين، ونغمة شجيّ، وهو يقول: **إلهي كم موبقة حلمت عن مقابلتها بنقمتك [كم موبقة حلمت عني فقابلتها بنعمتك] وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك، إلهي إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك.** فشغلني الصوت واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام بعينه فاستترت له، وأخملتُ الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغابر، ثم فرغ إلى الدعاء، والبكاء، والبث، والشكوى فكان مما به الله ناجاه أن قال: **إلهي أفكر في عفوك فتهون عليَّ خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم عَلَيَّ بليتي.** ثم قال: **آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها، وأنت محصيها فتقول: خذوه، فياله من مأخوذ لا تنجيه عشيرته ولا تنفعه قبيلته، يرحمه الملأ إذا أُذن فيه بالنداء.** ثم قال: **آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوى آه من غمرة من ملهبات لظى.**

---

(١) الشوحط شجر يتخذ منه القسي لرمي السهام.

(٢) الغيلة بالكسر الشجر الكثير الملتف.

قال: ثم أنعم في البكاء فلم أسمع له حساً، ولا حركة، فقلت: غلب عليه النوم لطول السّهر، أوقظه لصلاة الفجر، قال أبو الدرداء: فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة فحرّكته فلم يتحرك، وزويته فلم ينزوي، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون مات والله علي بن أبي طالب، قال: فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم، فقالت فاطمة عليها السلام: يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قصته؟ فأخبرتها الخبر، فقالت عليها السلام: هي والله يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية الله، ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق، ونظر إليَّ وأنا أبكي، فقال: **ممّا بكاؤك يا أبا الدرداء؟** فقلت:مما أراه تنزله بنفسك، فقال: **يا أبا الدرداء فكيف ولو رأيتني، ودُعِيَ بي إلى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ، وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار، قد أسلمني الأحباء، ورحمني أهل الدنيا، لكنت أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية**، فقال أبو الدرداء: فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله))(١).

وكان عليه السلام ((إذا حضر وقت الصلاة تلوّن وتزلزل، فقيل له: ما لك؟ فيقول: **جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على السماوات، والأرض، والجبال فأَبَينَ أن يحملنها، وحملها الإنسان في ضعفي [ضعفه] فلا أدري أُحسن إذا ما حُملت أم لا**))(٢).

وعن حبة العرني قال: ((بينا أنا ونوف نائمين في رحبة القصر إذ نحن بأمير المؤمنين عليه السلام في بقية من الليل، واضعاً يده على الحائط شبيه الواله، وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية، قال: ثم جعل يقرأ هذه الآيات،

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٤١/١١-١٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٧.

ويمر شبه الطائر عقله، فقال لي: **أراقد أنت يا حبة أم رامق؟** قال: قلت: رامق، هذا أنت تعمل هذا العمل؟ فكيف نحن! فأرخى عينيه فبكى، ثم قال لي: **يا حبّة إن لله موقفاً، ولنا بين يديه موقفاً، لا يخفى عليه شيء من أعمالنا يا حبة إن الله أقرب إليّ وإليك من حبل الوريد، يا حبة إنه لن يحجبني، ولا إياك عن الله شيء،** قال: ثم قال: **أراقد أنت يا نوف؟** قال: قال: لا يا أمير المؤمنين، ما أنا براقد ولقد أطلتَ بكائي هذه الليلة، فقال: **يا نوف، إن طال بكاؤك في هذا الليل مخافة من الله تعالى قرت عيناك غداً بين يدي الله ﷻ يا نوف، إنه ليس من قَطرة قطرتْ من عين رجل من خشية الله إلا أطفأت بحاراً من النيران، يا نوف إنه ليس من رجل أعظم منزلة عند الله من رجل بكى من خشية الله، وأحب في الله، وأبغض في الله، يا نوف إنه من أحب في الله لم يستأثر على محبته، ومن أبغض في الله لم ينل ببغضه خيراً، عند ذلك استكملتم حقائق الإيمان، ثم وعظهما وذكّرهما،** وقال في أواخره: **فكونوا من الله على حذر، فقد أنذرتكما؛** ثم جعل يمرُ وهو يقول: **ليت شعري في غفلاتي أمعرض أنت عني أم ناظر إليّ؟ وليت شعري في طول منامي، وقلة شكري في نعمك عليّ ما حالي؟** قال: **فوالله ما زال في هذا الحال حتى طلع الفجر))**[1].

ولم تقتصر دعوات علي عليه السلام وأذكاره على خلواته، ومناجاته الليلية، ولا في حدود محرابه العبادي المألوف، بل كان له في كل عمل دعاء وذكر، فقد جعل من كل أعماله عبادة يتقرب بها إلى الله، ولا يطلب من كل ذلك سوى وجه الله تعالى ورضوانه، وهو القائل: ((**اللهم إنك تعلم إنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لِنَردَ المعالم من دينك،**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٤١/٢٢-٢٣.

ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك، اللهم إني أول من أناب، وسمع وأجاب، لم يسبقني إلا رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة))(١) .

نعم؛ إنه الرجل الذي ولع في ذكر الله فلم يعد يرى مؤثراً في الوجود إلا الله ولذلك لم يستند إلى غيره، ولم يطلب العون من سواه، وكأن شخصيته انطبعت على ذلك لا تستطيع أن تحيد عنه، يقول عباس محمود العقاد في بيان ذلك: ((وملأ الدين الجديد قلباً لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة، ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ويرجع به إلى عقابيله فبحق ما يقال إن علياً كان المسلم الخالص على سجيته المثلى، وأن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق إسلاماً منه، ولا أعمق نفاذاً فيه.

كان المسلم حق المسلم في عبادته، وفي علمه وعمله، وفي قلبه وعقله، حتى ليصح أن يقال: أنه طبع على الإسلام فلم تزده المعرفة إلا ما يزيده التعليم على الطباع.

كان عابداً يشتهي العبادة كأنها رياضة تريحه، وليست أمراً مكتوباً عليه، وكان يُرى في كهولته وكأنما جبهته ثفنة بعير من إدمان السجود، وكان علي محجة في الإسلام لا يحيد عنها لبغية ولا لخشية، فكلما زيَّنوا له الهوادة أبى ((أن يداهن في دينه، ويعطي الدنية في أمره))... وكان دينه له ولعدوه... فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن بهته وآذاه))(٢)

وكأنَّ هذا الكلام مصداقاً لقوله عليه السلام: ((**ما أهمني ذنب أمهلت بعده، حتى**

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١٣١.

(٢) عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة: ٢/٣٦-٣٧.

أصلي ركعتين، وأسأل الله العافية))[١] .

وذلك؛ لأنه يستمد العون من الله حين يعزم على أي عمل كبيراً كان أو صغيراً، يقول سلام بن سويد: ((كان علي إذا أراد أن يسير إلى الحرب قعد على دابته، وقال: **الحمد لله رب العالمين على نعمه علينا وفضله العظيم** ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[٢] ثم يوجه دابته إلى القبلة، ثم يرفع يديه إلى السماء، ثم يقول: **اللهم إليك نقلت الأقدام وأفضت القلوب، ورفعت الأيدي، وشخصت الأبصار، نشكو إليك غيبة نبينا وكثرة عدونا، وتشتت أهوائنا** ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[٣] **سيروا على بركة الله.** ثم [يحمل فـ] يُورد والله من أتبعه [ومن حاده] حياض الموت))[٤].

٣ - **في رحاب الإمام زين العابدين** ﷺ: لقد أجمع المؤرخون، وكتّاب السير أن الذي أعاد منهج رسول الله ﷺ ومنهج علي بن أبي طالب ﷺ إلى عالم الشهود، والعيان، والواقع هو الإمام علي بن الحسين زين العابدين ﷺ حتى ما رؤي يوماً إلا ذكّرَ الناس بعبادة رسول الله ﷺ وعبادة علي ﷺ وكما مر علينا آنفاً إنه ما أطاق عبادة علي بن أبي طالب من هذه الأمة أحد إلا علي بن الحسين ﷺ وما أشبه علياً في عبادته غيره[٥].

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: الكلمات القصار: ٢٩٩، كما أوردها شارح النهج الحديدي وفي نسخة أخرى: ما أهمني أمر.

(٢) الزخرف: ١٣-١٤.

(٣) الأعراف: ٨٩ .

(٤) نصر بن مزاحم، كتاب صفين: ٢٣١ من منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.

(٥) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢٥٥.

ولكثرة الجهد والعناء الذي كان يبذله خيف عليه الموت، ولهذا كثر الناصحون والمشفقون عليه؛ ليخفف عن نفسه هذا الجهد والعناء، وفي كل ذلك كان يذكر الناصحين برسول الله صلى الله عليه وآله فيقول لجابر الأنصاري: «**يا صاحب رسول الله أما علمت أن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد له، وتعبد - بأبي هو وأمي- حتى انتفخ السَّاق وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا، وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال صلى الله عليه وآله: أفلا أكون عبداً شكوراً؟!**... [ثم قال لجابر الأنصاري]: **يا جابر لا أزال على منهاج أبويَّ مؤتسياً بهما عليهما السلام حتى ألقاهما**، فأقبل جابر على من حضر فقال لهم: والله ما رئي في أولاد الأنبياء مثل علي بن الحسين إلا يوسف بن يعقوب عليهما السلام، والله لذرية علي بن الحسين أفضل من ذرية يوسف بن يعقوب، إنَّ منهم لمن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً»(١).

ولم تكن عبادة الإمام السجاد عليه السلام عبادة الخائفين من النار، أو الراجين الفوز بالجنان، وإنما كانت عبادة العارفين الشاكرين الأحرار الذين يعبدون الله لأنه أهل للعبادة، وكان عليه السلام يقول: «**إني أكره أن أعبد الله، ولا غرض لي إلا ثوابه فأكون كالعبد الطامع إن طمع عمل، وإلا لم يعمل، وأكره أن أعبده لخوف عذابه، فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل**، فانبرى إليه بعض الجالسين فقال له: فبم تعبده؟ فأجابه عن خالص إيمانه: **وأعبده لما هو أهله بأياديه وأنعامه**»(٢).

تلك هي عبادة العارفين بالله تعالى الذين تولعت قلوبهم بذكر الله تعالى فلا

---

(١) الشيخ الطوسي، كتاب الأمالي: ٩٠٧-٩٠٨، والسيد المقرم في الإمام زين العابدين عليه السلام: ٣٢٧، والمحدث المجلسي في بحار الأنوار: ٦١/٤٦.

(٢) الشيخ القرشي، حياة الإمام زين العابدين: ١٨٧.

تجد راحة ولا اطمئناناً بغير ذكره تعالى، وكانت مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(١).

ولنتابع بعض مشاهده العبادية التي أبهرت الناس، وحيرت عقولهم وتركتهم في عجب من أمر هذا الرجل الإلهي:

إنه كان ((إذا أراد الوضوء اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟... [فيقول]: **أتدرون بين يدي من أقوم؟**))(٢).

((وإذا فرغ من وضوءه للصلاة... أخذته رعدة ونفضة))(٣).

قال سفيان بن عيينة: ((حج علي بن الحسين، فلما أحرم، واستوت به راحلته اصفر لونه، وانتفض، ودفع(٤)، عَلَتْه الرعدة، ولم يستطع أن يلبي، فقيل له: ما لك لا تلبي؟ فقال: **أخشى أن أقول: لبيّك، فيقول لي: لا لبيّك**، فقيل له: لابد من هذا، قال: فلما لبى غشي عليه، وسقط من راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه))(٥).

وروى عنه مثل هذا أنس بن مالك. ويقول ولده الإمام الباقر عليه السلام: ((**...وكان إذا قام في صلاته غشي لونه لون آخر، وكان قيامه في صلاته قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل، كان أعضاؤه ترتعد من خشية الله، وكان يصلي صلاة**

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) الشيخ القرشي، حياة الإمام زين العابدين:١٨٧.

(٣) الحافظ أبي نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء: ١٣٣/٣.

(٤) في الأصل: ووقع.

(٥) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: ١٧/٢٣٦-٢٣٧.

مودّع يرى أنه لا يصلي بعدها أبداً))[١] .

((وسقط بعض ولده في بعض الليالي فانكسرت يده، فصاح أهل الدار، وأتاهم الجيران، وجيء بالمجبر، فجبر الصبي وهو يصيح من الألم، وكل ذلك لا يسمعه. فلما أصبح رأى الصبي يده مربوطة إلى عنقه، فقال: **ما هذا؟** فأخبروه.

ووقع حريق في بيتٍ هو فيه ساجد، فجعلوا يقولون: يا ابن رسول الله النار النار، فما رفع رأسه حتى أُطفئت فقيل له بعد قعوده: ما الذي ألهاك عنها؟ قال: **ألهتني عنها النار الكبرى))**[٢] .

ولا عجب من ذلك فإن العارف بالله حين يقف بين يدي مولاه ينسى كل شيء بل يعود لا يشعر بشيء، ولاسيما من هام في حب الله، وأفنى ذاته في ذات الله كالإمام زين العابدين عليه السلام الذي نهل من معين الرسالة كل علمه، وعاش في رحاب جده وأبيه، ورأى ما لم يره أحد على طول خط التاريخ من التضحية والفداء مع أبيه وأخوته، عاش كل ذلك في مواقف هزت عروش الظالمين ودكت معاقل الطغاة... لقد جعل الإمام زين العابدين عليه السلام الحياة كلها محراباً يَذكر الله فيه ويُذكِّر الآخرين بالله تعالى، فكان بحق ذاكراً لله، ومُذكراً به في سلوكه فضلاً عن كلامه فقد سُئلت إحدى جواريه فقيل لها: ((صفي أمور علي بن الحسين عليه السلام، فقالت: أطنب أو أختصر؟ فقيل: بل اختصري. قالت: ما أتيته بطعام نهاراً قط، ولا فرشت له فراشاً بليل قط))[٣] .

ويقول طاووس الفقيه (اليماني): ((رأيته يطوف من العشاء إلى السحر

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٨٠/٤٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه:٦٧.

ويتعبد، فلما لم ير أحداً رمق السماء بطرفه، وقال: **إلهي غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتحات للسائلين، جئتك لتغفر لي، وترحمني وتريني وجه جدي محمد ﷺ في عرصات القيامة**، ثمَّ بكى، وقال: **وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك، ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سوَّلت لي نفسي، وأعانني على ذلك سترك المرخى به عليَّ فالآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنِّي؟ فوا سوأتاه غداً من الوقوف بين يديك، إذا قيل للمخفِّين جوزوا، وللمثقلين حطّوا، أمع المخفين أجوز؟ أم مع المثقلين أحط؟ ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن استحي من ربي؟!** ثم بكى وأنشأ يقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى — فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قباح زريّة — وما في الورى خلق جنى كجنايتي

ثم بكى وقال: **سبحانك تُعصى كأنك لا تَرى، وتَحلم كأنّك لم تُعص، تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأنَّ بك الحاجة إليهم، وأنت يا سيدي الغنيُّ عنهم**، ثم خرَّ إلى الأرض ساجداً، قال: فدنوت منه، وشلت برأسه، ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خدِّه، فاستوى جالساً، وقال: **من الذي اشغلني عن ذكر ربّي؟** فقلت: أنا طاووس يا ابن رسول الله، ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا، ونحن عاصون جانون، أبوك الحسين بن علي، وأمك فاطمة الزهراء، وجدك رسول الله ﷺ؟ قال: فالتفت إليَّ، وقال: **هيهات هيهات يا طاووس دع عني حديث أبي وأمي وجدي، خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً**

قرشياً، أما سمعت قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾[١] والله لا ينفعك غداً إلا تقدِّمة تقدِّمها من عمل صالح))[٢].

وكثير من أمثال هذه الحالة من حالات الإمام زين العابدين عليه السلام استغرقت أكثر حياته، وقد ذكرها كتّاب السيَر من السنة والشيعة، ولا يمكننا الإحاطة بكل ذلك فلنكتفي بما ذكرنا، ونسأله تعالى أن يرزقنا شفاعته عليه السلام يوم لا ينفع مال ولا بنون، وما ذكرته من أحوال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأوصيائه الطاهرين عليهم السلام هو قطرة من بحر محيط.

فعالم الذاكرين الله لا تحد بحدود، وهي مستمرة على طول خط التاريخ البشري، ولنختم هذا البحث في ذكر سيد العارفين في عصرنا وهو العارف الكبير السيد الإمام الخميني قدس سره الذي أفنى ذاته في الله فكان الذاكر الحقيقي، والداعي لله بكل معنى الكلمة، يقول الشيخ الأنصاري أحد المقربين إلى الإمام في ترجمة حياة الإمام قدس سره: ((لم يترك الإمام صلاة الليل منذ خمسين سنة)) فالإمام يتهجد في كل ليلة، في المرض، وفي الصحة، في السجن، وخارج السجن، وفي حالة الإبعاد، وعلى سرير مستشفى القلب في الليلة التي أمر الأطباء بنقل الإمام من قم إلى مستشفى القلب في طهران لم يترك الإمام صلاة الليل في تلك الليلة، كانت ليلة عسيرة، وكان الثلج ينزل بكميات كبيرة، وبقي الإمام في سيارة الإسعاف على تلك الحالة عدة ساعات، ومع ذلك عندما استقر الإمام على سرير مستشفى القلب في طهران بادر إلى صلاة الليل، وفي الليلة التي انتقل فيها الإمام من باريس إلى طهران

---

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٨١/٤٦-٨٢.

صعد إلى الطابق العلوي من الطائرة وصلى هناك صلاة الليل.[١]

وفي أشد المواقف حرجاً، ترى الإمام لا يغير من التزاماته الدينية، ولم ينزل إلى الحكم الثانوي، بل كان دقيق الالتزام مهما كانت الظروف. نقل صاحب كتاب سيماء الصالحين، قال: ((في اليوم الأول لمغادرة الشاه لطهران كنا في (نوفل لوشاتو) اجتمع حول منزل الإمام حوالي ثلاثمائة إلى أربعمائة صحفي وأُعد للإمام مكان ووقف فيه، وكانت جميع الكاميرات تعمل... كان المقرر أن يشترك عدة أشخاص من الصحفيين في سؤال واحد. أجاب الإمام على عدة أسئلة، سؤالين أو ثلاثة، وسمع صوت آذان الظهر، وفَوْراً غادر الإمام المكان وقال: الآن يفوت وقت فضيلة الظهر، فتعجب جميع الحاضرين من أن الإمام غادر المكان بدون مبرر فطلب منه شخص أن يصبر عدة دقائق؛ ليجيب على الأقل على أربعة أو خمسة أسئلة أخرى، فأجاب الإمام مغضباً: غير ممكن أبداً))[٢] .

وهذه الحادثة تعرفنا مقدار التزام الإمام الخميني قدس سره بذكر ربه، الذي لم يُقدم عليه شيئاً مهما كان، ولو تصورنا ذلك الظرف السياسي العصيب، واجتماع أربعمائة صحفي من مختلف أنحاء العالم، ومئات الكاميرات موجهة عدساتها إليه وإذاعات العالم تتربص؛ لتسجل كل حدث وحديث من الإمام، مع حاجة الثورة إلى انتشار أحاديث الإمام إلا أن ذلك كله لم يؤثر في سيرِه وسلوكه إلى الله تعالى، ولم يغيّر من منهجه شيئاً.

---

(١) الشهيد الشيخ حسين معن، نظرات حول الإعداد الروحي: ٣٧-٣٨، الطبعة الخامسة.

(٢) رضى مختاري، سيماء الصالحين: ١٣٥-١٣٦، ترجمة حسين الكوراني.

رابعاً: النفس المحبة المحبوبة:

((**مُحِبَّةً لِصَفْوَةِ أَوْلِيائِكَ، مَحْبُوبَةً فِي أَرْضِكَ وَسَمائِكَ**)) .

هي النفس التي طهرها الله من أدران الذنوب والأرجاس، وذمائم الأخلاق، فزكت وصفت فأصبحت مشرقة ومشعة بنور خالقها، تكشف ظلمات الجهل والوهم والضلال، وتهدي إلى سبيل الحق والعدل والصلاح كما وصف أمير المؤمنين عليه السلام بعض عباد الله تعالى: ((**إنَّ مِنْ أَحَبِّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه ...**)) إلى أن يقول: ((... **فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس قد نصب نفسه لله -سبحانه- في أرفع الأمور، من إصدار كل وارد عليه، وتصيير كل فرع إلى أصله، مصباح ظلمات، كشاف عشوات، مفتاح مبهمات، دفاع معضلات، دليل فلوات...**))[(١)] .

ولهذه النفوس قوتان: قوة جذب وانجذاب، وقوة نفر وطرد، فهي تنجذب إلى كل حسن جميل، في الوقت الذي تجذبه إليها، وتنفر من كل قبيح وتطرده عنها، وبعبارة أخرى، هي تحب الحق، والعدل وتنفر من الباطل والظلم والضلال تلك هي النفوس التي صفاها الله واصطفاها.

((الحب لله وفي الله))

الحب لغة: ((نقيض البغض، والحب: الوداد والمحبة، وكذلك الحِبُّ بالكسر... وأحبه فهو محب، وهو محبوب، على غير قياس))[(٢)]

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ٨٧ .

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٢٨٩/١.

وقال أهل المعاني: ((المحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيراً وهي على ثلاثة أوجه: محبة اللذة كمحبة الرجل المرأة... ومحبة للنفع كمحبة شيء ينتفع به، ومنه: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾[١] ومحبة للفضل كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض؛ لأجل العلم))[٢].

وقال أصحاب القلوب: ((المحبة تعلُّق القلب بين الهمَّة والأنس في البذل والمنع على الإفراد، يعني تعلق القلب بالمحبوب تعلقاً مقترناً بهمَّة المحب وأنس القلب بالحق تعالى... والمحبة أول أودية الفناء))[٣].

((حب الله))

وهو مصدر كل حب سليم وأصله، وكل أنواع الحب إما هي امتداد له أو متفرعة عنه، وراجعة إليه دون سواه، يقول الشهيد الشيخ حسين معن رحمه الله:

((وعاطفة الحب أوسع العواطف الإيمانية، وأشملها وتتمثل في الميل النفسي إلى الله تعالى، والاستعداد الدائم للأنس والالتذاذ بلقائه، وينبسط هذا الحب، ويتفرع إلى معاني أخرى بسبب ارتباطها بالله بنحو من أنحاء الارتباط))[٤].

وخلاصة الكلام: إن الحب تعلق، وانشداد، وانجذاب. وتوضيح ذلك: أن النفس الإنسانية إذا خلت من مداني الأخلاق، وأدران الذنوب، أصبحت تواقة ومتطلعة؛ لنيل الكمالات العليا، ومعلوم أن الكمال المطلق لا يوجد عند غير الله

---

(١) الصف: ١٣.

(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ١٠٥.

(٣) التلمساني، شرح منازل السائرين: ٣٨٩-٣٩٠، طبعة إنتشارات بيدار.

(٤) الشهيد الشيخ حسين معن، نظرات حول الإعداد الروحي: ١٥٨-١٥٩، الطبعة الخامسة.

تعالى؛ ولهذا فإن النفس الطاهرة الزكية تتطلع دائماً إلى قمة الكمال، وترنو إليها وتنجذب للكمال المطلق كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس.

تلك هي الحالة الكامنة في النفس بما فيها من تطلع، واندفاع، وتوجه وانشداد، وتعلق، وانجذاب للكامل المطلق، وأجلى صوره، هو حب الله، والحب لله... فحب الله إذن هو تلك الحالة السامية الكامنة في النفس، والمتطلعة إلى نيل الكمالات، والمتشوقة إلى لقاء الله تعالى، يقول عز وجل:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(١).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾(٢).

ولهذا فإن حب الله تعالى يطرد من القلب كل شيء، وينفرد به دون سواه،ويصبح القلب حرم الله المقدس الذي يغار الله عليه، ولا يرضى أن يدخله غيره، يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((**القلب حرم الله، فلا تسكن حرم الله غير الله**))(٣).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**حب الله نار لا يمر على شيء إلا أحرقته، ونور الله لا يطلع على شيء إلا أضاء**))(٤).

من هنا قال بعض المحققين: ((محبة الله للعبد(٥) كشف الحجاب عن قلبه

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) البقرة: ١٦٥.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٥/٧٠.

(٤) مصباح الشريعة: ١٩٢-١٩٣.

(٥) أفاض العلماء في تفسير محبة الله لعبده على أقوال عديدة وعبارات مختلفة وقارنوا بينها وبين محبة العبد لله فقيل:

١- (محبة الله لعبده بأنها إرادته الخير له وهدايته ورحمته، ونقيض ذلك بغض الله له)

محمد بن اسماعيل الكحلاني، سبل السلام: ١٧٨/٤.

←

←

٢- (محبة الله لعبده عبارة عن إيصال الخير إليه أو إرادة ايصاله)

المولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي: ١٨٣/١٠.

٣- (محبة الله لعبده ارادته الخير له وهدايته إليه وانعامه عليه، وكراهته له على الضد من ذلك)

ابن حجر، فتح الباري: ٣٦٥/١١.

٤- وقال القرطبي في المُفْهِم: (محبة الله لعبده تقريبه له، واكرامه، وليست بميل، ولا غرض كما هي من العبد، وليست محبة العبد لربه نفس الإرادة، بل هي شيء زائد عليها فان المرء يجد من نفسه انه يحب ما لا يقدر على اكتسابه ولا على تحصيله)

ابن حجر، فتح الباري: ٣٧٠/١٣.

٥- (إن حقيقة محبة الله لعبده إرادته سبحانه؛ لإنعام مخصوص يفيضه إلى ذلك العبد من تقريبه وازلافه من مجال الطهارة، والقدس، وقطع شواغله، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه، فإرادته بأن يخص عبده بهذه الأحوال الشريفة هي محبته له فإن كانت إرادته لأن يخصه بما هو دون هذه الأحوال من الإنعام كإرادته أن يثيبه، ويدفع عقابه عنه فتسمى هذه الإرادة لهذا المعنى القاصر عن المقام الأول رحمة فالمحبة أخص من الرحمة وكل واحد منهما إرادة الخير لكن يتفاوتان بتفاوت متعلق كل واحد منهما فهذا معنى محبة الله تعالى لعبده . وأما محبة العبد لله تعالى فهو ميله إلى نيل هذا الكمال وإرادته درك هذه الفضائل. فتكون إضافة المحبة إلى الله تعالى واضافتها إلى العبد مختلفين نظرا إلى الاعتبارين المذكورين) محمد بن طلحة الشافعي، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول عليهم السلام: ٨٦-٨٧

٦- (وليس المراد من محبة الله لعبده هو الابتهاج العام الذي له - تعالى - بأفعاله له، إذ المستفاد من الآيات والأخبار: أن له - تعالى - خصوصية محبة لبعض عباده ليست لسائر العباد والمخلوقات، فمعنى هذه المحبة يرجع إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وإلى تمكينه إياه من القرب إليه، وإلى إرادته ذلك به في الأزل، وإلى تطهير باطنه عن حلول الغير به، وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه، حتى لا يسمع إلا بالحق

←

وتمكينه من أن يطأ على بساط قربه، فإنّ ما يوصف به سبحانه إنما يؤخذ باعتبار الغايات لا المبادئ، وعلامة حبّه للعبد توفيقه للتجافي عن دار الغرور، والترقي إلى عالم النور والأنس بالله والوحشة ممن سواه، وصيرورة جميع الهموم هماً واحداً))[١].

وهذا لا يتوفر إلا لمن ((قد خلع سرابيل الشهوات، وتخلى من الهموم، إلا هماً واحداً انفرد به، فخرج من صفة العمى، ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى، ومغاليق أبواب الردى))[٢].

((الدين هو الحب، والحب هو الدين[٣]))

تلك هي الحقيقة الناصعة التي نريد الوصول إليها، وتحصيل اليقين بها فبوعيها فكراً وعاطفة، وتطبيقها سلوكاً وأخلاقاً تتم سعادة الدنيا والآخرة، وهذا ما أكده أئمة الهدى ﴿ع﴾ في أحاديث كثيرة وردت عنهم نذكر منها:

١- عن البزنطي، عن صفوان الجمال، عن أبي عبيد الحذّاء، عن أبي جعفر ﴿ع﴾ في حديث له قال: ((**يا زياد، ويحك وهل الدِّين إلا الحب؟ ألا ترى إلى قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾**[٤] أو لا ترى قول الله

←

ومن الحق، ولا يبصر إلا به، ولا ينطق إلا به - كما في الحديث القدسي - فيكون تقربه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه، وارتفاع الحجاب عن قلبه، وحصوله في درجة القرب من ربه، وكل ذلك من فضل الله - تعالى- ولطفه به) الشيخ النراقي، جامع السعادات: ١٨١/٣.

(١) الشيخ الطريحي، مجمع البحرين: ٣٠/٢.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ٨٧

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٣٨/٦٩.

(٤) آل عمران: ٣١.

لمحمد عليه السلام ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[١] وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[٢] فقال: **الدِّين هو الحب والحب هو الدِّين**))[٣].

ويظهر من نص آخر أن أبي عبيدة الحذاء دخل على أبي جعفر عليه السلام فقال: ((**بأبي أنت ربما خلا بي الشيطان فخبثت نفسي ثم ذكرت حبي إياكم وانقطاعي إليكم فطابت نفسي**، فقال... الرواية))[٤].

٢- وعن ربعي بن عبد الله قال: ((قيل لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك إنا نسمي بأسمائكم وأسماء آبائكم، فينفعنا ذلك؟ فقال: **إيْ والله، وهل الدين إلا الحب قال الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾**[٥]))[٦].

٣- وعن فضيل بن يسار قال: ((سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحب والبغض أمن الإيمان هو؟ فقال: **وهل الإيمان إلا الحب والبغض**، ثم تلا الآية: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[٧]))[٨].

والسبب في صيرورة الدين حباً، والحب ديناً هو أن الإيمان أمر قلبي يترسخ في الجوانح، وينعكس على الجوارح، وما لم يترسخ في القلب لا يحصل أثره،

---

(١) الحجرات: ٧.

(٢) الحشر: ٩.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٦٩/٢٣٨.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧/٩٤.

(٥) آل عمران: ٣١.

(٦) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٧/٩٥.

(٧) الحجرات: ٧.

(٨) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢/١٢٥.

وليس هناك شيء يُرسخ العقيدة في القلب كالحب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن التمسك بالدين والتضحية في سبيله لا تتم بدون الحب؛ لأن المحب هو الذي يبذل الغالي والنفيس في سبيل محبوبه؛ ولهذا بذل المحبون في سبيل حبهم كل شيء، ولم يبخلوا بشيء كما صور الشاعر ذلك على لسان سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام بقوله:

((إلهي تركت الخلق طُراً في هواكا ... وأيتمتُ العيال لكي أراكا

فلو قطعتني في الحب إرباً ... لما مال الفؤاد إلى سواكا))

ويمكن أن نستوحي من قوله عليه السلام: ((**الدين هو الحب** ...)) معنى آخر وهو: إن الدين ينظم علاقة الإنسان بربه، وبنفسه، وبمجتمعه، وبالطبيعة، والكون. ومن هنا يكون الدين نظام الحياة الذي يهدي إلى سبيل السعادة والرشاد، وما لم تبتنِ تلك العلاقات على روابط قوية وصحيحة لا يمكن أن يتحقق الامتثال لأوامر ونواهي الشرع الشريف، ومعلوم أن أقوى وأمتن وأصح تلك الروابط هي الحب، والحب فقط... ولهذا هدد الله من يرتد عن دينه بالمحبين دون غيرهم، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(1).

((فالحب مطلق معلق على الذات من غير تقييده بوصف أو غير ذلك، أما حبهم لله فلازمه إيثارهم ربهم على كل شيء سواه مما يتعلق به نفس الإنسان من مال، أو جاه أو عشيرة، أو غيرها فهؤلاء لا يوالون أحداً من أعداء الله سبحانه وإن

(١) المائدة: ٥٤.

والوا أحداً فإنما يوالون بولاية الله تعالى))[1] .

((لوازم الحب وآثاره))

للحب لوازم يقوم عليها ويبتني بها، وآثار تتمخض عنه، وما لم تتوفر تلك اللوازم، وتبرز تلك الآثار على سلوك المحب لا يمكن أن يصدُق عليه الحب نذكر منها:

١- **العلم والمعرفة:** من الحقائق النفسية أن من لا يعرف الشيء وأهميته في حياته لا يمكن أن يحبه؛ لأن الحب ثمرة المعرفة، وما لم توجد الشجرة لا يمكن أن تحصل الثمرة، ولما كانت ((المحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها، وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها؛ ولذلك قيل: من عرف ربه أحبه، ومن عرف النار بعُد عنها، ومن عرف الدنيا زهد فيها))[2] وتأسيسا على ذلك ((من ادعى المحبة بدون علم ومعرفة فهو جاهل مغرور يكذبه ما روي: **ما اتخذ الله ولياً جاهلاً**))[3] ولهذا أشد ما كان يؤذي أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام تصرف بعض المنتحلين محبتهم، والذين يتظاهرون بتشيعهم، ومن الذين يحبونهم حباً عاطفياً ساذجاً يعود عليهم بآثار سلبية، وبصور مشوهة لعقائدهم الحقة؛ ولأجل هذا كانوا يبدون تألمهم وامتعاضهم من أولئك المحبين، فقد روى الصدوق في صفات الشيعة عن الحسن بن علي الخزاز قال: ((سمعت الرضا عليه السلام يقول: **إن ممن يتخذ مودَّتنا أهل البيت عليهم السلام، لمن هو أشد لعنة على شيعتنا من الدجال**، فقلت له: يا بن رسول الله

---

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٨٣/٥.

(٢) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء: ١٦/٨-١٧.

(٣) المولى المازندراني، شرح أصول الكافي: ٣٦٣/٨..

بماذا؟ قال: **بموالاة أعدائنا ومعاداة أوليائنا إنه إذا كان كذلك اختلط الحق بالباطل، واشتبه الأمر فلم يعرف مؤمن من منافق**))[١] .

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ((**إن ممن ينتحل هذا الأمر لمن هو شرٌّ من اليهود، والنصارى، والمجوس، والذين أشركوا**))[٢] .

ولذلك كانوا عليهم السلام يُحذرون، وينبهون، ويذكّرون الناس بصورة مستمرة ليفهموا أن حبهم مشروط بحب الإسلام، والالتزام به، والدفاع عنه وتجسيده سلوكياً بالفعل لا بالقول فقط، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: ((**يا أيها الناس أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً [شيناً]**))[٣] .

وفي رواية أخرى: ((**أحبّونا حب الإسلام، فما زال حبّكم لنا حتى صار شيناً علينا**))[٤] .

وفي رواية أخرى: ((**يا أهل العراق، أحبونا حب الإسلام، ولا تحبونا حب الأصنام، فما زال بنا حبكم حتى صار علينا شيناً**))[٥] .

وفي رواية: ((**أحبونا حب الإسلام، فوالله ما زال بنا ما تقولون حتى بغضتمونا إلى الناس**))[٦] .

---

(١) الشيخ الصدوق، صفات الشيعة: ٨ ، طبعة انتشارات أعلمي.

(٢) الشيخ الطوسي، اختيار معرفة الرجال(رجال الكشي): ٥٨٧.

(٣) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٣٠٠/٣، والإرشاد للمفيد: ٢٥٥، وابن منظور في مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: ٢٣٥/١٧.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٣/٤٦.

(٥) السيد شهاب الدين المرعشي، شرح إحقاق الحق: ١٠٦/٢٨.

(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٢١٤/٥.

ومن قبله قال أبوه الحسين عليه السلام: ((**أحبونا بحب الإسلام فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا ترفعوني فوق حقي فإن الله اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً**))[١].

يقول المحدث المجلسي: ((لعل المراد النهي عن الغلو، أي أحبونا حباً يكون موافقاً لقانون الإسلام، ولا يخرجكم عنه، ولا زال حبّكم كان لنا حتى أفرطتم وقلتم فينا ما لا نرضى به، فصرتم شيناً وعيباً علينا، حيث يعيبوننا النّاس بما تنسبون إلينا))[٢].

وحب الإسلام هو الذي يُمتّن علاقة الإنسان بربه، ودينه، وإخوانه ((فيضع ولاءه وحبه حيث يأمره الله، وحيث يحب الله، ويتبرأ عمن يتبرأ الله تعالى منه، ولن يصدق في إيمانه، ولن يبلغ محض الإيمان من دون هذا الولاء والحب لأحباء الله والبراءة والعداء لأعداء الله، والمواقف الإيجابية الثابتة، حيث يحب الله، والمواقف السلبية حيث يأمر الله، فيحب بحب الله كل من أحب الله، ويبغض كل من يبغضه الله. حتى رسول الله يحبه بحب الله، وبحبه لله، يقول صلى الله عليه وآله: أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله عز وجل، وأحبوا أهل بيتي لحبي))[٣].

٢- **الإخلاص والتجرد:** وهذا أيضاً من اللوازم الأساسية للحب حيث أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ **مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ﴾[٤] فلا يمكن أن يجتمع حبان في قلب واحد لشيئين متناقضين أو متضادين كمن يحب الله ويحب الدنيا، أو كمن يحب الإسلام، ويوالي أعداءه، يقول الإمام الصادق عليه السلام:

---

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد: ٢١/٩.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٣/٤٦.

(٣) الشيخ محمد مهدي الآصفي، كتاب الدعاء: ٢٣٥.

(٤) الأحزاب: ٤.

((**ما أحب الله من أحب الدنيا، ووالى غيرنا**))[١] فحقيقة الإخلاص تجريد القلب لحب الله تعالى، وحب من يحبه الله ويرضاه، وهذا ما عبر عنه (**بإخلاص الحب لله**) الذي ينفي أي حب آخر غير حب الله، إلا أن يكون في امتداد (**الحب لله، والبغض لله**)[٢].

وهذا المعنى هو الذي أشارت إليه نصوص أئمة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**أحبوا الله من كل قلوبكم**))[٣].

وفي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: ((**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَمْلأَ قَلْبِي حُبّاً لَكَ، وَ خَشْيَةً مِنْكَ، وَ تَصْدِيقاً وَ إِيمَاناً بِكَ، وَ فَرَقاً مِنْكَ، وَ شَوْقاً إِلَيْكَ**)).

٣- **الطاعة والمتابعة:** وهذا من آثار الحب فلا حب بدون طاعة ومتابعة يقول تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٤].

إذن الحب مشروط بالطاعة. جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: ((**ما أحب الله من عصاه**، ثم تمثل:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبه ... هذا محال في الفعال بديع
لو كان حبُك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع))[٥]

وقد أكدت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام كثيراً على هذا، وأكثرها

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٢٦/٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢١٦.

(٣) المتقي الهندي، كنز العمال: ١٢٤/١٦.

(٤) آل عمران: ٣١.

(٥) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٢٤٣/١١.

صراحة ما جاء في حديث الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي، فعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((قال لي: **يا جابر أيكتفي من ينتحل التَّشيُّع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعَتُنا إلا من اتَّقى الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون يا جابر إلا بالتَّواضع والتَّخشُّع، والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصَّوم، والصَّلاة، والبر بالوالدَين، والتعاهد للجيران من الفقراء، وأهل المسكنة، والغارمين، والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكفّ الألسن عن النَّاس إلا من خير؛ وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء.**

قال جابر: فقلت: يا ابن رسول الله ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصِّفة، فقال: **يا جابر لا تذهبَنَّ بك المذاهب حسب الرَّجل أن يقول: أُحبُّ علياً وأتولاه، ثم لا يكون مع ذلك فعَّالاً؟ فلو قال: إنّي أُحبُّ رسول الله فرسول الله ﷺ خَيرٌ من عليّ ثمَّ لا يتَّبع سيرته، ولا يعمل بسنَّته ما نفعه حبُّه إياه شيئاً، فاتَّقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله عزّ وجلّ [وأكرمهم عليه] أتقاهم، وأعملهم بطاعته، يا جابر والله ما يُتَقَرَّبُ إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطَّاعة وما معنا براءة من النَّار، ولا على الله لأحد من حجَّة، من كان لله مطيعاً فهو لنَا وليٌّ، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوٌّ، وما تُنَال ولايتنا إلا بالعمل والورع))**[١].

٤- **الأنس بالله تعالى:** ومن آثار الحب الأنس بالله تعالى، وهي حالة يتوجه بها العبد إلى الله، وينشغل بذكره ومناجاته ودعائه حتى يستغرق بذلك، ويجد فيه لذته، وأنسه، وقرة عينه بحيث (يدفع بها جميع الهموم) والآلام، والمصائب، والبلايا، وينعكس ذلك على سلوك المستأنس بصيرة، وصبراً، ونوراً، وعزماً،

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢/٧٤-٧٥.

واستقامة وثباتاً... ففي الخبر ((دخل العباسيون على صالح بن وصيف عندما حبس أبو محمد العسكري عليه السلام فقالوا له: ضيّق عليه، ولا توسع، فقال لهم صالح: ما أصنع به، وقد وكّلت به رجلين شر من قدرت عليه، فقد صار من العبادة، والصلاة، والصيام إلى أمر عظيم، ثم أمر بإحضار الموكلين به، فقال لهما: ويحكما ما شأنكما في أمر هذا الرجل، فقالا: ما نقول في رجل يصوم النهار، ويقوم الليل كله لا يتكلم، ولا يتشاغل بغير العبادة، فإذا نظر إلينا ارتَعدت فرائصنا، وداخلنا ما لا نملكه من أنفسنا))[١] .

خامساً: حب الصفوة من أولياء الله:

((**مَحبَّةَ لِصَفْوَةْ أَوْلِيائِكَ**)) .

صفوة أولياء الله هم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فاصطفاهم لدينه، واستخلصهم لنفسه، فأصبحوا بذلك صفوته تعالى من خلقه وأحبّاءه، وأمناءه على دينه، وهداته لخلقه، وهؤلاء هم الأنبياء والمرسلون وأوصياؤهم الذين اختارهم من بعدهم أمناء على رسالته، وقد دلت النصوص الشريفة من الأحاديث والروايات والأدعية على أن محمداً وآله هم صفوة الخلق.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**أنا وأهل بيتي صفوة الله وخيرته**))[٢] .

وفي أحاديث أُخر: ((**فاطمة وولدها الحسن والحسين صفوة الله**))[٣] .

((**إن محمداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله وأمينه وصفيه**))[٤] .

---

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٣٤٤.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٤/٢٣.

(٣) المصدر نفسه: ٤٨/٣٧.

(٤) المصدر نفسه: ٣٥٢/١٠.

((**أنا خاصته... وخالصته وصفوته ووصيه**))[١].

((**ألا ومن أحب في الله... فهو من أصفياء الله**))[٢].

((**إذا أحب الله عبداً من أمتي قذف في قلوب أصفيائه، وأرواح ملائكته وسكان عرشه محبته؛ ليحبوه فذلك المحب حقاً ...**))[٣].

ولقد أكد القران والسنة المطهرة على حب صفوة الله تعالى من آل محمد صلى الله عليه وآله فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ**﴾[٤].

ويكاد يجمع المفسرون من الفريقين أن المقصود بالقربى هم قربى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ولم ينكر ذلك إلا من أعمى التعصب عينيه فراح يحمل النصوص كما يريد كالآلوسي الذي اعترف في تفسيره للآية بوجوب محبة أهل البيت عليهم السلام إلا أنه لم يوجب ولايتهم وطاعتهم[٥].

ومما يؤكد أن المقصود بالقربى هم أهل البيت عليهم السلام ما رواه أكثر مفسري السنة أنه لما نزلت الآية قيل: ((يا رسول الله، مَنْ قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: **علي وفاطمة وابناهما**))[٦].

وروي ((أن الأنصار قالوا: فعلنا وفعلنا، كأنهم افتخروا، فقال عباس، أو ابن

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٦٠/٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤٠/٦٩.

(٣) المصدر نفسه: ٢٤/٧٠.

(٤) الشورى : ٢٣.

(٥) الآلوسي، روح المعاني: ٣٣/٢٥.

(٦) الزمخشري، الكشاف: ٢١٩/٤-٢٢٠.

عباس: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فأتاهم في مجالسهم، فقال: **يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي؟** قالوا: بلى يا رسول الله. قال: **ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي؟** قالوا: بلى يا رسول الله. قال: **أفلا تجيبونني؟** قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: **ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقّناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك؟** قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ورسوله، فنزلت الآية، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة))**[1] .

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

---

(١) الزمخشري، الكشاف: ٢٢٠/٤-٢٢١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ٢٣/١٦، والثعلبي في تفسيره: ٣١٤/٨، والرازي في تفسيره: ١٦٥/٢٧-١٦٦، والفصول المهمة لابن الصباغ: ٥٩٣/١ طبعة دار الحديث-قم، وينابيع المودة للقندوزي: ٩١/١.

ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾[١] [٢].

فقد روى أكثر المفسرين: ((أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لعلي (عليه السلام): قل: **اللهم اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي في صدور المؤمنين مودّة**، فأنزل الله هذه الآية)).

وفي رواية الخطيب الخوارزمي من حديث بن عباس، وبعده بالإسناد عن علي (عليه السلام) أنه قال: ((**لقيني رجل فقال: يا أبا الحسن، والله إني أحبك في الله فرجعت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأخبرته بقول الرجل، فقال لعلي: يا علي أصنعت له معروفاً؟ قال: فقلت: والله ما اصطنعت له معروفاً، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الحمد لله الذي جعل قلوب المؤمنين تتوق إليه بالمودة. فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾**[٣]))[٤].

((الحب شرط الإيمان))

وردت عن طريق السنة والشيعة روايات تؤكد أن حب الله ورسوله وأهل بيته شرط لا يمكن أن يتحقق الإيمان إلا بتحققه، ونذكر من تلك الروايات والأحاديث:

---

(١) مريم: ٩٦.

(٢) وقد أكد المفسرون أن هذه الآية نزلت في حب علي (عليه السلام) كما ذكر ذلك الثعالبي في تفسيره وسبط ابن الجوزي في تذكرته والبيهقي في مجمع الزوائد، والخطيب الخوارزمي في مناقبه والكنجي في الكفاية، ومحب الدين الطبري في رياضه، والقسطلاني في المواهب... الخ.

(٣) مريم: ٩٦.

(٤) الشيخ الأميني، الغدير: ٥٦/٢.

١- روى مسلم في صحيحه عن أنس قال: ((قال رسول الله ﷺ: **لا يؤمن عبد... حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين**))(١).

٢- روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قوله: ((**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده**))(٢).

٣- وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله ، وعترتي أحب إليه من عترته، وذاتي أحب إليه من ذاته**))(٣).

٤- وقال ﷺ: ((**ما بال أقوام يتحدثون فإذا رأوا الرجل من أهل بيتي قطعوا حديثهم؟ والذي نفسي بيده لا يدخل قلب امرئ الإيمان حتى يحبهم لله ولقرابتهم مني**))(٤).

٥- وقال ﷺ: ((**لا يؤمن رجل حتى يحب أهل بيتي فقال عمر بن الخطاب: قال هذا، وضرب بيده على علي بن أبي طالب**))(٥).

ونحن إذا تأملنا في هذه الأحاديث جيدا ندرك أهمية حبهم، وان هذا الحب لم يكن مجرد عواطف ساذجة، وإنما هو دين يتعبّد به الإنسان لله تعالى ، ولعل

(١) ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ٧٤/١، وشرح النووي في صحيح مسلم: ١٥/٢، والنسائي في سننه: ١١٥/٨.

(٢) ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ٧٤/١، وشرح النووي في صحيح مسلم: ١٥/٢، والنسائي في سننه: ١١٥/٨.

(٣) الهيثمي، مجمع الزوائد: ٨٨/١، والمعجم الأوسط للطبراني: ٥٩/٦، وكنز العمال للمتقي الهندي: ٤١/١.

(٤) المتقي الهندي، كنز العمال: ١٠٢/١٢.

(٥) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٠٧/٢٧.

هذا هو مدلول الحديث الشريف المتقدم ((**الدين هو الحب، والحب هو الدين**)) والسر في ذلك أن الحب هنا ارتباط عقائدي، واتباع رسالي، يشد المحب إلى الله، ويدفعه للالتزام الواعي، والتضحية في سبيل ما يعتقد، وهذا هو معنى الحب لله وفي الله، وهذا هو (حب الإسلام) في قول سيد العابدين علي بن الحسين عليه السلام: ((**أحبونا حب الإسلام**))(١) فلا يدخل الإيمان قلبا إذا لم يحب محمداً وآل محمد. ومن أين يدخل الإيمان في قلب امرئ إذا لم يرتبط بهم ، ويسير وفق سنتهم؟

((حبهم أساس الإسلام))

كما جاءت أحاديث أخرى تؤكد أن حب رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام هو أساس الدين والإسلام، ومعنى ذلك أن حبهم هو القاعدة الصلبة التي يقف المؤمن عليها، ويتحرك منها في مسيره إلى الله تعالى. وقد سأل أبو ذر الغفاري رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً: ((يا رسول الله وما الإسلام؟ فقال: **الإسلام عريان، ولباسه التقوى وزينتُهُ الحياء، وملاكه الورع، وكماله الدين، وثمرته العمل، ولكل شيء أساس وأساس الإسلام حُبُّنا أهل البيت**))(٢) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**لكل شيء أساس، وأساس الإسلام حبنا أهل البيت**))(٣) .

ومعنى كون حبهم أساس الإسلام: أن الإنسان الذي يعتنق الإسلام عقيدة

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٣/٤٦.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٨٢/٢٧ ، وثقة الإسلام الكليني في الأصول من الكافي: ٤٦/٢ (مع اختلاف).

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٩١/٢٧.

ونظاماً مرتبطٌ بهم، ومتأسيٌ بسيرتهم، ومطبقٌ لمنهجهم، وحينئذٍ سيكون قد وقف على أرضية صلبة لا يهتز، ولا يتراجع، وإنما يبقى ثابتاً ومستقيماً لا تزعزعه العواصف، ولا تغريه الدنيا، ولا شك أن من يثبت على شرعة الله في هذه الدنيا لم تزل له قدم، ولم ينحرف عن جادة الصواب فإن هذا الثبات هنا هو ثبات على الصراط يوم تزل الأقدام ، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**أثبتكم على الصراط أشدكم حباً لأهل بيتي**))(١) .

كما روى ابن حجر الهيثمي في صواعقه قال: ((وروى ابن السماك أن أبا بكر قال له: [علي عليه السلام] سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **لا يجوز أحد على الصراط إلا من كتب له علي الجواز**))(٢) .

وعن الإمام الباقر عليه السلام عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي: ((**يا علي ما ثبت حبّك في قلب امرئ مؤمن فزلت به قدم على الصراط إلا ثبَتَ له قدم حتى يدخله الله عز وجل بحبك الجنة**))(٣) .

وعن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله من أحب أن يتمسك بالعروة الوثقى فليتمسك بحب علي وأهل بيته**))(٤) .

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال: ٩٧/١٢.

(٢) ابن الحجر الهيثمي، الصواعق المحرقة: ١٢٤، المطبوع في دار الطباعة المحمدية-درب الأتراك في الأزهر الشريف، جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن طالب عليه السلام لابن الدمشقي: ١٠١/١، وينابيع المودة للقندوزي: (٣/٢،٤٤٠/١٦٢)، والمناقب العشرة (مخطوط) للنقشبندي: ١٧.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٧/٢٧.

(٤) المصدر نفسه: ٧٩/٢٧.

وعن حنان بن سدير عن **أبي جعفر** عليه السلام قال: ((ما ثَبَّتَ الله حب علي عليه السلام في قلب أحد فزلّت له قدم إلا ثَبَّتَ له قدماً أخرى))(١)

فإذن حبهم عليهم السلام هو العنصر الأساسي في الثبات والاستقامة على الدين وذلك لأن الحب إذا ثبت في القلب، وتأصل وتجذّر يصبح عنصر جذب وانجذاب إلى المحبوب، وإذا انجذب المحب إلى حبيبه تبعه وأطاعه. فالمحب لعلي عليه السلام لا بد وأن يتبعه ويطيعه بملازمة سيرته، ولا شك أن الإنسان إذا كان كذلك فلا يمكن أن يزلَّ أو ينحرفَ عن جادة الصواب، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه لأهل مصر: ((**واعلموا – عباد الله – أنكم إذا اتقيتم ربكم، وحفظتم نبيكم في أهل بيته فقد عبدتموه بأفضل ما عبد، وذكرتموه بأفضل ما ذكر، وشكرتموه بأفضل ما شكر وأخذتم بأفضل الصبر، وجاهدتم بأفضل الجهاد، وإن كان غيركم أطول صلاة منكم، وأكثر صياماً إذا كنتم أتقى لله، وأنصح لأولياء الله من آل محمّد وأخشع**))(٢) .

((مسؤولية حب أهل البيت عليهم السلام))

لما لم يكن حب أهل البيت عليهم السلام مجرد عواطف نفسية، وعلاقات مصلحية وإنما هو وسيلة دينية نتعبد بها لله تبارك وتعالى، ورابطة مقدسة نابعة عن وعي إيماني عميق يبتني على أسس عقائدية متينة تربطنا بالله تبارك وتعالى، وتعمق فينا روح الولاء لله ورسوله وللمؤمنين، وهذا الولاء يستبطن المسؤولية (ويستقطب حركة الموالي، وقدراته، وإمكاناته، ومواهبه، وميوله حول محور واحد) وبذلك

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٩٩/٦٨.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦٨/٦.

يصبح (عنوان شخصية المؤمن) وهويته ويعطيه قيمته الحقيقية في خلافة الله تعالى ولعله من هذا المنطلق كان أنس بن مالك يقول: ((والله الذي لا اله إلا هو لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب**))[١].

إن أمراً بهذا المستوى، وبهذه الأهمية لابد أن يأخذ دوراً أساسياً في حياة الإنسان، وهذا الدور نابع من حيث أن الولاء لأهل البيت عليهم السلام نعمة كبرى سوف يسأل الإنسان عنها؛ ولهذا جاءت النصوص مؤكدة لهذه المسؤولية، فعن ابن محبوب عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله حتى يسأله عن أربع خصال: عمرك فيما أفنيته؟ وجسدك فيما أبليته؟ ومالك من أين كسبته وأين وضعته؟ وعن حبنا أهل البيت**))[٢].

وفي رواية أخرى عن الإمام الرضا عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: ((**أول ما يُسأل عنه العبد حبنا أهل البيت**))[٣].

وعن ابن عباس قال: ((قلت للنبي صلى الله عليه وآله: أوصني، قال: **عليك بمودة علي بن أبي طالب، والذي بعثني بالحقّ نبياً لا يقبل الله من عبد حسنة حتى يسأله عن حب علي بن أبي طالب، وهو تعالى أعلم فإن جاءه بولايته قُبِلَ عمله على ما كان منه، وإن لم يأتِ بولايته لم يسأله عن شيء، ثم أمر به إلى النار**))[٤]

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٤١٠/٤، وابن البطريق في العمدة: ٣٧٠، والسيوطي في الجامع الصغير: ١٨٢/٢، وكنز العمال: ٦٠١/١١، وتاريخ دمشق: ٢٣٠/٥، وابن حجر في لسان الميزان: ٤٧١/٤.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٥٩/٧.

(٣) المصدر نفسه: ٧٩/٢٧.

(٤) المصدر نفسه: ٢١٩.

وكان أئمة الهدى عليهم السلام يؤكدون ذلك لشيعتهم ومحبيهم، وفي كل مناسبة يُذَكّرونهم بذلك لأجل ترسيخ وتأصيل وتجذير هذا الحب الولائي في قلوبهم فعن أبي خالد الكابلي قال: ((دخلت على أبي جعفر عليه السلام فدعا بالغذاء فأكلت معه طعاماً ما أكلت طعاماً قط أنظف منه، ولا أطيب منه، فلما فرغنا من الطعام، قال: **يا أبا خالد كيف رأيت طعامنا؟** قلت: جعلت فداك ما رأيت أنظف منه قط، ولا أطيب، ولكني ذكرت الآية التي في كتاب الله ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾[(١)] فقال أبو جعفر: **لا إنما تسألون عما أنتم عليه من الحق**))[(٢)].

وعن أبي حمزة قال: ((كنا عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة فدعا بطعام ما لنا عهد بمثله لذاذة وطيباً حتى تملّينا، وأُتينا بتمر ننظر فيه إلى وجوهنا من صفائه وحسنه فقال رجل: لتسألن يومئذ غداً عن هذا النعيم الذي تنعَّمتم عند ابن رسول الله فقال أبو عبد الله عليه السلام: **الله أكرم وأجلُّ أن يطعمكم فيُسَوِّغُكمُوه ثم يسألكم عنه ولكن يسألكم عما أنعم به عليكم بمحمد وآل محمد**))[(٣)].

وروى العياشي بإسناده في حديث طويل، قال: ((سأل أبو حنيفة أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية[٤]، فقال له: **ما النعيم عندك يا نعمان؟** قال: القوت من الطعام والماء البارد فقال عليه السلام: **لئن أوقفك الله بين يديه يوم القيامة حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها، أو شربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه**، قال فما النعيم جعلت فداك؟ قال عليه السلام: **نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد،**

(١) التكاثر: ٨.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧/٢٦٥-٢٦٦.

(٣) المصدر نفسه: ٢٤/٥٣.

(٤) الآية هي : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم).

وبنا ائتلفوا بعد ما كانوا مختلفين، وبنا ألف الله بين قلوبهم فجعلهم إخواناً بعد أن كانوا عداءا، وبنا هداهم الله للإسلام، وهو النعمة التي لا تنقطع، والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم عليهم، وهو النبي وعترته))(١) .

((حق أهل البيت عليهم السلام))

إن الذي يُسأل عنه المحب الموالي من حق أهل البيت عليهم السلام هو معرفتهم وأداء حقوقهم التي أوجبها الله تعالى في الكتاب والسنة، والتي لم تكن حقوقاً شخصية ذاتية، وإنما هي حقوق إلهية تخص رسالة الله تعالى، وإنما نُسبت إليهم لأنهم حَمَلَتُها الحقيقيون الذين تلقّوها، وأخذوها بقوة، ووعوها بعمق كاملة غير منقوصة عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن الله، كما أنهم أصدق من مثلها قولاً وفعلاً، وأشد الناس تحملاً وعناءاً من أجل نشرها، وتطبيقها، وحفظها من تحريف الحاقدين ، وبذلك أصبحوا هم الإسلام المتحرك الذي لا تَنفَكُّ عنه شخصياتهم بحال من الأحوال، بل إنهم أوقفوا جميع حياتهم وبكل مراحلها من أجل المحافظة على أصالة الإسلام واستمرارية صفائه، ومن أجل ذلك تجرّعوا أشد المرارات ولاقوا أنواع الاضطهاد والتعذيب، بل تحمّلوا من الأذى ما لم يتحمّله أحد قبلهم، وهانت عندهم كل المصائب؛ لأجل تحقيق ذلك الهدف العظيم حتى قال أمير المؤمنين عليه السلام وهو يصور بذلك تاريخ المأساة الكبرى: ((**فما راعني إلا إنثيال الناس على فلان يبايعونه فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى مَحْقِ دين محمد صلى الله عليه وآله فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عَلَيَّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٥٨/٧.

متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشَّع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتَنَهْنَهَ))(١) .

ونحن إذا تأملنا قوله عليه السلام: ((**فخشيت إن لم أنصر الإسلام**)) إلى قوله ((**تكون المصيبة عليّ أعظم**)) نعرف مدى الحرص الذي كان يبذله عليه السلام من أجل الحفاظ على رسالة الله تعالى، ومن أجل ذلك بذل جميع الأئمة الأطهار عليهم السلام كل غالٍ ونفيس، وتحمَلوا من البلاء ما لم يخطر على قلب امرئ؛ ولهذا لابد وأن نُبرِز تلك الحقوق التي أوجبها الله تعالى، وأكد عليها أئمة الهدى في كثير من الأحاديث نذكر منها تبركاً:

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ((**الظالم لنفسه من لا يعرف حق الإمام**))(٢)

وعن الإمام الباقر عليه السلام ((**فمن أوفى بذمتهم فقد أوفى بذمة الله، ومن عرف حقهم فقد عرف حق الله، هؤلاء عترة رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن جحد حقهم فقد جحد حق الله، هم ولاة أمر الله، وخزنة وحي الله، وورثة كتاب الله، وهم المصطفون بأمر الله، والأمناء على وحي الله، هؤلاء هم أهل بيت النبوة**))(٣) .

وهذا الحديث أفضل دلالة على أهمية معرفة حقوقهم وبيانها؛ لأنها لم تكن حقوقاً شخصية مرتبطة بشخص معين، وإنما هي حقوق الله تعالى، ولهذا من جحد تلك الحقوق فقد جحد حق الله تعالى ؛ لأنهم ولاة أمر الله تعالى وورثة كتاب الله وخزنة علوم وحي الله تعالى، وأمناء على ما أنزل الله على رسوله وبذلك أصبح العارف بحقهم عارفاً بحق الله تعالى شريطة أن يقتدي بهم في أفعالهم وأقوالهم

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: كتاب: ٦٢.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢١٣/٢٣.

(٣) المصدر نفسه: ٢٤٥.

إقتداءاً واعياً، أي حاملاً لرسالتهم مهتدياً بهداهم، موالياً لأوليائهم، معادياً لأعـدائهم. ورد في الخبر((أن سلمان سأل رسول الله ﷺ قائلاً : يا رسول الله بأبي أنت وأمـي ما لمن عرف هؤلاء؟ فقال ﷺ: **يا سلمان من عرفهم حق معرفتهم، واقتدى بهم، فوالى وليهم، وتبّرأ من عدوّهم، فهو والله منا، يرد حيث نـرد، ويسـكن حيـث نسكن**))[1] فما هي تلك الحقوق؟ .

ونحن نذكر بعض حقوقهم الواجبة منها:

معرفتهم: وهي واجبة على كل إنسان؛ لأن من لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، كما دلت نصوص أخرى أنه ((**لا يكـون العبـد مؤمنـاً حتـى يعـرف الله ورسوله والأئمة كلهم، وإمام زمانه، ويرد إليه، ويسلم له، ثم قال:كيـف يعـرف الآخر، وهو يجهل الأوّل**))[2] .

وفي حديث آخر عن زرارة قال: ((قلت لأبي جعفر عليه السلام: أخبرني عن معرفـة الإمام منكم واجبة على جميع الخلق؟ فقـال عليه السلام: **إن الله عز وجلّ بعـث محمـداً ﷺ إلى الناس أجمعين رسولاً وحجة لله على جميع خلقه في أرضه، فمن آمن بالله وبمحمد رسول الله، واتبعه، وصدقه، فإن معرفة الإمام منّا واجبة عليه، ومن لم يؤمن بالله ورسوله، ولم يتبعه، ولم يصدّقه، ويعرف حقهمـا فكيـف يجـب عليه معرفة الإمام وهو لا يؤمن بالله ورسوله ويعرف حقهما؟**))[3] .

ومن هذا الحديث يتبيّن لنا التلازم بين معرفة الله، ورسوله ﷺ وبين معرفـة الإمام عليه السلام فمن لا يعرف الله ورسوله لا يمكن أن يعرف الأئمة الأطهار؛ لأن معرفة

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٦/٢٥.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ١٨٠/١.

(٣) المصدر نفسه.

الأئمة عليهم السلام هي فرع معرفة الله ورسوله ((والإيمان بها لثبوت ذلك من قولهما وانتفاء الأصل انتفاء الفرع، فالواجب عليه معرفة الأصل، والإيمان به فإذا تحقق ذلك وجب عليه معرفة الفرع))[١] .

إذا اتضح وجوب معرفة الأئمة الأطهار عليهم السلام فلابد أن نحدد مفهوم المعرفة لهم . هل هي معرفة أشخاصهم بما فيها من خصال وصفات نفسية، أو بدنية، وما تحويه من أسرار؟ أم الواجب معرفة شخصياتهم؟ وبعبارة أخرى: هل الواجب معرفة الجوانب الذاتية المتعلقة بشخص الإمام والتي لا تعلق لها بالرسالة؟ مثلاً اسمه، واسم أبيه وأمه ونسبه ونقش خاتمه، ولون بشرته، وعدد أفراسه وأمثال ذلك الذي قد يعد أمراً ذاتياً كما ركَّزَت بعض المؤلفات القديمة على ذلك في وصف الجوانب الشخصية للنبي أو الإمام، وبالغ بعضهم في التعمق في ذلك فراح يفتش عن أسرار وألغاز ما نطق بها قرآن ، ولا سنة ولا تَعود على الإسلام بطائل، حتى جر بعضهم إلى الغلو فيهم عليهم السلام هل هذا هو الواجب من المعرفة؟ أم الواجب هو معرفة سيرتهم العملية، وسنتهم التي كانوا يسلكونها، وصفاتهم الفكرية،والأخلاقية، والعاطفية، والسلوكية التي تمثل التطبيق العملي لرسالة الله تعالى، وإبرازها كواقع حيّ متحرك متمثلاً في أقوالهم، وأفعالهم، وكمالاتهم الأخلاقية، وما ارتضوه من أفعال شيعتهم، ومحبيهم ومواليهم؟ .

والحقيقة إذا أردنا أن نعرف الصحيح، والنافع، والمؤثر في الحياة العملية والفكرية لابد أن نرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ونتأمل كيف يتحدث القران عن شخصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وكيف طرح مسيرة الأنبياء من زمن آدم إلى زمن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله؟ ما هي الجوانب التي تَحَدث عنها القرآن الكريم في

---

(١) المولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي: ١٥٩/٥.

شخصيات الرسل أو الأنبياء؟ وكيف تحدث الأئمة الأطهار عنه عليهم السلام ؟ .

فلنرجع إلى ذلك المَعِين الصافي، ولنتأمل ونتدبر فيه، ولنجعله الحَكَم الحاكم في حياتنا وجميع طروحاتنا...

((هكذا تحدث القرآن الكريم عن الأنبياء والمرسلين عليهم السلام))

لقد أعطى القرآن الكريم صورة متكاملة عن عباد الله الصالحين من الأنبياء والمرسلين ، والشهداء ، والصديقين، وذكر ما يتميزون به عن بقية البشر من العلم والمعرفة، وصِدق العبودية، وجميع الصفات الأخلاقية العالية، وما عانوه في سبيل هداية البشرية. وأوجز صفاتهم بأنهم رسل الله، وحملة رسالته، وهداة خلقه، وصفوة عباده، واكرم بريته، وخلفاؤه في أرضه... ولنذكر الآن بعض الأمور التي أشار إليها القرآن الكريم:

١- أكد على بشريّة الرسول عليه السلام فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾(١).

قال العلامة الطباطبائي قدس سره: ((القصر الأول قَصرَهُ عليه السلام في البشرية المماثلة لبشريّة الناس، لا يزيد عليهم بشيء، ولا يدعيه لنفسه قبال ما كانوا يزعمون أنه إذا ادعى النبوة فقد ادعى كينونَة إلهية، وقدرة غيبية؛ ولذا كانوا يقترحون عليه بما لا يعلمه إلا الله، ولا يقدر عليه إلا الله، لكنه عليه السلام نفى ذلك كله بأمر الله عن نفسه ولم يثبت لنفسه إلا أنه يُوحى إليه))(٢) .

نعم إنها البشرية لكنها البشرية الكاملة بأعلى درجات الكمال التي لا يمكن

---

(١) الكهف : ١١٠.

(٢) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٤٠٥/١٣.

أن يصلها الإنسان إلا من اختاره الله لحمل رسالته؛ ولذا بَلَغَ الرسول الأكرم الذروة التي لا يمكن لبشر أن يبلغها لا من قبله، ولا من بعده، ورغم ذلك فهو ((بشر يتلقى من ذلك الأفق الأسمى، بشر يستمد من ذلك المَعين الذي لا ينضب بشر لا يتجاوز الهدى الذي يتلقاه من مولاه. بشر يتعلّم فيَعلَم فيُعَلِّم... فمن كان يتطلّع إلى القرب من ذلك الجوار الأسنى، فلينتفع بما يتعلم من الرسول الذي يتلقى، وليأخذ بالوسيلة التي لا وسيلة سواها))[(١)].

إذن هذا النبي الأعظم وجميع الأنبياء لا يتميزون عن باقي البشر إلا بالوحي وبالكمالات التي منحهم الله إياها في الجوانب النفسية، والبدنية، والعقلية، وما حباهم به من معجزات، وكرامات، وفضائل فكرية، ونفسية، وأخلاقية، وأمور غيبية يوحيها لهم كما إنهم يمارسون نفس ما يمارس بقية البشر من الأكل ،والشرب والنوم ، والزواج والنسل، ويجري عليهم ما يجري على بقية البشر من الحياة والموت، والمرض ، والشفاء، والفقر ، والغنى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾[(٢)] رداً على اعتراضات المشركين الذين قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[(٣)].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[(٤)].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٤١٩/٥.

(٢) الفرقان: ٢٠.

(٣) الفرقان: ٧.

(٤) الأنبياء: ٧.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[(١)].

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾[(٢)].

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[(٣)].

وبناء على كون الرسول عليه السلام بشراً رفض اقتراح الذين قالوا: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[(٤)].

لقد رد اقتراحاتهم؛ لأنها خارجة عن قدرات البشر، وبعضها محال بالذات كالإتيان بالله والملائكة،يقول العلامة الطباطبائي قدس سره: ((فإن أرادوا منه ذلك بما أنه بشر فأين البشر من هذه القدرة المطلقة غير المتناهية المحيطة حتى بالمحال الذاتي، وإن أرادوا منه ذلك بما أنه يدعي الرسالة فالرسالة لا تقتضي إلا حمل ما حمَلَه الله من أمره وبعثه؛ لتبليغه بالإنذار والتبشير، لا تفويض القدرة الغيبية إليه وإقداره أن يخلق كل ما يريد ويوجد كل ما شاؤوا، وهو عليه السلام لا يدعي لنفسه ذلك فاقتراحهم ما اقترحوه مع ظهور الأمر من عجيب الاقتراح. ولذلك أمره عليه السلام أن

---

(١) الرعد: ٣٨.

(٢) التوبة: ١٢٨.

(٣) الزمر: ٣٠.

(٤) الإسراء: ٩٠-٩٣.

يبادر في جوابهم:

أولاً: إلى تنزيه ربه مما يلوح إليهم اقتراحهم هذا من المجازفة وتفويض القدرة إلى النبي صلى الله عليه وآله ولا يبعد أن يستفاد منه التعجب فالمقام صالح لذلك.

وثانياً: إلى الجواب بقوله في صورة الاستفهام: ﴿**هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً**﴾ وهو يؤيد كون قوله: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّي**﴾ واقعاً موقع التعجب أي إن كنتم اقترحتم عليَّ هذه الأمور وطلبتموها مني بما أنا محمد فإنما أنا بشر، ولا قدرة للبشر على شيء من هذه الأمور، وإن كنتم اقترحتموها؛ لأني رسول أدعي الرسالة فلا شأن للرسول إلا حمل الرسالة، وتبليغها لا تقلد القدرة الغيبية المطلقة ...))(١) .

كل تلك الآيات المتقدمة تؤكد على بشرية الرسل والأنبياء؛ لئلا يكون هناك تصور أن المُرْسَل يجب أن يكون من خارج جنس البشر هذا **أولاً**.

وثانياً: لئلا يخرج الرسول من بشريته ويرفعه إلى مستوى الربوبية؛ ولهذا لم يكشف القرآن الكريم من شخصيات الرسل والأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام مما هو فوق تصور البشر، ومما لا ينتفع به عموم الناس مما هو فوق العقول العادية، إلا المعجزات التي كانت تأتي لضرورات أساسية تدفع فيه الوهم والجهل والكفر وتبطل الباطل، وتثبت للناس تغلب الإرادة الإلهية.

٢- كما تحدث القرآن الكريم عن صفات الأنبياء النفسية والأخلاقية كالصدق،والإخلاص، والصبر، والصلاح، والوعي، والعبودية، وأكد عليها بصريح العبارة ؛ وذلك للتأكيد على التأسي بهم، والاتصاف بتلك الصفات كما في قوله تعالى: ﴿ **وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ**

---

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢٠٣/١٣.

بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[(١)].

وفي ذكر أنبياء الله أيوب، إبراهيم، إسماعيل، اليسع، وذي الكفل قال تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ... ۝ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُۥ أَوَّابٌ ۝ وَاذْكُرْ عِبَٰدَنَا إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَٰرِ ۝ إِنَّا أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۝ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ۝ وَاذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴾[(٢)].

وفي وصف خليل الرحمن قال تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[(٣)].

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[(٤)].

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾[(٥)].

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾[(٦)].

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[(٧)].

٣- وتحدث القرآن كذلك عن مواقف الأنبياء وصلابتهم المبدئية لجعلهم أسوة وقدوة، وأمثلة نموذجية كاملة في أعلى درجات الكمال البشري، وحث

---

(١) مريم: ٥٤-٥٦.

(٢) ص: ٤٣-٤٨.

(٣) هود: ٧٥.

(٤) النساء: ١٢٥.

(٥) التوبة: ١١٤.

(٦) النحل: ١٢٠.

(٧) مريم: ٤١.

الناس على الاقتداء بهم، والتأسي بهم، والسير على هداهم، وانتهاج مناهجهم كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[١].

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٢].

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[٣].

وقد أكد القرآن الكريم أن الأنبياء والمرسلين كلهم أسوة وقدوة، وأمر رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله) مع أنه أعظمهم وأكملهم وسيدهم أن يحذو حذوهم ويقتدي بهداهم. يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾[٤].

---

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) الممتحنة: ٦.

(٣) الأحزاب: ٢١.

(٤) الأنعام: ٨٣-٩٠.

هكذا قص علينا القرآن الكريم سيرة الأنبياء، وبيَّن مميزاتهم المهمة وهي: الكتاب، والحكم، والنبوة، وأمر بوجوب أخذها بقوة، وصدق، وإخلاص... وبهذا تميزوا عن غيرهم من البشر، وتحملوا من أجلها أشد أنواع العذاب والاضطهاد، من القتل والسجن والتشريد، ولهذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وهو سيدهم وخاتمهم أن يقتدي بهم، وأن يهتدي بهداهم.

إذن الغرض من ذكر قصص الأنبياء، والحديث عنهم في جميع شؤونهم هو التأسي، والاقتداء، والسير على هداهم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

بل ما ذكره القرآن الكريم من قصص لصالح ولا طالح إلا للعبرة ولإثارة كوامن الفكر، يقول تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

٤ - وتحدث القرآن الكريم عن الصفات العملية للرسل والأنبياء، ومن خلال ذلك أوضح البرامج والتعليمات البناءة، وفي منتهى الدقة والإبداع كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾(٣).

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾(٤).

---

(١) يوسف: ١١١.

(٢) الأعراف: ١٧٦.

(٣) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

(٤) النساء: ٤١.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(١).

فترى كيف أوضحت الآيات الكريمة وظيفة الرسول صلى الله عليه وآله فهو شاهد عليهم شهادة لا تقبل التزوير والتحريف والتبديل، وهو مبشر للعالمين برحمة الله وغفرانه، وما ينتظرهم من تكريم وإعزاز في جنة عرضها السماوات والأرض وهو نذير للغافلين عن سر وجودهم، وعلة إيجادهم، وهو داعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ ليقودهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة ، ويزيل الظلمات، وينير السبل إلى الله تبارك وتعالى.

إذن رسل الله صلوات الله عليهم هم هداة دعاة، يرشدون الناس إلى سبيل الرشاد والنجاة بتعبيد الخلق إليه سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(٢).

٥ – كما ذكر القرآن الكريم ما حل بأعداء الأنبياء والمرسلين من هلاك وإبادة بعد أن استنفذ الأنبياء كل جهدهم لهدايتهم فلم يسمعوا ولم يطيعوا كقوم نوح وهود، وصالح، ولوط، وما حل بفرعون، ونمرود، وقارون.... وغيرهم وكل ذلك لأجل أن نعتبر ونتفكر في سنن الله في التاريخ؛ ولهذا حث الكتاب الكريم على التفكر والتأمل في عواقب المكذبين لحركة الأنبياء، وعاقبة المفسدين والمجرمين الذين أساؤا السوأى يقول تعالى:

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٣).

---

(١) النساء: ٧٩.

(٢) الأنبياء: ٧٣.

(٣) آل عمران: ١٣٧.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[2].

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[4].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾[5].

وهكذا كثير من الآيات الكريمة تحث على التفكير في مصير وعاقبة الذين عارضوا حركة الأنبياء، وأفسدوا في الأرض، وظلموا عباد الله، وأجرموا بكل أنواع الإجرام، وكيف حلت بهم الكوارث فأهلكهم الله بذنوبهم، إنه سميع بصير قادر عليم جلت قدرته.

٦- وتحدث القرآن عن معجزات الأنبياء التي أجراها تعالى على أيدي عباده من الرسل والأنبياء كفلق البحر لموسى، وإغراق قوم فرعون، وتسخير الرياح لسليمان عليه السلام وجعل النار على إبراهيم عليه السلام برداً وسلاماً... الخ. كل ذلك ليثبت للناس أن هؤلاء العباد جاءوا برسالاتهم من عند الله، وإن الله قادر على كل شيء.

هذا إجمال استطرادي سريع لبعض ما تحدث عنه القرآن الكريم عن مسيرة الأنبياء في الحياة، ومن خلال ذلك اتضح لنا الأسلوب الأمثل الذي يجب أن نسلكه في الحديث عن الرسل والأنبياء وأئمة الهدى عليهم السلام لنطرح الرسالة قوية

---

(١) الأنعام: ١١.

(٢) الأعراف: ٨٤ .

(٣) الأعراف: ١٠٣.

(٤) القصص: ٤٠.

(٥) الغافر: ٢١.

متحركة نابضة بالحيوية والقوة من خلال سيرة حَمَلَتِها الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً...

((وهكذا تحدث أئمة الهدى عليهم السلام))

وأما ما طرحه أئمة الهدى عليهم السلام في أحاديثهم عن شخصية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وما تحدث به بعضهم عن البعض الآخر فهو لا يختلف عن المنهج القرآني في الطرح والتعريف بشخصيات الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

ولنتأمل فيما تحدث به أمير المؤمنين عليه السلام وهو أعرف الناس برسول الله صلى الله عليه وآله قال عليه السلام: **((واصطفى سبحانه من ولده (آدم عليه السلام) أنبياء أخذ على الوحيّ ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيٍّ نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبّليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدرة...إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله لإنجاز عدته، وإتمام نبوته مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده. وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة وأهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشيرٍ إلى غيره فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله لقاءه، ورضي له ما عنده، وأكرمه عن دار الدنيا ورغب به عن مقام البلوى، فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه وآله وخلّفَ فيكم ما خلّفَت الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هملاً، بغير طريق واضح، ولا عَلَم قائم))**[1] .

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١.

ونحن إذا أمعنا النظر في هذا النص الشريف نجد أن علياً عليه السلام ركّز في تعريف الأنبياء على شخصياتهم لا على أشخاصهم... أي أبرز الجانب الرسالي في حياتهم فهم: أمناء وحي الله تعالى، وحملة عهده، ومبلغي رسالته إلى خلقه ليعيدوهم إلى سلامة الفطرة، وينفضوا عنهم غبار الغفلة، ويوقظوا عقولهم، ويحركوا مَلكة التفكير فيهم ؛ ليروهم آيات الله في خلقه ؛ ويذكروهم نعم الله التي نسوها بعصيانهم.

وعندما تحدث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ذكر الجانبين في شخصيته فذكر مولده الكريم، وشخصيته الرسالية في إتمام حركة الأنبياء عليهم السلام على يده الشريفة.

وفي نص آخر قال عليه السلام: ((**وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع. إزاحة للشبهات، واحتجاجاً بالبيّنات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمثلات**))[١].

وهذا النص أيضاً يؤكد ما قلناه أن منهج أهل البيت عليهم السلام هو إبراز المعالم الرسالية لا الشخصية الذاتية وهي: الدين، والعلم،والإيمان، والكتاب، والنور... الخ، وفي نص ثالث قال عليه السلام: ((**حتّى بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله شهيداً، وبشيراً، ونذيراً خير البريّة طفلاً، وأنجبها كهلاً، وأطهر المطهرين شيمة، وأجود المستمطرين ديمة**))[٢].

وهنا ابرز معالم شخصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بتحديد صفاته منذ مولده وهي لا تخرج عن الإطار الرسالي.

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ٢.

(٢) المصدر نفسه: خطبة: ١٠٥.

وفي نص رابع: ((**فبعث محمداً (صلى الله عليه وآله) بالحق؛ ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته بقرآن قد بينه وأحكمه، ليَعْلَمَ العبادُ ربهم إذ جهلوه، وليقروا به إذ جحدوه، وليثبتوه إذ أنكروه**))(١).

وهنا أوضحَ وظائف النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) وهي إخراج الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الله، ومن طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن.

وكما تحدث (عليه السلام) عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) تحدث كذلك عن الأئمة الهداة (عليهم السلام) فقال: ((**إنما الأئمة قُوام الله على خلقه، وعرفاؤه على عباده، ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه**))(٢).

وقال (عليه السلام) في وصف آل محمّد صلوات عليهم: ((**هم موضع سره، ولجأ أمره وعيبة علمه، وموئل حكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه**))(٣).

وقال (عليه السلام): ((**هم أساس الدين، وعماد اليقين. إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة. الآن رجع الحق إلى أهله، ونقل إلى منتقله**))(٤).

وقال (عليه السلام): ((**هم عيش العلم، وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حِكَم منطقهم، لا يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام. بهم عاد الحق إلى نصابه**

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١٤٧.

(٢) المصدر نفسه، خطبة: ١٥٢.

(٣) المصدر نفسه، خطبة: ٢.

(٤) المصدر نفسه.

وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية. فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل))(١).

بهذا البيان الواضح البليغ عرّف أهل البيت عليهم السلام، وحدد وظائفهم، وأبرز منزلتهم، وجسد معالم الحق من خلال إبراز صفاتهم ذلك هو نفس المنهج الذي أوضح الله به صفات أنبيائه وأوليائه في القرآن الكريم.

هذا هو المنهج السليم في معرفة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، فخير التعريف بهم ما هم عَرّفوا به أنفسهم، ونحن لا نستطيع معرفتهم إلا بما هم عَرّفونا به؛ لذلك ينبغي أن نظهر من فضائلهم، وكراماتهم، ومقاماتهم ما أظهروه ونسكت عما سكتوا عنه، ولا شك أنهم لم يسكتوا عن شيء تحتاجه الأمة لفهم الإسلام، ولندقق فيما نسب إليهم من خوارق، فإن الغلاة قد وضعوا كثيراً من الأكاذيب، وقد كانوا عليهم السلام يحذّرون من الوضاعين، ويعلنون البراءة منهم، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ((**إنا أهل بيت صادقون لا نخلوا من كذاب يكذّب علينا، فيسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس، كان رسول الله أصدق البرية لهجة، وكان مسيلمة يكذّب عليه**))(٢).

وقد كانوا عليهم السلام يُحَذِرون من الكذب على الله ورسوله، ويوضحون عواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**الكذب على الله عز وجلّ وعلى رسوله، وعلى الأوصياء عليهم الصلاة والسلام من الكبائر**))، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**من قال عليَّ ما لم أقله فليتبوأ مقعده من النار**))(٣).

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ٢٣٩.

(٢) الشيخ الطوسي، اختيار معرفة الرجال: ٥٩٣/٢.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١١٧/٢.

وقال الإمام الرضا عليه السلام: ((**والله ما أحد يكـذب علينـا إلا ويذيقـه الله حـر الحديد**))(١) .

وروى العياشي بإسناده عن خيثمة، قال: ((سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقـول: **من حدث عنا بحديث فنحن مسائلوه عنه يوماً، فإن صدق علينا فإنما يصدق على الله وعلى رسوله، وإن كذب علينا فإنما يكذب على الله، وعلى رسوله لأنّـا إذا حدّثنا لا نقول قال فلان، وقال فلان، إنما نقول:قال الله، وقال رسوله** ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾(٢) ثم أشار خيثمة إلى أذنيه فقال: صمتا إن لم اكن سمعته))(٣).

ورغم هذا التأكيد والتشدد في وجوب الدقة فـي الروايـة عـنهم، والحيطـة والحذر من الوقوع في شباك الوضاعين، كانوا يلعنون من يكذب عليهم، بل يلعنون من يتأثم من لعنهم.

قال الصادق عليه السلام: ((**رحم الله جابراً كان يصدق علينا، ولعن الله المغيرة (بن سعيد) فإنه كان يكذب علينا**))(٤) .

وعن علي بن مهزيار قال: (سمعت الإمام الباقر عليه السلام يقول، وقـد ذكـر عنـده أبو الخطـاب: **لعن الله أبا الخطاب، ولعن أصحابه، ولعن الشاكّين في لعنه، ولعن من وقف في ذلك، وشكّ فيه.** ثم قال: **هذا أبو الغمر، وجعفر بن واقد، وهاشـم بن أبي هاشم استأكلوا بنا الناس فصاروا دعاة يدعون الناس إلى ما دعـا إليـه**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١١٧/٢.

(٢) الزمر: ٦٠.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٦٠/٧.

(٤) المصدر نفسه: ٦٢/٢٥.

أبو الخطاب لعنه الله، ولعنهم معه، ولعن من قَبِل ذلك منهم، يا علي لا تتحرجن من لَعْنِهم لَعَنَهُم الله، فإن الله قد لعنهم، ثم قال: **قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من يأجم**[(١)] **أن يلعن من لعنه الله فعليه لعنة الله**))[(٢)] .

وعن المفضل بن مزيد قال: ((قال أبو عبد الله عليه السلام وذكر أصحاب أبي الخطاب والغلاة، فقال لي: **يا مفضل لا تقاعدوهم، ولا تؤاكلوهم، ولا تشاربوهم ولا تصافحوهم، ولا تؤاثروهم**))[(٣)] .

ونحن حين نتأمل في لهجة الأحاديث المتقدمة وما فيها من تحرق وتخوف على دين الله من هؤلاء نستوحي خطورة الكذّابين على أئمة الهدى عليهم السلام لما يستبطن الكذب عليهم من خطر على دين الله هذا الخطر يتجلى في تحريف عقيدة التوحيد وليس هناك من خطر أكبر من ذلك؛ ولهذا نرى تلك اللهجة الحارّة التي تنم عن مدى ما يحسون به من أذيّة في أنفسهم من هؤلاء الغلاة ومخالفي نهج أهل البيت عليهم السلام الذين عمدوا إلى تشويه منهجهم القويم بوضع الأخبار المفتعلة عليهم، فقد روى الصدوق في العيون: أن إبراهيم بن أبي محمود قال للرضا عليه السلام: ((يا بن رسول الله إنّ عندنا أخباراً في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام وفضلكم أهل البيت، وهي من رواية مخالفيكم، ولا نعرف مثلها عندكم أفندين بها؟ فقال عليه السلام: **يا ابن أبي محمود إنّ مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا، وجعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها الغلو، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا. فإذا سمع الناس الغلوّ فينا كفّروا شيعتنا، ونسبوهم إلى**

---

(١) في المصدر: من تأثم، وفي تنقيح المقال: من تأخم.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣١٩/٢٥.

(٣) الشيخ الطوسي، اختيار معرفة الرجال: ٥٨٦/٢.

القول بربوبيّتنا ، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله عز وجلّ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾- لى أن قال:- يا ابن أبي محمود أحفظ ما حدثتك به فقد جمعت لك فيه خير الدنيا والآخرة))(١) .

وقد أعطى أئمة الهدى عليهم السلام ميزاناً لتمييز ما يروى عنهم عما وضع عليهم فقد عرضت كتب كثيرة من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام على الرضا عليه السلام فأنكر منها أحاديث كثيرة أن تكون من الصادق عليه السلام وقال: ((**إنّ أصحاب أبي الخطاب يدسّون إلى يومنا في كتب أصحاب الصادق عليه السلام فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن فإنا إذا تحدَّثنا حدَّثنا بموافقة القرآن، وموافقة السنّة . إنا عن الله، وعن رسول الله نحدِّث، ولا نقول: (قال فلان، وقال فلان) فيتناقض كلامنا. إنّ كلام آخرنا مثل كلام أوَّلنا، وكلام أوّلنا مصدّق لكلام آخرنا، وإذا أتاكم من يحدّثكم بخلاف ذلك فردوه عليه، وقولوا: أنت أعلم، وما جئت به، فإن مع كل قول منّا حقيقة ، وعليه نور فما لا حقيقة له، ولا نور عليه فذلك قول الشيطان))**(٢) .

وبناءً على هذا الميزان ينبغي أن نعرض كل ما نقرؤه أو نسمعه على كتاب الله، وسنة رسوله المروية بطرق صحيحة؛ لئلا نقع في مخالفة نهجهم القويم

---

(١) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا: ٢٧٢/٢، ومحمد بن جرير الطبري في دلائل الإمامة: ٢٤، والمحدث المجلسي في بحار الأنوار: ٢٣٩/٢٦، و العلامة محمد تقي التستري في الأخبار الدخيلة: ٢١٦/١.

(٢) الطوسي، أختيار معرفة الرجال: ٤٩٠/٢، ومعجم رجال الحديث للسيد الخوئي: ٣٠٠/١٩، وجامع أحاديث الشيعة للسيد البروجوردي: ٢٦٣/١، الرسائل الفقهية للبهبهاني: ٢٠٣، والحدائق الناضرة للمحقق البحراني: ١٠/١.

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وحقاً ما قاله الشاعر:

إذا شئت أن نرضى لنفسك مذهباً ... وتعرف صدق الناس في نقل أخبار
فدع عنك قول الشافعي ومالك ... واحمد المروى عن كعب الأحبار
ووال أناساً قولهم وحديثهم ... روى جدنا عن جبرئيل عن الباري

وقال بعض العلويين من الشيعة في هذا المعنى:

قل لمن حجنا بقول سوانا ... حيث فيه لم يأتنا بدليل
نحن نروي إذا روينا حديثا ... بعد آيات محكم التنزيل
عن أبينا عن جدنا ذي المعالي ... سيد المرسلين عن جبريل
وكذا جبرئيل يروى عن الله ... بلا شبهة ولا تأويل
فتراه بأي شيء علينا ... ينتمي غيرنا إلى التفضيل(١)

((ماذا يجب أن نعرف عنهم عليهم السلام؟))

بعد أن استعرضنا المنهج القرآني بصورة موجزة في الحديث عن الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وبناءً على هذا المنهج السليم نستطيع أن نحدد ما يجب أن نعرفه من حياة الأئمة الأطهار عليهم السلام لكي نلتزم به، ونحدد ذلك في نقاط:

١- بناءً على أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية يجب على أهل كل عصر أن يعرفوا الإمام الواجب طاعته بعينه دون غيره -كما يجب أن نؤمن بهم جميعاً- لأن لكل زمان إمام(٢) محدد بعينه، ولا يجوز أن يوجد إمام آخر، وإذا

---

(١) الحر العاملي، الجواهر السنية: ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: ((**لكل زمان وأمة إمام تبعث كل أمة مع إمامها**)) المحدث ←

وجد وجب عليه السكوت والطاعة كوجود لوط في عصر إبراهيم (عليهما السلام) وكوجود الحسين في عصر الحسن (عليهما السلام)؛ ولهذا أوصى رسول الله (صلى الله عليه وآله) من بعده لعلي، وأوصى علي بالحسن (عليه السلام) وهكذا نجد لكل إمام نص من الإمام الذي قبله، وقد قال الإمام الرضا (عليه السلام) للبزنطي عندما سأله عن خليفته: ((**أما علمت أن الإمام الفرض عليه والواجب من الله إذا خاف الفوت على نفسه أن يحتجّ في الإمام من بعده بحجة معروفة مبيّنة، إنّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**[(١)] **فطب نفساً (صلى الله عليه وآله) وطيّب بأنفس أصحابك فإن الأمر يجئ على غير ما يحذرون إن شاء الله**))[(٢)].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام): ((**لا يموت الرجل منا حتى يُعَرِّف وليه**))[(٣)].

وعنه (عليه السلام): ((**إن الأمام يُعَرِّف الإمام الذي من بعده فيوصي إليه**))[(٤)].

وهذا العهد الذي يُدلي به كل إمام لتعين الذي من بعده لم يكن أمراً هو يرتئيه بنفسه فيختار من يشاء، وإنما هو عهد عَهَدَه اللهُ إلى رسوله، وَعَهَدَه الرسولُ إلى الأئمة من بعده، وفي ذلك وردت نصوص متظافرة، بل متواترة فعن عمر بن أبان عن أبي بصير، قال: ((كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فذكروا الأوصياء ، وذكرت

←

المجلسي، بحار الأنوار: ٣٠٨/٧.

(١) التوبة: ١١٥.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٣ /٦٧.

(٣) المصدر نفسه: ٧٣/٣.

(٤) المصدر نفسه: ٧٣/٣.

إسماعيل ، فقال: **لا والله يا أبا محمّد ما ذاك إلينا، وما هو إلا إلى الله عـز وجـلّ ينزل واحداً بعد واحد**))[١] .

وفي حديث آخر عنه (عليه السلام): ((**أترون هذا الأمر نضعه حيث شئنا؟ كـلا والله أنه عهد من رسول الله رجل فرجل حتى ينتهي إلى صاحبه**))[٢] .

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال لبعض أصحابه: ((**أتـرون أن هـذا الأمـر فـي الإمامة إلى الرجل منا يضعه حيث يشاء، والله إنه لعهد من الله نزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى رجال مُسَمَّين رجل فرجل حتى ينتهي إلى صاحبها**))[٣] .

وعلى كل حال يجب على المكلف أن يَعْرِفَ الامام الـذي أَمـره الله تعـالى بالإئتمام به بصورة محددة، ومعينة، وغير مرددة بين أشخاص عدة، فعن سـليم بـن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: ((قلت ما أدنى ما يكون به الرجل ضالاً؟ قـال: **أن لا يعرف من أَمَرَه الله بطاعته، وفرض ولايته، وجعله حجة فـي أرضـه وشاهدَه على خلقه**)) .

وعن عبد الله بن أبي يعفور قال: ((قلت لأبـي عبـد الله (عليه السلام): رجـل يتـولاكم ويبرأ من عدوكم، ويحلل حلالكم، ويحرم حـرامكم، ويـزعم أن الأمـر فـيكم لـم يخرج منكم إلى غيركم إلا أنه يقول: إنهم قد اختلفوا فيما بينهم، وهم الأئمة القادة وإذا اجتمعوا على رجل فقالوا: هذا، قلنا: هذا، فقال (عليه السلام): **إن مات على هـذا فقـد مات ميتة جاهلية**))[٤] .

وعن سماعة بن مهران قال: ((قلت لأبـي عبـد الله (عليه السلام): رجـل يتـولى علياً،

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢٧٧/١.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧٩/١.

(٣) محمد بن ابراهيم النعماني، كتاب الغيبة: ٥٩.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٩/٢٣.

ويتبرأ من عدوه، ويقول: كل شيء يقول إلا أنه يقول: قد اختلفوا فيما بينهم، وهم الأئمة القادة، فلست أدري أيهم الإمام، وإذا اجتمعوا على رجل أَخذتُ بقوله ، وقد عرفت أن الأمر فيهم، قال عليه السلام: **إن مات هذا على ذلك مات ميتة جاهلية**))[١] .

وعن أبان بن تغلب قال: ((قلت لأبي عبد الله عليه السلام: من عرف الأئمة، ولم يعرف الإمام الذي في زمانه أمؤمن؟ قال: **لا**، قلت: أمسلم هو؟ قال: **نعم**))[٢] .

وبهذا يتبين جلياً أن الواجب على المكلف أن يعرف إمام زمانه بعينه محدداً مشخصاً غير مردد بين عدة أشخاص، ورد في الحديث الشريف: ((**إنه لا يكون العبد مؤمناً حتى يعرف الله، ورسوله، والأئمة كلهم، وإمام زمانه، ويردَّ إليه، ويسلم له ثم قال:كيف يعرف الآخر وهو يجهل الأول**))[٣] .

٢- أن يعرف معرفة يقينية، ويؤمن إيماناً قطعياً أن دين الله الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله من عند الله هو المتمثل في قولهم وفعلهم وتقريرهم عليهم السلام، وأن الهدى والحق منحصر بهم دون غيرهم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: ((**ثلاث أقسم أنهن حق: إنك والأوصياء من بعدك عرفاء**[٤] **لا يُعرف الله إلا بسبيل معرفتكم وعرفاء لا يدخل الجنة إلا من عرفكم وعرفتموه، وعرفاء لا يدخل النار إلا من أنكركم وأنكرتموه**))[٥] .

وعن أبي عبد الله عليه السلام في خطبة له يذكر فيها حال الأئمة عليهم السلام وصفاتهم:

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٩/٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ٩٦/٢٣.

(٣) ثقة الإسلام الكليني: الأصول من الكافي: ١٨٠/١.

(٤) العرفاء جمع عريف وهو القيم بأمور القبيلة، أو الجماعة من الناس يلي أمورهم، ويتعرف الأمير منه أحوالهم.

(٥) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٩٩/٢٣.

((إن الله عز وجلّ أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبيّنا دينه، وأبلج بهم عن سبيل منهاجه، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه، فمن عرف من أمة محمد ﷺ واجبَ حق إمامه، وجد طعم حلاوة إيمانه، وعلم فضل طلاوة إسلامه؛ لان الله تبارك وتعالى نصب الإمام عَلما لخلقه، وجعله حجة على أهل موادّه[1] وعلمه))[2] .

وعن أبي عبد الله عليه السلام: **((إنه من أتى البيوت من أبوابها اهتدى، ومن أخذ في غيرها سلك طريق الرّدى، وصل الله طاعة وليٍّ أمره بطاعة رسوله، وطاعة رسوله بطاعته، فمن ترك طاعة ولاة الأمر[3] لم يطع الله ولا رسوله..))**[4] .

وبهذا يتضح أن الواجب على المكلف أن يعرف أن سبيل الرشاد والهدى منحصر بهم دون غيرهم - فهم باب علم رسول الله ﷺ - معرفة يقينية لا يخالطها ريب أو شك في معرفتهم صلوات الله عليهم، وبذلك يكون المؤمن على بيّنة من أمره فلا يرى الحق في غير سبيلهم.

٣- وأن يعرف أن الله قد فرض طاعتهم، وأنها طاعة لله ولرسوله، وكل طاعة غير ذلك ضلال، فعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: **((نحن الذين فرض الله طاعتنا لا يسع الناس إلا معرفتنا، ولا يعذر الناس بجهالتنا، من عرفنا كان مؤمناً ومن أنكرنا كان كافراً، ومن لم يعرفنا، ولم ينكرنا كان ضالاً حتى يرجع إلى الهدى**

---

(١) أهل مواده: أهل الزيادة المتصلة وتكميلاته المتواتره الغير منقطعة.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢٠٣/١.

(٣) المقصود بولاة الأمر الأئمة الإثنا عشر عليهم السلام.

(٤) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ١٨٢/١.

الذي افترض الله عليه من طاعتنا الواجبة، فإن يمت على ضلالته يفعل الله به ما يشاء))(١).

وفي حديث آخر عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**ذروة الأمر، وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء، ورضا الرحمن تبارك وتعالى: الطاعة للإمام بعد معرفته، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾**(٢)))(٣).

والطاعة هي التصديق بأن أوامرهم وأحكامهم أوامر الله وأحكامه والتسليم المطلق لها، والامتثال والتطبيق لها بلا تخلف شيء. وقد أكدوا صلوات الله عليهم بأن من أطاع الله ورسوله فهو وليهم، ومن عصى الله ورسوله فهو عدوهم كائناً من كان، والطاعة أفضل ما يتقرب به العباد إلى الله عز وجل؛ ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: ((**إن ولي محمد من أطاع الله، وإن بعدت لُحْمَتُه، وإن عدو محمد من عصى الله، وإن قربت قرابته))**(٤).

وطاعة الإمام حق من حقوقه على الرعية كما أن الرعية لها حق على إمامها يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**أيها الناس إن لي عليكم حقاً، ولكم عليَّ حق، فأما حقكم عليَّ فالنصيحة لكم، وتوفير فَيْئِكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا، وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد**

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ١٨٧.

(٢) النساء: ٨٠.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ١٨٥.

(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة الكلمات القصار: ٩٦، و المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٦٧ /٢٥.

والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم))[١] .

وواضح أن الوفاء، والنصيحة، والإجابة، والطاعة كلها تصب في مصب واحد، وهو امتثال أمر الإمام، وتطبيق أحكامه، وفي حديث آخر عن أبي حمزة قال: ((سألت أبا جعفر عليه السلام : ما حق الإمام على الناس؟ قال: **حقه عليهم أن يسمعوا له، ويطيعوا قلت: فما حقهم عليه؟** قال: **يقسم بينهم بالسوية، ويعدل في الرعية فإن كان ذلك في الناس فلا يبالي من أخذ هاهنا وهاهنا))**[٢] .

وخلاصة الكلام: كما قال الشيخ المظفر: ((بل نعتقد أن أمرهم أمر الله تعالى ونهيهم نهيه،وطاعتهم طاعته،ومعصيتهم معصيته، ووليهم وليه وعدوهم عدوه))[٣] لأنهم لا ينطقون إلا عن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

((الطاعة شرط الإئتمام))

إن مما لا شك فيه أن من ائتم بإمام وجبت عليه طاعته، وبدون الطاعة لا يتحقق الإئتمام أبداً، وهذا على حد سواء عند أئمة الإيمان، وعند أئمة الكفر فكل من ادعى الإئتمام بأحد ولم يطعه رفض من كل أحد... وقد أكد أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام على ذلك في كثير من أحاديثهم، فعن القاسم شريك المفضل وكان رجل صدق قال: ((سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **حَلَقٌ في المسجد يشهرونا ويشهرون أنفسهم أولئك ليسوا منا، ولا نحن منهم، أَنْطَلِقُ فأواري**

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة خطبة: ٣٤.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٤٤/٢٧.

(٣) الشيخ محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية: ٧٠.

(فأداري) وأستر فيهتكون ستري هتك الله ستورهم يقولون إمام، أما والله ما أنا بإمام إلا لمن أطاعني، فأما من عصاني فلست له بإمام، لِمَ يتعلقون باسمي إلا يكفون اسمي من أفواههم، فوالله لا يجمعني الله وإياهم في دار))[1] .

وعن ابن مِسكان قال: عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **((قوم يزعمون أني إمامهم والله ما أنا لهم بإمام، لعنهم الله كلما سترت ستراً هتكوه، أقول: كذا وكذا فيقولون:إنما يعني كذا وكذا، إنما أنا إمام من أطاعني))**[2] .

ومعنى ذلك أن المأموم يجب أن يقتفي أثر إمامه، يتأسى به بالعمل لا بالقول والادعاء، وإلا سيكون الإئتمام ادعاءاً فارغاً لا قيمة له، يقول الإمام الصادق (عليه السلام): **((وإنما ينبغي لكم أن تصنعوا مثل ما يصنع من تأتمونَ به))**[3] وعنه (عليه السلام) عن أبيه الباقر (عليه السلام) أنه قال: **((... فأعينونا بورع واجتهاد، ومن يأتم منكم بإمام فليعمل بعمله))**[4] . وعن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **((لا تذهب بكم المذاهب فوالله ما شيعتنا إلا من أطاع الله عز وجلّ))**[5] .

وعنه (عليه السلام): **((والله ما معنا من الله براءة، ولا بيننا وبين الله قرابة، ولا لنا على الله حجة، ولا نتقرب إلى الله إلا بالطاعة، فمن كان منكم مطيعاً لله تنفعه ولايتنا ومن كان منكم عاصياً لله لم تنفعه ولايتنا، ويحكم لا تغترّوا، ويحكم لا تغتروا))**[6] .

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، روضة الكافي: ٣٧٤/٨.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٨٠/٢ .

(٣) المصدر نفسه: ١٦٢/٧٤.

(٤) المصدر نفسه: ٤٤/٦٨.

(٥) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٧٣/٢.

(٦) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٥/٢.

وهكذا يتضح أن الإئتمام بلا طاعة لا قيمة ولا اعتبار له في منطق الإسلام لأنه ادعاء فارغ المحتوى؛ لفقدانه الترتب العملي عليه، والطاعة كما هو معلوم بحكم العقل والشرع هي الأثر العملي للحب والولاء؛ ولهذا قال الإمام الصادق عليه السلام: ((**ما أحب الله عز وجلّ من عصاه**))[١].

إذن من ادعى الإئتمام بأحد، ثم خالفه قولاً أو فعلاً متمرداً على إرادته مخالفاً لأوامره فهو خارج من ولايته، وهذا ما أكده الإمام الباقر عليه السلام حيث يقول: ((**من كان لله مطيعاً فهو لنا وليٌّ، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو؛ وما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع**))[٢].

٤- أن يعرف أن الإمامة منحصرة فيهم دون غيرهم فرض من الله تعالى، وأن كل من ادعى الإمامة -بالمعنى الخاص- غيرهم ضال مضل إلا أن تكون إمامته امتداداً لإمامتهم كامتداد ولاية الفقيه العادل الكفوء الذي يعتبر نائباً عن الإمام المعصوم فالإمامة في عقيدة الشيعة الإمامية محصورة باثني عشر إماماً نص عليهم الرسول ﷺ بأمر من الله تعالى، وهذا ما أكده أئمة الهدى عليهم السلام، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**من ادعى الإمامة، وليس بإمام فقد افترى على الله وعلى الرسول وعلينا**))[٣]. وعن أبي جعفر عليه السلام: ((**من ادعى مقامنا يعني الإمامة فهو كافر أو مشرك**))[٤].

٥- وأن يعرف أن الإمام هو الهادي والدليل الذي يهدي العباد إلى الله فلا

---

(١) الصدوق، الأمالي: ٥٧٨.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٧٥/٢.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١١٢/٢٥.

(٤) المصدر نفسه: ١١٤.

يخرجهم من هدى، ولا يردهم في ردى، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[١].

كما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ((**الإمام عَلَمٌ بين الله عز وجلّ وبين خلقه فمن، عرفه كان مؤمناً، ومن أنكره كان كافراً**))[٢].

٦- أن يعرف أن منزلتهم هي منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله ومقامهم في الإسلام هو امتداد لمقام الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إلا أنه لا نبي بعده، ويدل على هذا حديث المنزلة، حيث يقول صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: ((**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**))[٣].

وروى صاحب الرياض النضرة: ((جاء أبو بكر وعلي يزوران قبر النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته بستة أيام. قال علي لأبي بكر: تقدم، فقال أبو بكر: ما كنت لأتقدم رجلاً سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **علي مني بمنزلتي من ربي ...**))[٤].

كما وردت أحاديث أخرى تؤكد أن رسول الله صلى الله عليه وآله جعل علياً كنفسه، فقد روى الهيثمي في مجمع الزوائد قوله صلى الله عليه وآله: ((**لينتهين بنو وليعه، أو لأبعثن إليهم رجلاً كنفسي يقتل مقاتيلهم، ويسبي ذراريهم وهو هذا، ثم ضرب بيده على كتف علي بن أبي طالب**))[٥].

---

(١) الأنبياء: ٧٣.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢/ ٢٣-٨٨.

(٣) روى هذا الحديث كثير من أصحاب الحديث ومنهم البخاري ومسلم، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩/ ١٠٩.

(٤) محب الدين الطبري، الرياض النضرة: ١٦٣/٢.

(٥) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٨٠/٢١ - ١٢٤/٢٥.

ولا شك أن ما لعلي ﷺ من فضائل فلخلفائه من بعده أيضاً؛ ولهذا جعل رسول الله ﷺ طاعة علي طاعة له، وطاعته طاعة لله، وهكذا لأهل بيته صلوات الله عليهم فانهم جميعاً سفن النجاة.

((ثمرات ومنافع حب أهل البيت ﷺ))

لما لم يكن حب أهل البيت ﷺ مجرد عاطفة، وعلاقة نفسية مجردة، وإنما هي عقيدة إيمانية، ورسالة دينية تشد الإنسان إلى الله تعالى، وتعبّده له ((فالدين هو الحب والحب هو الدين)) كما تقدم في الحديث، وحب أهل البيت تعلق وانشداد لرسالة الله تعالى، وتفاعل نفسي، والتزام سلوكي بأوامرهم والانتهاء عن نواهيهم؛ لذلك لابد أن تكون لتلك المحبة آثار عظيمة في بناء وتكوين شخصية الإنسان روحياً، وفكرياً، وأخلاقياً... وقد أشارت كثير من الأحاديث إلى ذلك. ومن تلك الآثار:

١- إن محبة أهل البيت ﷺ تحقق الإيمان الكامل، وتذيق الإنسان حلاوته وتجذّره في أعماق نفسه، وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم من بحث المحبة شرط الإيمان.

٢- إن محبة أهل البيت تحط الذنوب عن الإنسان، وتطهر قلبه من الأدران ومذام الأخلاق؛ وذلك لأن المحب ينجذب إلى المحبوب، وينشد إليه ، ويمتثل لأمره فيتخلق بأخلاقه، ويتمسك بمبادئه بوعي ،وصدق ، وإخلاص، وهذا له دخل كبير في تزكية النفوس، وتطهير القلوب؛ لأن ((ذكر الأولياء ومقاماتهم دخيلاً في تصفية القلوب وتخليصها وتعميرها؛ لأن ذكر الخير بالنسبة لأصحاب الولاية والمعرفة يوجب المحبة، والتواصل، والتناسب، وهذا التناسب يوجب التجاذب،

وهذا التجاذب يسبب التشافع))[١]، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**إن حبنا أهل البيت ليحطّ الذّنوب عن العباد كما تحطّ الريح الشديد الورق عن الشجر**))[٢] .

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي إنّ الله قد غفر لك ، ولأهلك، ولشيعتك، ومحبيّ شيعتك، فأبشر فإنك الأنزع البطين، منزوع من الشرك بطين من العلم**))[٣] .

وهذه الثمرة هي فاتحة أبواب الخير أمام الإنسان، فإنه إذا طهر من الذنوب انفتحت له أبواب الرحمة والخير والبركة. وهذا أثر عملي له أهمية عظيمة في حياة الإنسان . إذن حب أهل البيت عليهم السلام عملية تربوية تبني الإنسان بناءاً روحياً، وأخلاقياً، وفكرياً، وسلوكياً.

٣- الفوز بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله والشفاعة مفهوم عقائدي إسلامي يجتث من النفس جذور اليأس والإحباط، ويبعث روح الأمل والتفاؤل، وحب أهل البيت عليهم السلام منّةٌ من الله يمن بها على ذوي النفوس الزكية، والقلوب الطاهرة، وبه ينال الإنسان شفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**أربعة أنا الشفيع لهم ولو أتوني بذنوب أهل الأرض: معين لأهل بيتي، والقاضي لهم حوائجهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه، والدافع عنهم بيده**))[٤].

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أربعة**

---

(١) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة :٣٧٣

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٧/٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ٧٩.

(٤) المصدر نفسه: ٧٧.

أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريّتي، والقاضي لهم حوائجهم ، والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه))[١] .

وفي حديث ثالث: ((عن أبي الحسن الثالث عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: **أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المحب لأهل بيتي والموالي لهم، والمعادي فيهم، والقاضي حوائجهم، والساعي لهم فيما ينوبهم من أمورهم))**[٢] .

وفي حديث رابع عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((**ألزموا مودتنا أهل البيت، فإنه من لقي الله وهو يودنا أهل البيت دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينتفع عبد بعمله إلا بمعرفة حقنا))**[٣] .

٤- إن المحب لهم يحشر معهم عليهم السلام: من الحقائق الوجدانية أن المحب الصادق المخلص الواعي لحقيقة من يحبه ينتهج نهجه، ويقتفي أثره، ويسير بسيرته، ويتأسى به، لأنه مثاله الذي يقتدي به وهذا المسلك سيؤدي بالمحب إلى نفس عاقبة المحبوب، وفي آخر المطاف يحشر معه وهذا ما أكد عليه أهل بيت العصمة عليهم السلام، وهو أن من أحبهم لله وفي الله فإنه يحشر معهم، وفي زمرتهم ، يقول أبو جعفر الباقر عليه السلام: ((**والله لو أحبنا حجر حشره الله معنا، وهل الدين إلا الحب؟ إن الله يقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾**[٤]))[٥] .

وواضح من خلال استشهاد الإمام عليه السلام بالآية أن الحب الذي يقصده هو

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار:٢٧ / ٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ٨٥ .

(٣) المصدر نفسه: ٩١.

(٤) آل عمران : ٣١.

(٥) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٥/ ٩٥.

المقرون بالاتباع لا الحب المجرد عن العمل والطاعة.

وعن أنس بن مالك قال: ((صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله صلاة الفجر ثم أقبل علينا وقال: **معاشر أصحابي من أحب أهل بيتي حشر معنا، ومن استمسك بأوصيائي من بعدي فقد استمسك بالعروة الوثقى))**[١].

وعن أبان بن تغلب عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((سألته عن الأئمة فقال: **والله لعهد عهده إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله إن الأئمة بعده اثنا عشر، تسعة من صلب الحسين ومنا المهدي الذي يقيم الدين في آخر الزمان، من أحبنا حشر من حفرته معنا ، ومن أبغضنا أو ردّنا، أو ردَّ واحداً منّا حشر من حفرته إلى النار، وقد خاب من افترى))**[٢].

وعن علي عليه السلام إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: ((**يا علي: لو أن رجلاً أحب في الله حجراً لحشره الله معه، وأن محبّك ، وشيعتك ، ومحبي أولادك الأئمّة من بعدك يحشرون معك، وأنت معي في الدرجات العلى، وأنت قسيّم الجنة والنار تدخل محبيك الجنة، ومبغضيك النار))**[٣].

٥- وأجمع رواية أوضحت لنا ثمار حب أهل البيت عليهم السلام في الدنيا والآخرة ما رواه أبو سعيد الخدري حيث قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **من رزقه الله حب الأئمة من أهل بيتي فقد أصاب خير الدنيا والآخرة فلا يشكّنّ أحد أنه في الجنة فإن في حب أهل بيتي عشرين خصلة، عشر منها في الدنيا، وعشر منها في الآخرة: أما في الدنيا فالزهد، والحرص على العمل، والورع في الدين،**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار : ٣١٠/٣٦.

(٢) المصدر نفسه : ٣٦/ ٣٥٨.

(٣) المصدر نفسه: ٣٣٥.

والرغبة في العبادة، والتوبة قبل الموت، والنشاط في قيام الليل، واليأس مما في أيدي الناس، والحفظ لأمر الله ونهيه عز وجلّ، والتاسعة بغض الدنيا، والعاشرة السخاء.

وأما في الآخرة فلا ينشر له ديوان، ولا ينصب له ميزان، ويعطى كتابه بيمينه، ويكتب له براءة من النار، ويُبَيض وجهه، ويكسى من حلل الجنة، ويُشَفَّع في مائه من أهل بيته، وينظر الله عز وجلّ إليه بالرحمة، ويُتَوّج من تيجان الجنة، والعاشرة يدخل الجنة بغير حساب، فطوبى لمحبي أهل بيتي))[1].

ولو تأملنا في سياق الحديث، يتضح لنا أن للحب هذا، نتائج وآثار وضعية تَطبع بها شخصية المحب، وكلها خصال عملية تنعكس على شخصيته ، وتصاغ أخلاقه بها، وتبرزها بحلة قشيبة تجذب الناظر، وترفع صاحبها إلى تلك المنازل الرفيعة في عالم الآخر، فلمثل هذا فليعمل العاملون.

((كيف نملك قلوب الآخرين ؟))

الرغبة في كسب محبة الآخرين، وودهم، وتقديرهم حاجة نفسية، وأمر فطري لدى كل إنسان سَوِي سليم الفطرة؛ ولذلك قيل: ((قلب المؤمن يشتهي الحب من أجل الحب)) فما من إنسان إلا ويود أن يفوز بحب الله، وحب عباده المؤمنين الصالحين؛ لهذا توسل الإمام زين العابدين عليه السلام أن يجعل نفسه ((**محبوبة بأرضه وسمائه**)) وفي المناجاة الثانية له عليه السلام : ((**إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع**

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٨/٢٧.

قلوبهم)) .

وفي نص آخر يقول عليه السلام: ((**اللهم... ارزقني حبك، وحب من أحبك، وكل عمل يقربني إلى حبك**))[١] لأن حب الله لعبده فوز، يقول رسول الله ﷺ لعلي: ((**يا علي قل: اللهم اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي في صدور المؤمنين مودة فأنزل الله، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾**[٢]))[٣] .

وتحصيل حب الله تعالى لابد له من مقدمات أساسية مرتبطة جميعها بالإيمان بالله تعالى، والفوز بحب المؤمنين مشروط بحب الله تعالى، فمن افتقر إلى حب الله لا يمكن أن تقبل عليه القلوب، والعكس بالعكس. وقد قيل: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم ومحبتهم. والأساس في ذلك هو ((أن للإيمان والعمل الصالح جاذبية خارقة، فإن الاعتقاد بوحدانية الله، والإيمان بدعوة الأنبياء، والذي يتجلى نوره في روح الإنسان وفكره وقوله وعمله بصورة أخلاق إنسانية عالية، وكذلك يتجلى بالتقوى، والطهارة، والصدق، والأمانة، والشجاعة، والإيثار كقوى مغناطيسية عظيمة جاذبة خاطفة))[٤] .

وتعليل آخر: هو أن العمل الصالح النابع عن إيمان يوجد في النفس شفافية وصفاءً خالصاً من كل كدورة، وهذه الشفافية تولد جاذبية للنفوس الطاهرة وتشدها إليها...

---

(١) الشيخ الطوسي، مصباح المتهجد: ٧٢.

(٢) مريم: ٩٦.

(٣) الزمخشري، الكشّاف: ٤٧/٣.

(٤) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، التفسير الأمثل: ٤٥٤/٩.

ولا يمكن أن يفوز أحد بحب الله تعالى إذا لم يطع أوامره، وينتهِ عن نواهيه، ويتخلّق بأخلاقه التي يحبها الله كما صرح القرآن الكريم بذلك بأن الله تبارك اسمه يحب التوابين، والمتقين، والمتطهرين، والمحسنين، والصابرين، والمقسطين، والمتوكلين والذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص... كل تلك الصفات أخلاق عملية يحبها الله تعالى، ويحبُّ الذين يتخلقون بها.

إذن السبيل إلى الفوز بحب الله تعالى مشروط بالتخلق بأخلاق الله تعالى والتطهر من كل صفة لا يحبها الله تعالى، وهذا صريح واضح في كتابه الكريم بأن الله لا يحب الكافرين، والمفسدين، والظالمين، والمسرفين، والمختالين، والخائنين والمستكبرين، والمتفاخرين بغير الحق.

وحب الله لعبده، وحب العبد لربه عملية متبادلة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فكلما ازداد العبد حباً لله ازداد إقبالاً عليه تعالى ورغبة فيما عنده، وبذلك يزداد حب الله لعبده كما ((أن العلاقة بين حب الله، وجملة من النتائج المترتبة على حب الله علاقة تبادليّة وجدلية، كل منهما يؤدي إلى الآخر فإن الحب يؤدي إلى الذكر))[(١)] .

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**علامة حب الله حب ذكر الله**))[(٢)] والذكر يؤدي إلى الحب وعن الإمام الصادق عليه السلام: ((**من أكثر ذكر الله أحبه**))[(٣)] .

((**حب الله إذا أضاء على سر عبد أخلاه عن كل شاغل**))[(٤)] .

((**وتفريغ القلب من الشواغل، ومن التعلق إلى الدنيا يؤدي إلى**

---

(١) الشيخ محمد مهدي الآصفي، كتاب الدعاء: ٢٦٥.

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال: حديث: ١٧٧٦.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٩٣/ ١٦٠.

(٤) المصدر نفسه : ٧٦ /٢٣.

حب الله))[١].

((**إذا تخلى المؤمن من الدنيا سما ووجد حلاوة حب الله، وكان عند أهل الدنيا كأنه قد خولط، وإنما خالط القوم حلاوة حب الله فلم يشتغل بغيره))**[٢].

فالفوز بحب الله يختلف تماماً عن نيل حب الناس، فكلما ازداد العبد رغبة فيما عند الله أحبه الله، وعلى العكس من ذلك عند الناس، فكلما زهد فيما عندهم، وترفع عنه أحبه الناس وأكرموه؛ لأن ((**أكرم الناس على الناس من كان خيره عليهم فائضاً، وكان مستعففاً عنهم، وإن كان إليهم محتاجاً، فإنما أهل الدنيا يتعقبون الأموال، فمن لم يزدحمهم فيما يتعقّبونه كرم عليهم، ومن لم يزاحمهم ومكنهم من بعضها كان أعزّ وأكرم))**[٣].

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ((يا رسول الله علّمني شيئاً إذا أنا فعلته أحبني الله من السماء، وأحبني الناس من الأرض، فقال له: **ارغب فيما عند الله عز وجلّ يحبّك الله، وازهد فيما عند الناس يحبّك الناس))**[٤].

((السبيل إلى قلوب الناس))

هناك خصال كريمة، وأعمال صالحة تحبب الإنسان إلى الناس، وتجذبهم إليه إذا اتصف الإنسان بها استطاع أن ينفذ إلى القلوب بدون جواز سفر، وقد أشارت إلى بعضها تعاليم أهل البيت ﵈ وأكدها بعض علماء الاجتماع نذكر منها:

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٥٦/٧٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الطبرسي، الاحتجاج من حديث للإمام زين العابدين ﵇.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٥/٧٠.

أولاً: الإحسان: وهو من أجمل ما في الإنسان، وأعلى فضائله، وأكرم خصاله وأبقى ذخيرة له في دنياه وأخرته؛ وهو معنى جامع لكل معالي الأخلاق والفضائل ولذا قال أمير المحسنين علي (عليه السلام): ((**وأكثر من إسداء الإحسان فإنه أبقى ذخراً وأجمل ذكراً**)).

والإحسان يستجلب القلوب ويشرحها؛ لأنها جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، وقد أكد هذا سيد الموحدين علي (عليه السلام) حيث قال:

((**بالإحسان تملك القلوب**)).

((**وبالإحسان تسترق الرقاب**)).

((**وبالإحسان تملك الأحرار**)).

((**أحسن إلى من شئت وكن أميره**)).

((**من كثر إحسانه أحبه إخوانه**)).

((**الإحسان محبة**))[(١)].

إذن مما يحبب الإنسان إلى الناس هو الإحسان إليهم، ولا ينحصر الإحسان ببذل المال، وإنما كل معروف إحسان،كلمة طيبة، أو ابتسامة هادئة صادقة تدخل السرور إلى القلب، أو عفو عن مذنب، أو وصل لمقاطع، أو هداية لضال، أو نصيحة لمغرور، أو مواساة لمنكوب... كل ذلك إحسان، وأجمل ما في الإحسان إنه يعطي للمُحسن لغيره أكثر مما يعطى المُحَسْن إليه؛ ولهذا ينبغي للمحسِن أن يحافظ على إحسانه بأن لا يَمن على أحد بإحسانه، ولا يطلب عوضاً عنه من الآخرين؛ لأنه في الحقيقة أحسن بنفسه، يقول أمير المؤمنين(عليه السلام): ((**إنك إن**

---

(١) الآمدي، غرر الحكم: مادة أحسن.

أحسنت فنفسك تكرم وإليها تحسن)) ويقول (ع) ((**إن مكرمة صنعتها إلى أحد من الناس، إنما أكرمت بها نفسك، وزيّنت بها عرضك، فلا تطلب من غيرك شكر ما صنعت إلى نفسك**))[١] لأن المؤمن حين يحسن لأحد إنما يحسن قربة إلى الله لا يريد بذلك جزاء ولا شكورا وما أروع ما قاله الإمام الخميني (قدس سره) لولده احمد: ((علينا أن لا نري أنفسنا - أبداً - دائنين لخلق الله عندما نخدمهم، بل هم الذين يمنون علينا حقًّا؛ لكونهم وسيلة لخدمة الله - جلّ وعلا-))[٢].

ثم إن الإحسان ثلاثة أقسام :

القسم الأول: إحسان الإنسان إلى نفسه بأن يزكيّها ويهذبها ويقومها على هدى الله، وهذا القسم من الإحسان هو المنطلَق الذي ينطلق منه إلى العوالم الأخرى ليكون محسناً، جاء في الحديث الشريف: ((**من أحسن سريرته أحسن الله علانيته**))[٣] .

القسم الثاني: وإحسان الإنسان فيما بينه وبين الله، أن يعبده، ولا يشرك به شيئاً، ولا يرى مؤثراً في الوجود غيره؛ ولذا ((**قيل إن المحسن هو الموحد**)) وروي عن النبي (ص) أنه سئل عن الإحسان، فقال: ((**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**))[٤] .

القسم الثالث: هو إحسان الإنسان فيما بينه وبين الناس، وقد أمر الإسلام بالإحسان في كل جوانب حياة الإنسان المادية والمعنوية، ومع جميع الناس ولهذا

---

(١) الآمدي، غرر الحكم: مادة أحسن.

(٢) الإمام الخميني، سر الصلاة: ٤٤.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١١٣/٢٧.

(٤) المصدر نفسه: ٢١٩/٧٠.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

((**وأحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً**)) .

((**وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مسلماً**))[١] .

((**إن جالسك يهودي فأحسن مجالسته**))[٢] .

وخلاصة الكلام أن الإحسان يجلب الحب والمودة، ويفتح القلوب للداعية إلى الله... اللهم اجعلنا من المحسنين في سبيلك.

ثانياً: الانبساط وحسن البشر: النفس الإنسانية بفطرتها تحب الوجه المنبسط والثغر المبتسم، وتكره الوجه العبوس المدلهم عند من كان، وأين ما كان لذلك مما يحبب الإنسان إلى الناس حسن الابتسام، ولكن ليس كل بسمة إنما هي البسمة الصادقة الهادئة غير المصطنعة المتكلفة ؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**تبسمك في وجه أخيك صدقة**))؛ لأنها تجلب المودة، وتؤلف بين القلوب، وتدخل السرور إلى القلب، وتطهره من الحقد، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**حسن البشر يذهب بالسخيمة**))[٣] .

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: ((**أتى رسول الله صلى الله عليه وآله رجل، فقال: يا رسول الله أوصني فكان فيما أوصاه أن قال: الق أخاك بوجه منبسط**))[٤] .

وجاء في غرر الحكم عن أمير المؤمنين عليه السلام :

((**البشاشة حبالة المودة**)) .

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٦٨/٦٩.

(٢) الشيخ المفيد، الاختصاص: ٢٣٠.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٧٢/٧٤.

(٤) المصدر نفسه: ١٧١.

((سبب المحبة البشر)) .

((طلاقة الوجه بالبشر والعطية، وفعل البر، وبذل التحية، داع إلى محبة البرية))[١] .

تلك هي تعاليم السماء ترسم لنا الطريق الأمثل والأرحب إلى قلوب البشر بعمل لا يكلف كثيراً، بل لا يكلف شيئاً فالبشر، والبشاشة، والابتسام تحبب الإنسان للآخرين، وتقربه إلى القلوب، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): **((إن أحسن ما يألف به الناس قلوب أودّائهم، ونفوا به الضغن عن قلوب أعدائهم: حسن البشر عند لقائهم، والتفقد في غيبتهم، والبشاشة بهم عند حضورهم))**[٢] .

ولم يقتصر الأمر على كسب مودة الناس وحبهم، بل إن البشر والبشاشة تقرب الإنسان إلى الله، وتبعده عن مقته، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): **((البشر الحسن وطلاقة الوجه مكسبة للمحبة، وقربة من الله، وعبوس الوجه، وسوء البشر مكسبة للمقت، وبعد من الله))**[٣] .

هكذا يريد الإسلام أن يجعل دعاته أداة جذب، وكسب، ومألفة للآخرين ولما لم يكن الناس ليألفون أحداً ما لم يجدوا فيه عنصر نفع وفائدة، ولا يوجد إنسان يستطيع أن يكفي الناس مادياً، ويسعهم بكل ما يحتاجون، ولكن يمكن أن يسعهم بسعة صدره، وبحسن خلقه، يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): **((يا بني عبد المطلب إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه، وحسن البشر))**[٤] .

---

(١) الآمدي، غرر الحكم: ٤٣٤.

(٢) المحدث المجلسي: بحار الأنوار: ٥٧/٧٨.

(٣) المصدر نفسه: ١٧٦.

(٤) المصدر نفسه: ١٦٩/٧٤.

فالبشر، والبشاشة، وحسن اللقاء عملية تطهير باطني تطهر الإنسان من أمراض النفس، وتقربه إلى الله تعالى إذا كانت جارية بصدق، وبدون تكلف، ولا خداع؛ لهذا نجد أن أئمة الهدى عليهم السلام يقولون لحملة دعوتهم: ((**إذا لقيتم إخوانكم فتصافحوا، وأظهروا لهم البشاشة، والبشر تتفرقوا ، وما عليكم من الأوزار قد ذهبت**))(١) .

وبهذه الأنوار الإلهية ثبت لنا أن أهم ما يقرب بين القلوب هو البشاشة والبشر، والابتسام، وبذلك تكون البشاشة عبادة عظيمة عند الله تعالى، وهي ((**مخ المودة**))(٢) كما صرح الحديث الشريف بل ((**فَخ المودة**))(٣)؛ ولهذا نقل مؤرخو سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله إنه ((**كان أكثر الناس تبسماً، وضحكاً في وجوه أصحابه وتعجباً مما حدّثوا به، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم إقتداءاً منهم بفعله وتوقيراً له**))(٤) وكانت سيرته صلى الله عليه وآله في جلساته أنه كان دائم البشر، سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا صخاب.(٥)

ثالثاً: التودد والتحبب إلى الناس: إن مما يحبب الإنسان للناس، ويقربهم إليه، ويفتح له قلوبهم، هو أن يفتح قلبه إليهم، ويشعرهم بالود والاحترام شريطة أن يكون بلا تملق وتذلل مفتعل يشعر بالوضاعة والمهانة، وإنما تودد مع عزة وهيبة، ووقار، ونزاهة عن المطالب المادية، أو نيل نصيب من الدنيا كالسمعة والجاه، وإنما لأجل كسب ودهم وحبهم لله وفي الله، وبعبارة أخصر، التودد تواصل واتصال

---

(١) المحدث المجلسي: بحار الأنوار: ١١١/١٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٥/٧٤.

(٣) المصدر نفسه: ٣٩/٧٨.

(٤) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء: ٣٤٩/٣.

(٥) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٥٢/١٦.

نفسي منزه عن الجوانب الذاتية والأنانية، وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته على ذلك في تكوين العلاقات الاجتماعية، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**إن أعرابياً من بني تميم أتى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: أوصني، فكان مما أوصاه: تحبب إلى الناس يحبوك**))[١]، وقال صلى الله عليه وآله: ((**التودد نصف الدين**))[٢] وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وآله: ((**رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس، واصطناع الخير إلى كل أحد بر أو فاجر**))[٣].

وفي وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده محمد بن الحنفية: ((**ألزم نفسك التودد**))[٤] وفي حديث آخر: ((**عليكم بالحب في الله والتودد**))[٥].

والسر في هذا التأكيد أن الإسلام يريد أن يبني مجتمعاً متعاوناً متآلفاً كما مثل رسول الله صلى الله عليه وآله مجتمع الإيمان بالجسد الواحد الذي يشد بعضه بعضاً ويكمل بعضه بعضاً، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى بعضه تداعي سائره بالسهر والحمى**))[٦] وفي حديث آخر: ((**المؤمن للمؤمن بمنزلة البنيان يشد بعضه بعضاً**))[٧].

رابعاً: إفشاء السلام: السلام كلمة ندية محببة إلى النفوس، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، والابتداء به عند لقاء الأخوة إشعار بالترابط على حب الله تعالى

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٦٤٢/٢.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٩٢/٧٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ٣٩١.

(٥) المصدر نفسه: ١٧٨/٨٧.

(٦) المصدر نفسه: ١٥٠/٦١.

(٧) المصدر نفسه.

والتواصل على ذكره، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**السلام من أسماء الله فأفشوه بينكم**))(١)؛ لأنه إشعار بالسلامة، والأمان في النفس والمال والدين والعرض وليس هناك شيء أسمى من أن يشعر الإنسان من يلتقيه بأنه في أمن وأمان ولهذا جعل الإسلام إفشاء السلام خير خلائق الدنيا والآخرة فقال صلى الله عليه وآله: ((**ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **إفشاء السلام في العالم**))(٢) وكلمة (في العالم) توحي بالسلام على كل من يلتقيه الإنسان إلا من خرج بالدليل.

والسلام تحية الإسلام وشعاره المعظم الذي، ورد الحث عليه قرآناً، وسنة إلى حد كأنه يجعل هذا الاستحباب واجباً... ومما يؤكد عظمة هذا الشعار، وأهميته في الإسلام، وسمو شرفه أن السلام: تحية الله لعباده المرسلين، وملائكته المقربين، وعباده الصالحين، وتحية أهل الجنة بعضهم لبعض هذا ما أكده القرآن الكريم في آيات عديدة يقول تعالى في السلام على أنبياءه ورسله:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٣).

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾(٤).

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾(٥).

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾(٦).

---

(١) المحدث المجلسي: بحار الأنوار: ١٠/٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٢/٧٦.

(٣) الصافات: ٧٩.

(٤) الصافات: ١٠٩.

(٥) الصافات: ١٢٠.

(٦) الصافات: ١٣٠.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)].

ثم إن السلام تحية ملائكة الرحمن على عباده الصالحين من أنبياء ومرسلين وأولياء الله الآخرين، يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾[(٢)].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[(٣)].

والسلام هو السلاح الذي تدرّع به أنبياء الله ودعاته لرد التحديات التي تصدر من أعدائهم أو الجاهلين لهم كما جاء ذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى في وصف عباده الصالحين: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[(٤)].

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[(٥)].

وخليل الرحمن عندما قال له آزر: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[(٦)].

---

(١) الصافات: ١٨١-١٨٢.

(٢) هود: ٦٩.

(٣) الذاريات: ٢٤-٢٥.

(٤) الفرقان: ٦٣.

(٥) القصص: ٥٥.

(٦) مريم: ٤٦-٤٧.

وأخيراً فالسلام تحية أهل الجنة، يقول تعالى في وصف ذلك:

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[(١)].

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[(٢)].

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[(٣)].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾[(٤)].

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾[(٥)].

كل ذلك دلالة على أهمية السلام في حياة الإنسان بحيث أنه يريد أن يلازمه في كل مراحل حياته منذ ولادته إلى يوم بعثه، كما قال روح الله عيسى : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[(٦)] وفي يحيى بن زكريا قال تعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾[(٧)].

من خلال ذلك يتضح لنا لماذا جعل الإسلام السلام والتحية شعاراً من شعائره المقدسة، وجعلها مفتاحاً للعلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات في

---

(١) يونس: ١٠.

(٢) الرعد: ٢٣-٢٤.

(٣) النحل: ٣٢.

(٤) الأحزاب: ٤٣-٤٤.

(٥) الواقعة: ٢٥-٢٦.

(٦) مريم: ٣٣.

(٧) مريم: ١٥.

حياتهم اليومية ليُكوِّن أمة واحدة متآلفة ومتآزرة ومتآخية يشد بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص، بل كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى... ولهذا قال رسول (صلى الله عليه وآله): **((والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أفشوا السلام بينكم))**[1] وهنا في هذا الحديث يضع لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) معادلة دقيقة تبين لنا دور السلام في حياة الإنسان. هذه المعادلة هي: سلام ← تحابب ← إيمان ← الجنة.

إذن لابد أن يواصل المؤمن إفشاء السلام على كل من يلتقيه من المسلمين وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) **((يسلم على من استقبله من غني وفقير، وكبير، وصغير))**.

((السلام حالة الدخول إلى البيت))

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

أول مجال يجب أن يعمه السلام، البيت والعيال؛ ولذلك جاء التأكيد كثيراً على ذلك في روايات أهل البيت (عليهم السلام):

قال النبي (صلى الله عليه وآله): **((يا أنس، سلّم على من لقيت يزيد الله في حسناتك، وسلّم في بيتك يزيد الله في بركتك))**[3].

---

(١) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء: ٣٨٢/٣.

(٢) النور: ٦١.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣/٧٦.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**إذا دخل الرجل منكم بيته فإن كان فيه أحد يسلم عليهم، وإن لم يكن فيه أحد فليقل: السلام علينا من عند ربنا يقول الله: تحية من عند الله مباركة طيبة**))[١].

وعن الإمام علي عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا دخل أحدكم بيته فليسلم فإنه ينزله البركة وتؤنسه الملائكة**))[٢].

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**إذا دخلت منزلك فقل:بسم الله وبالله، وسلّم على أهلك فإن لم يكن فيه أحد فقل: بسم الله والسلام على رسول الله وعلى أهل بيته، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإذا قلت ذلك فر الشيطان من منزلك**))[٣].

((لا غرارة في الصلاة ولا التسليم ويكره التجاوز))

((الغرار النقصان، أما في الصلاة ففي ترك إتمام ركوعها وسجودها ونقصان اللبث في ركعة عن اللبث في الركعة الأخرى، ومنه قول الصادق عليه السلام: ((**الصلاة ميزان، ومن وفي استوفى**)) ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله: ((**الصلاة مكيال فمن وفى وفيَّ له**)) فهذا الغرار في الصلاة، وأما الغرار في التسليم فأن يقول الرجل: السلام عليك [أ]ويرده فيقول: وعليك، ولا يقول: وعليكم السلام، ويكره تجاوز الحد في الرد كما يكره الغرار، وذلك أن الصادق عليه السلام سلّم على رجل فقال الرجل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه، فقال عليه السلام: لا تجاوزوا بنا قول

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣/٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ٧.

(٣) المصدر نفسه: ١١.

الملائكة لأبينا إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾(١)))(٢).

((الذين ينبغي ترك السلام عليهم))

وردت روايات وأحاديث تؤكد على اجتناب السلام على مجموعة من الناس نذكر منها الحديث المرفوع إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((**نهى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يسلم على أربعة: على السكران في سكره، وعلى منٍ يعمل التماثيل وعلى من يلعب النرد، وعلى من يلعب بالأربعة عشر، وأنا أزيدكم الخامسة أنهاكم أن تسلموا على أصحاب الشطرنج**))(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: ((**ستة لا يسلم عليهم: اليهودي، والنصراني والرجل على غائطه، وعلى موائد الخمر، وعلى الشاعر الذي يقذف المحصنات وعلى المتفكهين بسب الأمهات**))(٤).

وعنه عليه السلام: ((**لا تسلموا على اليهود والنصارى، ولا على المجوس، ولا على عبدة الأوثان، ولا على شُرّاب الخمر، ولا على صاحب الشطرنج والنرد، ولا على المخنث، ولا على الشاعر الذي يقذف المحصنات، ولا على المصلي؛ وذلك لأن المصلي لا يستطيع أن يرد السلام؛ لأن التسليم من المسلم تطوع**

---

(١) هود: ٧٣.

(٢) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار: ٢٨٣-٢٨٤.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٨ /٤٣١.

(٤) المصدر نفسه: ١٢/٥٠. طبعة أهل البيت.

والرد فريضة ولا على آكل الربا، ولا على رجل جالس على غـائط، ولا علـى الذي في الحمام ولا على الفاسق المعلن فسقه))[١] .

ويبدو من سياق هذه الأحاديث أن كل فاعل للمنكر ينبغي ترك السلام عليـه لإشعاره بعدم الرضا بعمله وهذا بمثابة النهي عن المنكر.

((رد السلام على غير المسلمين))

إذا سلم اليهودي والنصراني والمشرك فالرد عليه بعليك. فعـن الصـادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((**لا تبـدؤوا أهـل الكتـاب بالسـلام، فـإن سلموا عليكم فقولوا: عليكم**))[٢] .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**إذا سلّم عليك اليهودي، والنصراني والمشرك فقل: عليك**))[٣] .

وعنه عليه السلام : ((**مر يهودي بالنبي صلى الله عليه وآله فقال: السام عليـك فقـال رسـول الله صلى الله عليه وآله: عليك، فقال أصحابه: إنما سلم عليك بالموت فقال: الموت عليك، فقـال صلى الله عليه وآله: وكذلك رددت**))[٤] .

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**أقبل أبو جهل بن هشام، ومعه قوم من قـريش فدخلوا على أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك قد آذانا فادعه فليكف عن آلهتنا**

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٤٣٢/٨. دار إحياء التراث بيروت

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٩/٧٦ و مثله الوسائل عن أمير المؤمنين.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٤٥٢/٨.

(٤) المصدر نفسه: ٤٥٣ .

ونكف عن إلهه فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فدعاه، فلما دخل النبي ﷺ لم ير في البيت إلا مشركاً، فقال: السلام على من اتبع الهدى))(١) .

((آداب التحية والسلام))

وردت في آداب التحية والسلام آداب خاصة حملها الفقهاء على الاستحباب نذكر منها:

١- يستحب الابتداء بالسلام على كل مسلم؛ لقول رسول الله ﷺ: ((**أولى الناس بالله وبرسوله من بدأ بالسلام**))(٢) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**البادئ بالسلام أولى بالله ورسوله**))(٣) وكلمة أولى توحي أن البادئ بالسلام أقرب وأحب لله تعالى، وقد فاز بولاية الله تعالى وذلك هو الفوز العظيم... ولهذا نهى رسول الله ﷺ عن إجابة من بدأ بالكلام قبل السلام، وقال: ((**ابدؤوا بالسلام قبل الكلام، فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه**))(٤) كما نهى عن دعوة أحد إلى الطعام حتى يسلم، فقال: ((**لا تدع إلى طعامك أحداً حتى يسلم**))(٥) وهذا دليل على فساد العرف السائد في أوساطنا الذي يقول: لا سلام على الطعام.

ولهذا العمل ثواب عظيم فقد ورد عن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**إن**

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٤٥٣/٨.

(٢) المصدر نفسه : ٤٣٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ٤٣٧.

مَلَكاً مر برجل على باب، فقال له: ما يقيمك على باب هذا الدار؟ فقال: أخ لي فيها أردت أن أسلم عليه، فقال الملك: بينك وبينه قرابة أو نزعتك إليه حاجة؟ فقال: لا ما بيني وبينه قرابة، ولا نزعتني إليه حاجة إلا إخوة الإسلام، وحرمته فأنا أسلم عليه، وأتعهده لله رب العالمين، فقال له الملك: أنا رسول الله إليك، وهو يقرئك السلام، ويقول لك: إياي زرت، ولي تعاهدت، وقد أوجبت لك الجنة وأعفيتك من غضبي، وآجرتك من النار))[1] .

٢- يستحب إفشاء السلام، وأن لا يبخل المسلم بالسلام على أحد من المسلمين صغيراً أو كبيراً، غنياً أو فقيراً، فإن الله تعالى يحب ذلك، وقد قال الإمام الباقر عليه السلام: ((**إن الله عز وجلّ يحب إفشاء السلام**))[2]، وهو دلالة التواضع يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((**من التواضع أن تسلم على من لقيت**))[3]، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يسلم على كل من يلقاه، ويقول: ((**خمس لا أدعهن حتى الممات: ... والتسليم على الصبيان؛ لتكون سنة من بعدي**))[4] .

٣- المساواة في السلام والرد بين الغني والفقير فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام إنه قال: ((**من لقي فقيراً مسلماً فسلم عليه خلاف سلامه على الغنى لقى الله يوم القيامة وهو عليه غضبان**))[5] .

٤- لابد من الجهر بالسلام وبالرد حتى يسمع المخاطب فعن أبي عبد الله

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٤٣٧/٨.

(٢) المصدر نفسه: ٤٣٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ٤٤٢.

عليه السلام قال: ((**إذا سلم أحدكم فليجهر بسلامه ولا يقول: سلمت فلم يردوا عليَّ ولعله يكون قد سلم ولم يسمعهم، فإذا رد أحدكم فليجهر برده، ولا يقول المسلم: سلمت فلم يردوا عليَّ**))(١).

٥- يستحب اختيار الصيغة الأفضل وهي **سلام عليكم ورحمة الله وبركاته** كان أبو عبد الله عليه السلام يقول: ((**من قال السلام عليكم فهي عشر حسنات ومن قال: سلام عليكم ورحمة الله فهي عشرون حسنة، ومن قال: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته فهي ثلاثون حسنة**))(٢).

٦- يستحب إعادة السلام ثلاث مرات مع عدم الرد فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لرجل من بني سعد: ((**ألا أحدثك عني وعن فاطمة إلى أن قال: فغدا علينا رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن في لحافنا، فقال: السلام عليكم، فسكتنا واستحيّنا لمكاننا ثم قال: السلام عليكم فسكتنا، ثم قال: السلام عليكم فخشينا إن لم نرد عليه أن ينصرف، وقد كان يفعل ذلك فيسلم ثلاثاً فإن أذن له وإلا انصرف، فقلنا: وعليك السلام يا رسول الله ادخل، فدخل**))(٣).

وفي (الخصال) عن أبيه، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير عن أبان بن عثمان، عن الصادق عليه السلام - في حديث الدراهم الإثنا عشر- إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال للجارية مري بين يدي، ودليني على اهلك، وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله حتى وقف على باب دارهم، وقال: ((**السلام عليكم يا أهل الدار**، فلم يجيبوه فأعاد صلى الله عليه وآله فلم يجيبوه فأعاد السلام، فقالوا: وعليك السلام يا رسول الله ورحمة الله وبركاته،

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٤٤٢/٨.

(٢) المصدر نفسه:٤٤٤.

(٣) المصدر نفسه:٤٤٥.

فقال: **مالكم تركتم إجابتي في أول السلام والثاني؟** قالوا: يا رسول الله سمعنا سلامك فأحببنا أن نستكثر منه))[١] .

٧- يكره ترك التسليم على المؤمن حتى في حال التقية فعن إسحاق بن عمار قال: ((دخلت على أبي عبد الله (ع)، وكنت تركت التسليم على أصحابنا في مسجد الكوفة ؛ وذلك لتقية علينا فيها شديدة، فقال لي أبو عبد الله (ع): **يا إسحاق متى أحدثت هذا الجفاء لإخوانك تمرّ بهم فلا تسلم عليهم؟** فقلت له: ذلك لتقية كنت فيها، فقال: **ليس عليك في التقية ترك السلام، وإنما عليك في الإذاعة، إن المؤمن ليمر بالمؤمنين فيسلم عليهم فترد الملائكة : سلام عليك ورحمة الله وبركاته أبداً))**[٢] .

٨- يستحب أن يسلم الصغير على الكبير، والقليل على الكثير، والمار على القاعد، والراكب على الماشي، وأخيراً يتضح لنا من خلال ما تقدم أهمية السلام في الحياة الاجتماعية ومدى تأثيره في عقد الروابط الاجتماعية .

خامساً: حسن الخلق: وهو من أهم العناصر التي تفتح قلوب الآخرين للإنسان وتحببه إليهم ، يقول أمير المؤمنين (ع): ((**حسن الخلق يورث المحبة ويؤكد المودّة**))[٣] .

والسبب في ذلك إن اعظم، واجمل، وأفضل ما في الإنسان هو الحسن الأخلاقي، والإنسان بفطرته يحب الجمال، فالأمر إذن أمر فطري تنجذّب النفس إليه.

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٤٤٥/٨، دار إحياء التراث بيروت.

(٢) المصدر نفسه: ٤٥١/٨.

(٣) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٥٥.

((معنى حسن الخلق))

هو معنى كلي جامع لكل مفردات الخيّـر والفضـيّلة والإحسـان والعـدل، ولا يقتصر على الوضع الظاهري، والتصرف السلوكي دون الوضع الباطني، بل يشملهما والإنسان وإن كان له باطن وظاهر، أو سر وعلن إلا أن الظاهر هو انعكاس للبـاطن المضمور.

فلا نقصد بحسن الخلق طلاقة الوجه، وحسن البشر، وإن كانت طلاقة الوجه وحسن البشر سمة أخلاقية محببة للنفوس، ولا نقصـد بـه طيـب الكـلام وحسـن المعشر، وإن كانا من الصـفات الأخلاقيـة الجميلـة، ولا نقصـد بـه عـدم التضـجر والتشكي وإن كانتا من السمات الأخلاقية الكريمة، ولا نقصد به كظم الغيظ، وبسط العدل، وإنصاف الناس فهذه السمات وغيرها كثير من حسن الأخلاق،ولـيس هـي كل حسن الأخلاق... وإنما نقصد بحسن الأخلاق هو: السجية أو الطبيعـة الباطنيّـة في النفس التي تصدر منها تلك المحاسن والفضائل الأخلاقية بيسر وسهولة كطبـع وسلوك ينبعث من أعماق الإنسان بوعي وبدافع رسالي يهدف من ورائه نيل رضـا الله تعالى دون سواه. وبذلك تكون إرادة الإنسان من تحسين أخلاقه ((وجه ربه ولا هم له في فضيلة ولا رذيلة، ولا شغل له بثناء جميل، وذكر محمود، ولا التفـات لـه إلى دنيا أو آخرة أو جنة أو نار، وإنما همه ربه، وزاده عبوديته ودليله حبه))[(١)] .

وهكذا يتضح لنا أن حسن الأخلاق هو الملكة الراسخة فـي ضـمير الإنسـان والدافعة إلى فعل الجميل والمانعة عن فعل القبيح.

وبعبارة أخرى أن حسن الخلـق هـو سـلامة القلـب مـن الأدران والأمـراض النفسية، وزكاة النفس من ذمائم الأخلاق، واستقامة السلوك وفق مقتضيات الشريعة

---

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١/٣٧٤.

وآدابها. و((الاعتقاد بحسن الفعل الذي يكون منشأً لإرادة حين تستقر وتثبت تتحوّل إلى صفة داخلية يطلق عليها اسم **الخلق**)) .

وقد أكد الإسلام على ضرورة اكتساب الخلق الحسن، واعتبره أساس كل خير فهو ((أكرم الأحساب، وأرفع المكارم، وأسمى الفضائل، وأفضل الدين، وأحسن الشيم، وخير قرين، وعنوان الكمال الإيماني في العلم والعمل، وأفضل ما يَقدم به المؤمن على الله، وأثقل ما يوضع في ميزان الأعمال يوم القيامة، وخير ما يدخل الإنسان في رحمة))[١]، بل هو الدين كله.

((جاء رجل على رسول الله صلى الله عليه وآله من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فقال: **حسن الخلق**، ثم أتاه من قبل يمينه، فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فقال: **حسن الخلق**، ثم أتاه من قبل شماله، فقال: ما الدين؟ **فقال: حسن الخلق**، ثم أتاه من ورائه فقال: ما الدين؟ فالتفت إليه فقال: **أما تفقه هو أن لا تغضب**))[٢] .

وعن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٣] ((**هو الإسلام، وروي أن الخلق العظيم [هو] الدين العظيم**))[٤] .

ولذا حصر رسول الله صلى الله عليه وآله بعثته المباركة بتمامها وكمالها من أجل إتمام مكارم الأخلاق، فقال صلى الله عليه وآله : ((**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**))[٥] .

---

(١) هذه الكلمات مقتبسة من الأحاديث الشريفة.

(٢) الفيض الكاشاني، المحجةالبيضاء: ٨٩/٥ .

(٣) القلم: ٤.

(٤) الصدوق، معاني الأخبار: ١٩١.

(٥) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٨٢/٧١.

((آثار وثمرات حسن الخلق))

دلت الأحاديث الشريفة على أن لحسن الخلق آثاراً وضعية على نفسية الإنسان، وعلى سير المجتمع وتكامله، وعليه تتوقف سعادته في الدنيا والآخرة ولا تتحقق تلك السعادة من دون تحسين الأخلاق بل وتكميلها ((فجدير بالدين الجامع، وجدير بالمصلح المهذب أن يتكفل إتمام النقص في الأخلاق، ويتبين مواضع الخلل في النفس، ويعالج الخطر في الغريزة الموبوءة؛ ليكوّن من الفرد عضواً صالحاً لمكانته من الأمة، ويجعل من الأمة مجتمعاً قابلاً للعلم في سبيل الخير))[1].

ونحن لا نستطيع أن نحدد عظمة آثار وثمرات حسن الخلق إلا ما دلنا عليه من آتاه الله الخلق العظيم؛ ولهذا سنعرض تلك الآثار كما ذكرتها الأحاديث الشريفة، ومن تلك الآثار:

أولاً: يورث العبد محبة الله تعالى ومحبة عباده الصالحين، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **((ثلاثة يوجبن المحبة: حسن الخلق، وحسن الرفق، والتواضع))**.

((عليك بحسن الخلق فانه يكَسِّبك المحبة)).

((من حَسُنَ خلقه كثر محبوه، وأنست النفوس به)).

((ما استجلبت المحبة بمثل السخاء، والرفق، وحسن الخلق))[2].

ثانياً: يزيل الخطايا والذنوب: فعن عبد الله بن سنان قال: ((قال أبو عبد الله عليه السلام: **أوحى الله تبارك وتعالى إلى بعض أنبيائه: الخلق الحسن يميث الخطيئة**

---

(١) الشيخ محمد أمين زين الدين، الاخلاق عند الإمام الصادق: ١١.

(٢) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٥٥.

كما تميث الشمس الجليد))[١] .

وعنه ﷺ: **((أربع من كنّ فيه كمل إيمانه، وإن كان من قرنه إلى قدمه ذنوباً لم ينقصه ذلك قال: الصدق، وأداء الأمانة، والحياء، وحسن الخلق))**[٢]

ثالثاً: يتم للإنسان نواقص عبادته: وذلك لأن صاحب الخلق الحسن محبوب عند الله؛ ولهذا يقول رسول الله ﷺ: **((إن صاحب الخلق الحسن له مثل أجر الصائم القائم))**[٣] و**((ما يقدم المؤمن على الله عز وجلّ بشيء بعد الفرائض أحب إلى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه))**[٤] .

وعن أبي عبد الله ﷺ قال: **((إن حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم))**[٥] بل يبلغ بحسن خلقه أجر المجاهد في سبيل الله تعالى فعن أبي عبد الله ﷺ **((إن الله تبارك وتعالى ليعطي العبد الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو ويروح))**[٦] ولهذا فحسن الخلق أفضل ما أعطى المسلم فقد سئل رسول الله ﷺعن أفضل ما أعطي المرء المسلم قال: **((الخلق الحسن))**[٧] .

رابعاً: وبحسن الخُلق يفتح الله للإنسان مسارب الحياة الكريمة؛ لأن ((من

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٨/٥٠٤.

(٢) المصدر نفسه:٥٠٣.

(٣) المصدر نفسه: ٥٠٤.

(٤) المصدر نفسه: ٥٠٥.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه: ٥٠٤.

(٧) المصدر نفسه: ٥٠٨.

حسن خلقه سهلت له طرقه))[١] وإنما تفتح السبل لحَسن الأخلاق؛ لأنه محبوب محترم مقدّر مقبول عند الله عند الناس يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**وصول المرء إلى كل ما يبتغيه من طيب عيشه، وأمن سربه، وسعة رزقه، بحسن نيته، وسعة خلقه**))[٢] .

وفي هذا الحديث الذي يدل بذاته على ذاته يتضح أن حسن الخلق يجب أن يكون منبعثاً عن نية خالصة لوجه الله، وبذلك يتحقق للإنسان العيش الهنيء وطيب المعشر؛ لأن ((**من حسنت خليقته طابت عشرته**))[٣] و((**لا عيش أهنأ من حسن الخلق**))[٤] .

والسر في ذلك واضح وهو أن الذي يحسن خُلقه يتعامل بحكمة، وسلامة طوّية، وطيب معشر، وهذا هو مطلوب كل إنسان سليم الفطرة، زكي النفس.

خامساً: وبحسن الخلق يوسع الله رزق الإنسان: وقد دلت على ذلك أحاديث بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

((**بحسن الأخلاق تدر الأرزاق**)) .

((**حسن الخلق يدر الأرزاق ويؤنس الرفاق**)) .

((**في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق**)) .

((**ومن كرم خلقه اتسع رزقه**))[٥] .

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٥٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) علي بن محمد الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ: ٤٤٣.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٦٩/٤٠٠.

(٥) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٥٥.

سادساً: وبحسن الخلق تعمر الديار وتطول الأعمار وبهذا وردت روايات نذكر منها:عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**البر، وحسن الخلق يعمران الديار، ويزيّدان في الأعمار**))[1] .

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: ((**إن الرفق، والبر، وحسن الخلق يعمر الديار، ويزيد في الرزق**))[2] لأن هذه الصفات توجد الألفة، والمحبة، والتعاون والإخاء، ولا شك أن أي مجتمع وجدت فيه تلك الخصال نمى وتقدم، وازدهر، وفي بعض الروايات أن هذه الخصال تطيل الأعمار؛ لأنها توجد الطمأنينة، والرضا والتوافق مع الخصال النفسية العالية.

سابعاً: وبحسن الخلق ينال المرء حسن العاقبة في الدنيا والآخرة، ويدخله الله تعالى في رحمته الواسعة، يقول أبو عبد الله الصادق عليه السلام: ((**من أراد أن يدخله الله في رحمته، ويسكنه، جنته فليحسن خلقه**))[3] .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((**نزل عليَّ جبريل من رب العالمين فقال: يا محمد عليك بحسن الخلق فإنّه ذهب بخير الدنيا والآخرة، ألا وإن أشبهكم بي أحسنكم خلقاً...**)) .

وفي حديث آخر عن الإمام الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: ((**قال رسول الله عليكم بحسن الخلق فإن حسن الخلق في الجنّة لا محالة، وإياكم وسوء الخلق فإنّ سوء الخلق في النار لا محالة**))[4].

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٥٠٤/٨.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٥١/١.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٥٠٨/٨.

(٤) المصدر نفسه: ٥٠٦.

لأن ((**الخلق السيئ يفسد العمل كما يفسد الخل العسل**))[١].

وعن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: ((**ما حَسَّنَ الله خَلْق عبد ولا خُلُقه إلا استحى الله أن يطعم لحمه يوم القيامة النار**))[٢].

إن خصلة هذه عاقبتها؛ لحريّ بكل ذي لب أن يسعى بكل ما أوتي من حول وطول لاكتسابها، والتحلّي بها، فليس وراء الفوز بدار رحمة الله فوز ﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**﴾[٣].

ثامناً: وهو أفضل عون للإنسان على حمل رسالة الله تعالى وتبليغها للعالمين يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((**إن الله رضي لكم الإسلام ديّناً فأحسنوا صحبته بالسخاء، وحسن الخلق**))[٤].

((كيف يكتسب الإنسان حسن الخلق ؟))

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**إن الخلق منحة يمنحها الله خَلقه، فمنه سجية ومنه نيّة**، قلت: فأيّهما أفضل؟ قال: **صاحب السجيّة هو مجبول لا يستطيع غيره وصاحب النيّة يصبر على الطاعة تصبّراً فهو أفضلهما**))[٥].

فإذن لما كان اكتساب الخلق الحسن يحتاج إلى التصبّر فضلاً عن الصبر فلابد إذن من علم ومعرفة، وقدرة وإرادة، وصبر ومعاناة، وخطوات تربوية فنية

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة:٥٠٦/٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) آل عمران: ١٨٥.

(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٥٠٦/٨.

(٥) المصدر نفسه: ٥٠٥.

مدّروسة كي يصل الإنسان إلى مبتغاه، ويمكن أن نحدد تلك العوامل المساعدة لتحقيق ذلك في نقاط:

أولاً: معرفة النفس: هي العنصر الأساسي في اكتساب حسن الخلق.فإن من الحقائق الأساسية في الفكر الإسلامي أن كل الكائنات مسيَّرة وفق سنة كونيّة وضعها الله تعالى لها لا تستطيع أن تحيد عنها أبداً إلا الإنسان، فإنه الكائن الوحيد الذي منحه الله تعالى الاختيار، فهو الذي يختار طريقه بنفسه، ويسلكه باختياره بعد أن هداه الله، وأعطاه القدرة، وأمره بسلوك طريقه، ومنحه قوة التميز والتشخيص بين الخير والشر ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾(١) وقوله تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾(٢).

وبذلك فُضِّل الإنسان على الكائنات الأخرى إنْ عرف نفسه، وانتصر على أهوائه سما علواً فوق كل ما خلق الله تعالى، وعلى العكس من ذلك إن استعبدته شهواته، وسيطرت على عقله فقد جهل نفسه، ونسي ربه، فحينئذ يصبح مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾(٣).

وعن عبد الله بن سنان قال: ((سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: **قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: إن الله ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا**

---

(١) الإنسان: ٣.

(٢) البلد: ١٠.

(٣) الأعراف: ١٧٩.

عقل وركب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقلُه شهوتَه فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم))[١]

ولأجل سمو الإنسان ورفعه إلى أعلى مستويات الكمال اعتنى الإسلام عناية خاصة في تعريف الإنسان بنفسه، وبيان مكانته وموقعه في الحياة والكون والهدف من هذه المعرفة إيصال الإنسان إلى سرّ وجوده وعلّة إيجاده، وهي معرفة ربه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٢].

إن القرآن كتاب هندسة الإنسان لبنائه فكرياً، وروحياً، وسلوكياً... فهو ليس فلسفة نظرية تجريدّية تطرح المقاييس النظرية، ولا يهمها التطبيق، وإنما كل مقياس نظري يطرحه القرآن الكريم والسنة المطهرة إنما هو لأجل العمل والارتفاع به مرتبة في معراج الكمال.

وقد حث الإسلام الإنسان كثيراً على الجدّ في اكتشاف نفسه ومعرفتها وهذه المعرفة ليس من قبيل التعريف بجنسيته: اسمه واسم أبيه ، وتاريخ ميلاده ، وإلى أي حكومة ينتمي، ومن أي ماء وتراب، لأن النفس أسمى من كل تلك الحدود، فهي أمر يمكن أن نسميّه شيئاً من روح إلهية، وبمعرفة هذه النفس يحس بكرامته وشرفه ويتعالى على الوضاعة والانحطاط بحساب أعلى وأسمى، ويعيَ مسؤوليته، ودوره في الحياة، وتصبح المقدسات الأخلاقية والاجتماعية لأجل ذلك ذات معنى وقيّمة عالية عنده.

ونعني بمعرفة النفس ((أن يدرك الإنسان موقعه ومقامه الواقعي في الوجود **(العالم الموجود)** بأنه ليس تراب محض، وإنما هو موجود فيه إشعاع من روح

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٦٤/١١.

(٢) الذاريات: ٥٦.

إلهية، وإنه بهذه المعرفة يستطيع أن يتقدم على الملائكة، وإنه حر ومختار ومسؤول عن نفسه وعن الآخرين، وعن إعمار الأرض، وتعبيد العالم لله، يقول تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1] وبذلك يعرف أنه خليفة الله، وأمينه، وأنه لم يوجد عبثاً، ولم يترك سداً))[2].

ثانياً: عليه أن ينمي عنصر الخير الأخلاقي، ونقصد به أن قسماً من أعمال الإنسان تتم بدون دوافع مادية، بل ولا لأجل دفع ضرر متوقع وإنما تتم تحت تأثير سلسلة من العواطف يمكن أن نسميها (العواطف الأخلاقية).

فالخير الأخلاقي : ((ميزان لكثير من الأعمال الإنسانية، وبعبارة أخرى كثير من أعمال الإنسان تتم وتنجّز بدوافع أخلاقية، وليس بدوافع مادية، وهذا من مختصات الإنسان ومرتبط بالجنّبة المعنوية فيه، والتي هي أحد أبعاده التي تفتقر لها كل الأحياء الأخرى التي لا تمتلك هذا المعيار؛ فإن مفهوم الخير الأخلاقي لا وجود له عند الحيوان؛ لانّ القيم الأخلاقية غير واردة في قاموسه))[3].

ثالثاً: اتخاذ الأسوة الحسنة: إن التأسي مبدأ قرآني صريح واضح في نصوص الذكر الحكيم، ومعناه تَرسّم خطوات الكاملين من البشر، واتخاذ تلك الخطوات دروساً عالية في صحة المنهج، وجديّة الحركة، ودقة السيّر، ثم تصور مواقفهم ومحاكاتها بوعي وإدراك؛ لصبها في قالب يناسب البيئة والمجتمع والظرف المُعاش، وتجسيد تلك المواقف كمصابيح منيرة في طريق تحقيق الأهداف الكبيرة، ولعل من هذا المنطلق جاءت النصوص القرآنية مؤكدة على أهمية التأسي

---

(١) هود: ٦١.

(٢) الشيخ الشهيد مرتضى مطهري: خلاصة عن كتاب جهان بيني إسلامي بالفارسية.

(٣) المصدر نفسه.

بالرسل والأنبياء وخلفائهم الصالحين كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام والأسوة الحسنة الكاملة خاتم الرسل صلوات الله عليهم أجمعين... ولو تأملنا قليلاً في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(١) لأدركنا عظم هذا الأمر، وضرورة إدراكه، والتحرك الواعي فيه... فما أجملها وأروعها من عبارة تهز المشاعر وتثير العواطف النبيلة في روح الإنسان؛ لتزهر فيها مصابيح الهدى حين يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ إنها أمر - بصيغة الإخبار - بالتأسي الحسن، ولكن بأي شخصية؟ وما أعظم تلك الشخصية التي طبعها الله تعالى بطابع الحسن، وصبها في قالب الجمال بكل أبعاده التي تمثلت بالخُلق العظيم الذي يعتبر بحق أعظم شهادة منحتها السماء لأكمل البشرية على الإطلاق، بل قمة كمالها وذروة هذا الكمال عظمة الخُلق يقول المتأسي الأول برسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام: **((ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله كاف لك في الأسوة... فتأس بنبيك الأطيب الأطهر صلى الله عليه وآله فإن فيه أسوة لمن تأسى، وعزاءاً لمن تعزى، وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه والمقتص لأثره))**(٢).

رابعاً: ومن العوامل المؤثرة في اكتساب الخلق الحسن مصاحبة ومرافقة ذوي الخلق العظيم، لأن الإنسان يتأثر بجليسه، ويكتسب من خلاله وخصاله إن أراد، أو لم يرد؛ ولهذا تبرز على الإنسان الندامة يوم القيامة على رفقة ذوي الخصال السيئة وعدم مرافقة الأولياء والصلحاء يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١٦٠.

أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾[(١)].

وقد تواترت الروايات والأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وعن أهل بيته عليهم السلام مؤكدة خطورة الجليس على أخلاق جليسه ومستقبله في الدنيا والآخرة جاء في الحديث الشريف: ((**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**)) وفي حديث آخر: ((**المرء على دين خليله وقرينه**))[(٢)].

فكلمة (على دين خليله) توحي بخطورة الأمر؛ لأنه ينجر إلى الدين، وكل أمر له تأثير على الدين لابد وأن يهتم الإنسان به، ولذا عليه أن يختار ذوي الدين السليم، ليجالسهم، ويصاحبهم، فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**أي الجلساء خير؟ قال: من تذكركم الله برؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغبكم في الآخرة عمله**))[(٣)].

تلك هي شروط الجليس الصالح فهو الذي يشد الإنسان إلى الله تعالى ليهذّب أخلاقه، ويزكي نفسه، ويضعه على جادة الصواب...

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: انظروا من تحادثون فإنه ليس من أحد ينزل به الموت إلا مُثل له أصحابه إلى الله، فإن كانوا خياراً فخياراً وإن كانوا شراراً فشراراً ...**))[(٤)]

وإنما يُمَثَّلونَ له؛ لأنهم من سنخ واحد، وصفات واحدة اكتسبها بعضهم من بعض، وهذا ما أكدته أحاديث أخرى إن الطباع يسرق بعضها من البعض الآخر

---

(١) الفرقان: ٢٧-٢٩.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٩٢/٧٤.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٤١٢/٨.

(٤) المصدر نفسه: ٤١١.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**صحبة الأشرار تكسب الشر كالريح إذا مرت بالنتّن حملت نتناً**))[١].

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: ((**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيّك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة**))[٢].

خامساً: دراسة الإنسان لعاداته، وتقاليده، وأعرافه، وما يتسم به من صفات حسنة، أو قبيحة، ووضعها في الميزان الإلهي؛ لفرز الصالح منها من الطالح، ثم يراجع نفسه وأعماله بين الحين والآخر؛ ليقف على مواضع القوة والضعف والخطأ والصواب في أفكاره وأعماله؛ لينمّي الجوانب الإيجابية، ويصلح الجوانب السلبية، وكل ذلك يتم عن طريق المحاسبة الذاتية، وهي عبارة عن عرض النفس في خواطرها وأفكارها وأعمالها على الميزان الشرعي لينظر الإنسان مدى التزامه بالخط الذي اتخذه لنفسه منهجاً في حياته، وبعبارة أخصر يجب على كل عاقل التوقف قليلاً والنظر إلى الخطوات السابقة لمعرفة مدى استقامة السير، أو مدى انحرافه عن المنهاج الشرعي، وبهذا يحفظ الإنسان استقامته الفكرية والأخلاقية، ويكتسب مناعة قوية ضد جميع الأمراض وتحصل له حصانة نفسية تحفظه من الوقوع في مطبات غير سليمة، وعلى هذا أكدت تعاليم أهل البيت عليهم السلام، فعن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: ((**ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسناً**

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٥٥.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٧٨/١٦، طبعة دار الكتاب العربي بيروت.

استزاد، وإن عمل سيئاً استغفر وتاب))[١] .

إذن لا يمكن للإنسان أن يُقَوِّمَ أخلاقه، ويكتسب الخلق الحسن من دون محاسبة نفسه، وعرض أعماله على كتاب الله، وسنة رسوله؛ لأنه في حالة عدم المراجعة، وغياب المحاسبة الذاتية قد يخرج عن الحدود الشرعية من حيث لا يعلم، وبذلك يقع في الخطأ من حيث لا يشعر؛ ولهذا يلزم على الكادحين إلى الله ((أن يكونوا دارسين لأحوالهم وأوضاعهم، وأن ينظروا إلى أنفسهم هل هم على الخط وإلا فكثير ما شذ مؤمن بسبب ظروف طارئة، أو بسبب فكرة منحرفة عن الجادّة كان يخفيها عن الآخرين، أو كان لا يعرضها للدرس فلما تحكّمت منه برزت بحيث يصعب العلاج، ولا شك أن العاصم هو الله سبحانه ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[٢]))[٣] .

سادساً: تحديد البرنامج اليومي: وهو عامل مهم في اكتساب الأخلاق الحسنة وذلك لأن البرنامج المنتظم السليم يجعل الإنسان خاضعاً لنظام دقيق يبعده عن الحيرة والقلق والاضطراب والتردد...

إن الكون بكل جزئياته خاضع لنظام دقيق وجار في محور هذا النظام، ولا يستطيع الخروج عن سننه وقوانينه، بل خروج أي جزء من أجزاء الكون عن المدار المحدد له يعرضه للفناء والدمار؛ لأن النظام الكوني لا يقبل الخطأ أبداً فهو سائر في محور مرسوم له، ودائر حول قطب ثابت مستقر في حركته. ولما كان الإنسان هو الكائن الوحيد المتميّز على باقي المخلوقات بالاختيار في حياته

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٤٥٣/٢.

(٢) النجم: ٣٢.

(٣) ثقافة الدعوة الإسلامية: ٣٥١/٢ - الطبعة الاولى.

الفكرية، والعملية والأخلاقية إذن لابد أن تكون هـذه المسيرة المختـارة خاضـعة لخطة يومية يضعها الإنسان لنفسه كي يملأ أوقاته بعمل مثمر يعـود عليـه بالراحـة النفسية والعقلية بحيث لا يدع لحظة واحدة تمر عليه إلا،ويستفيد منها فـي مجـال من مجالات الحياة المادية و المعنوية.

وفي البرنامج اليومي من اللازم أن يقسم الإنسان ساعاته اليومية على أعمالـه المادية والثقافية والروحية والاجتماعية.. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ((**للمـؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرم معاشه، وسـاعة يخلـي بـين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل، وليس للعاقل أن يكـون شاخصـاً إلا فـي ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة لمعاد، أو لذة في غير محرم**))[١] .

إن تعيين ساعات النوم، والراحة، والطعام، والعبادة، والعمـل، ولقـاء الإخـوان والدراسة تحفظ النفس من التشتت والضياع والاضطراب، وتبعـدها عـن الارتجـال والتخبط، وضياع الوقت فيما لا طائل فيه، ولا فائدة منه... فإن كان المرء قـد وضـع لنفسه برنامجاً دقيقاً حفظها من كل ذلك، ومـن التخـبط فـي زحمـة الحيـاة ومـن الحركة الفارغة، والمجالس العبثية، وبذلك تكـون حركـة الإنسـان منتظمـة واعيـة تضمن له توازنه الفكري، وسلامته النفسية بعيدة عن الإرهـاق، والإعيـاء والحيـرة، والضياع والتشتت... وهـذا عامـل مهـم فـي تقـويم أخـلاق الإنسـان ، واكتسـاب الملكات الطيبة.

إن وضع البرنـامج اليـومي سـنة حياتيـة مهمـة سـار عليهـا جميـع العقـلاء والحكماء على طول خط التاريخ لما له من أثر كبير في بناء الـنفس وحفظهـا مـن التزلزل والتشتت والضياع.

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: الكلمات القصار: ٣٩٠.

سابعاً: العمل الجاد على تقوية الإرادة فإن إرادة الإنسان هي رمز إنسانيته ولا شك أن الإنسان حين يفقد الإرادة يفقد كل مقومات حياته؛ لأن إرادة الإنسان هي المحرك الأول لقوة العمل، وبقوة هذه الإرادة تكافح الغرائز الشاذة، وتصطدم الميول المتطرفة، وبقوة الإرادة تبتدئ الفضيلة، ويتم التوازن، وقد قرأنا حديث الإمام الصادق عليه السلام: ((**ما ضعف بدن عما قويت عليه النية**))[1] .

الإرادة عزيمة في الإنسان، يُوجِدُ بها ما يروم، ويدفع بها ما يكره،ولها بسائر القوى الإنسانية أسوة فهي تتصف بالقوة والضعف، وقوي الإرادة هو الإنسان العظيم الذي يأتي بالعجائب، ويفعل ما يشبه المعجزات إذا أحسن توجيه إرادته إلى أعمال الخير، ومحاسن الصفات، أما إذا توجه بها إلى أعمال الشرِّ فإنه يجر على نفسه نقصاً آخر لا يقل خطراً عن ضعف الإرادة، والعلماء النفسانيون يذكرون لتقوية الإرادة شروطا، ويدرجونها في عدد من النصائح:

١- عين هدفك الأول قبل أن تبدأ بالعمل، ثم لا تتردد بعد ذلك فإن التردد يضعف الإرادة.

٢- لا تضع وقتك في إيجاد أعمال قليلة النفع، أو ما تكون نتيجة ذهاب الوقت فقط فإن الوقت -كما يقولون- من ذهب.

٣- ثق بأنك قادر على الوصول إلى ما تريد فإن الثقة بالنفس تخفف عنك جهد العمل، وتقطع لك نصف المسافة .

٤- ثابر على العمل، وأتقنه وإن كان شاقاً فإن الفوز نتيجة المثابرة والإتقان

٥- عاود العمل بنشاط أكثر إذا أخفقت في عملك فإن الصعب يسهل والعقدة تحل .

---

(١) الشيخ محمد أمين زين الدين، الأخلاق عند الإمام الصادق: ٤٨.

٦- اجعل نصيباً من منهاجك اليومي للراحة فإن النفس يجهدها العمل المتواصل.

هكذا تنمو الإرادة وتسمو، والرجل العظيم وليد إرادته وأعماله.[١]

ثامناً : الدعاء والتوسل إلى الله تعالى، وطلب العون منه على تهذيب النفس وتقويم الأخلاق جاء في دعاء مكارم الأخلاق للإمام السجاد عليه السلام: ((... **وهب لي معالي الأخلاق، واعصمني من الفخر، اللهم صل على محمد وآل محمد، ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها**، إلى أن يقول عليه السلام : **اللهم لا تدع خصلة تعاب مني إلا أصلحتها، ولا عائبة أؤنَّب بها إلا حسنتها ولا أكرومة فيَّ ناقصة إلا أتممتها** ...)) .

أرأيت كيف يتوسل الإمام السجاد عليه السلام – رغم ما منحه الله من خلق عظيم وأذهب عنه الرجس وطهره تطهيراً – إلى الله تعالى؛ ليمنحه ويهبه معالي الأخلاق ... إذن لابد للمؤمن أن يكون دائماً متوسلاً إلى الله ضارعاً إليه؛ ليعينه على إصلاح نفسه مهما بلغ من سمو الأخلاق.

سادساً: النفس الصابرة:

((**صابرة عند نزول بلائك**)) .

الصبر عصب الحياة الإنسانية، وعمودها الفقري، ولولاه لما استطاع إنسان أن يؤدي واجباً، أو يترك محرماً، ولا يدفع ضيماً ولا يحفظ كرامة ؛ لأن الصبر في جميع شؤون الحياة الإنسانية من عزائم الأمور. فما من شأن من شؤون الإنسان إلا

(١) الشيخ محمد امين زين الدين، الاخلاق عند الامام الصادق عليه السلام.

وهو محتاج فيه إلى الصبر، سواء كان طالب دنيا، أو طالب دين فالصبر إذن قوام الحياة، وبه استقامتها؛ لذلك يتضرع الإمام زين العابدين عليه السلام إلى الله تعالى أن يجعل نفسه صابرة عند نزول البلاء، وهذا شطر من الصبر لا كل الصبر فهناك الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية.

ثم إن الصبر يختلف باختلاف متعلقه ((وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير، ويضادّه الجزع وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضادّه الجبن، وإن كان في نائبة مضجِرة سمي رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتماناً، ويضاده المَذل، وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبراً، ونبه عليه بقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ...وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ... وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾))[1]

وبناء على هذا الشمول لحقيقة الصبر، وامتداده على كل موقع وموقف لا يستغني الإنسان عن الصبر في حال من الأحوال سواء كان قبل العمل، أو في أثنائه أو بعد إنجازه، وقد وصفت أحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام الصبر بأجمل الأوصاف ووضعته في رأس الهرم من مكارم الأخلاق؛ ولهذا جاء في أحاديث أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام بأن الصبر: ((**رأس الإيمان، وثمرة اليقين، وأفضل العُدد، وأقوى الأعوان على كل أمر، وخير جنود المؤمنين، وأول عبادة الموقنين وأشرف الخلائق، وأعلى المواهب، ودعامة الإيمان، وملاك الأمور، وزين الدي ومركب النجاة، وسلاح الموقن، وأثمن كنوز الإيمان، وسبيل النصر، وكفيل الظفر وبه تَخُف الرزايا، وتدفع المكاره، وتسهل الطاعة، وتنال**

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن: ٢٧٣.

المثوبة، وتدرك معالي الأمور، وتحسن العاقبة))[١] .

والصبر بعد ذلك يكشف بواطن الإنسان، ويظهر ما فيه من أسرار وخصال ينسب للإمام الصادق ﷺ أنه قال: ((**الصبر يظهر ما في بواطن العباد من النور والصفاء، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة، والصبر يدّعيه كل أحد، وما يثبت عنده إلا المخبتون، والجزع ينكره كل أحد، وهو أبين على المنافقين لأن نزول المحنة والمصيبة مخبر عن الصادق والكاذب، وتفسير الصبر ما يستمر مذاقه، وما كان عن اضطراب لا يسمى صبراً**))[٢] .

((خصال النفس الصابرة))

من خلال استقراء الأحاديث الشريفة الواردة في هذا الموضوع نعرف أن النفس الصابرة هي التي تواجه الصعوبات والعوائق بقلب منفتح، وروح طافحة بالأمل والرضا مع وقار وسكينة، شاعرة بأن الله معها على كل حال، وهي بعينه لا ينساها أبدا؛ لذلك رأينا رسول الله ﷺ والعالم كله يقف معاكساً ومحارباً له وليس معه ناصر ولا معين إلا الله يقول لصاحبه الخائف المضطرب: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾[٣].

ورأينا الحسين ﷺ والعطش يذيب أحشاءه، ويُذبَح طفله على صدره يرفع طرفه إلى السماء قائلاً: ((**إلهي هوّن عليّ ما نزل بي أنه بعينك**)) .

وموسى بن جعفر ﷺ في طوامير السجون لا يفرق بين الليل والنهار وفي

---

(١) هذه العبارات حول الصبر مقتبسة من الأحاديث الشريفة الواردة في مدح الصبر.

(٢) مصباح الشريعة: ١٨٥.

(٣) التوبة: ٤٠.

أشد حالات الضيق يقول: ((**اللهم إنك تعلم أني كنت أسألك أن تفرِّغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت فلك الحمد**))[١] والمصاديق على ذلك أكثر من أن تحصى.

إذن النفس الصابرة هي التي تواصل كدحها إلى الله رغم المحن والصعوبات والعذاب فلا تَشكو، ولا تتذمر، ولا تقلق، ولا تضطرب، بل ترضى بالمقدور وتحب ما يصنع بها مولاها، تلك هي سمات المؤمنين الصابرين.

يقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ((**لن تكونوا مؤمنين حتى تكونوا مؤتمنين، وحتى تعدوا البلاء نعمة، والرخاء مصيبة؛ وذلك أن الصبر على البلاء أفضل من العافية عند الرخاء**))[٢]، وهذا ما لا تدركه إلا نفوس اندكّت في حب الله، وخرج حب الدنيا من قلوبها حتى تعلم: ((**أن عظيم الأجر لمع عظيم البلاء وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم**))[٣].

سابعاً: الإنسان الشكور:

((**شاكرة لفواضل نعمائك**)): الشكر شعور وإحساس عميق بإفضال المحسن وإبراز هذا الشعور في الواقع الخارجي، وتجسيده إلى عمل - أراده المحسن من إحسانه - ليحقق أهدافه التي أرادها من إنعامه؛ ولذلك قال بعض العارفين: الشكر ثلاثة أضرب: شكر القلب، وهو تصور النعمة، وشكر اللسان، وهو الثناء على المنعم، وشكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ**

---

(١) الشيخ المفيد، الارشاد ٣٠٠.

(٢) الشيخ الطبرسي، مشكاة الأنوار: ٢٧٦.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢/٢٥٢ باب شدة ابتلاء المؤمن.

﴿شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[١].

وأجمع كلمة تبين أن الشكر الحقيقي هو الشكر العملي كلمة أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: ((**فإن الله تعالى قد اصطنع عندنا وعندكم أن نشكره بجهدنا**))[٢] أي إن الشكر الذي يريده الله من عباده هو الشكر العملي الذي يبذل فيه جهداً متواصلاً، فلا يقتصر على اللفظ، وإنما لابد من العمل؛ لأن اللفظ بلا عمل لا قيمة له، ولا اعتبار والذي يبدو من التأمل في الدعاء أن الإمام عليه السلام يتوسل إلى الله تعالى؛ ليجعل نفسه نفساً شكورة، فمن هو الشكور؟ .

إن الإنسان الشكور هو الذي تأصّلت في نفسه صفة الشكر تصوراً وقولاً وعملاً أي إنه بذاته طبع على شكر النِّعم فتحولّت في نفسه إلى صفة أصيّلة لا يستطيع أن يتعداها إلى عكسها ((فهو المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل فيه قلبه ولسانه وجوارحه اعترافاً وكدحاً))[٣] .

وهذا أمر ممكن إذا درّب الإنسان نفسه عليه، وجعله عادة وطبعاً وسلوكاً... وفي أغلب الظن أن الشكر الذي أوعد الله عليه الزيادة بقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾هو الشكر المقصود دون غيره.

وبما أن صفة الشكور صفة إلهية اتخذها الله لنفسه، وقرنها ببعض أسمائه الحسنى، فإن الاتصاف بها يحتاج إلى صفات مساعدة عليها، ومعينة على اكتسابها منها: صفة الصبر، بل صفة المصابرة التي تعني تحمل جهد أكبر من الصبر ((فالصبور هو القادر على الصبر)) ولذا جاء في الحديث القدسي ((**إني أنا الصبّار**))

---

(١) السبأ: ١٣.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: كتاب: ٥١.

(٣) الشيخ الطريحي، مجمع البحرين: ٣/٣٥٣.

فالمصابرة درجة أعلى من الصبر تحتاج إلى جهد ومشقة فهي صبر على صبر قال تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ ولهذا نرى صفة الشكور اقترنت بصفة الصّبار في عدة آيات قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٢).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٣).

ومن مجموع هذه الآيات الكريمة نستخلص أن هناك تلازم بين الاصطبار وبين الشكر ففاقد الاصطبار لا يمكن أن يكون شكوراً؛ لأن الشكر يحتاج إلى طاقة نفسية كبيرة، ومران ورياضة ومجاهدة بإخلاص لله حتى تصبح عادة وطبعاً وسلوكاً «فكن لله عبداً شاكراً على كل حال، تجد الله رباً كريماً على كل حال ولو كان عند الله عبادة تَعبد بها عباده المخلصون أفضل من الشكر على كل لأطلق لفظه فيهم من جميع الخلق بها فلما لم يكن أفضل منها خصها من بين العبادات وخص أربابها فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾»(٤).

---

(١) إبراهيم: ٥.

(٢) لقمان: ٣١.

(٣) الشورى: ٣٢-٣٣.

(٤) مصباح الشريعة: ٢٤.

ثامناً: ذكر النعم الإلهية:

((**ذاكرة لسوابغ آلائك**)): لقد أكد القرآن الكريم، وبصيغة الأمر في موارد متعددة على ذكر نعم الله تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(٢).

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٤).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾(٥).

كل تلك الآيات الكريمة وغيرها واضحة صريحة بوجوب التذكر والذكر

---

(١) البقرة: ٢٣١.

(٢) المائدة: ٧.

(٣) آل عمران: ١٠٣.

(٤) المائدة:١١.

(٥) فاطر:٣.

الدائم لنعم الله تعالى، وليس المقصود ذات النعم، وإنما المقصود ذكر المنعم لأن ذكر النعم يشد الذاكر إلى المنعم، وهو المقصود من تلك الأوامر القطعية المكررة عدة مرات، اذكروا، اذكروا...

وهناك آيات أخرى بيّنت أن كل النعم من الله تبارك وتعالى، يقول تعالى:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[1].

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[2].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[3].

وإنما هذا التأكيد؛ لأن ذكر النعم يرسّخ في القلب حب المنعم فإن الإنسان بفطرته يحب من أحسن إليه، فإذا ذكر نعم الله، وتذكرها بشكل دائم فإن هذا الذكر يزيده انشداداً بالله، وحباً له تعالى، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ((**أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم**))[4].

وفي حديث الإمام الرضا (عليه السلام) قال: ((**قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أوحى الله عز وجل إلى نجيه موسى (عليه السلام): أحببني، وحببني إلى خلقي! قال: يا رب هذا أحبك فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكر لهم نعماي عليهم، وبلاي عندهم فإنهم لا يذكرون أو لا يعرفون مني إلا كل الخير**))[5].

(١) النحل: ٥٣.

(٢) إبراهيم: ٣٤.

(٣) لقمان: ٢٠.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٤/٧٠.

(٥) المصدر نفسه: ١٨.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**أوحى الله تعالى إلى موسى أحببني وحببني إلى خلقي، قال موسى: يا رب إنك لتعلم إنه ليس أحد أحب إليَّ منك، فكيف لي بقلوب العباد؟ فأوحى الله إليه: فذكرّهم نعمتي وآلائي فإنهم لا يذكرون مني إلا خيراً**))[١].

وفي حديث رفع إلى النبي صلى الله عليه وآله قال: ((**قال الله عز وجلّ لداود: أحببني إلى خلقي قال: يا رب نعم أنا أحبك فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكر أياديّ عندهم فإنك إذا ذكرت ذلك أحبوني**))[٢].

إذن الغرض والغاية من ذكر نعم الله تعالى هو تقريب العباد إلى الله تعالى وتعميق حبه في قلوبهم، وتلك غاية سامية يرنوا إليها عباد الله الصالحون ومن هنا رأينا أن الإمام زين العابدين عليه السلام يتضرع إلى الله تعالى أن يجعل نفسه ذاكرة لنعم الله، وركّز على سوابغ النعم، وهي النعم التامة الكاملة الوافية من جميع أطرافها وكل نعم الله كاملة كما في دعاء السحر ((**اللهم إني أسألك من مَنّك بأقدمه وكل مَنّك قديم ...**)).

ويختلف تذكر النعم الإلهية حسب مستوى معرفة الإنسان، ومدى عمق فكره فمن الناس من يحسب النعمة في حدود اللذائذ المادية من المطاعم والمشارب والمراكب، والمناكح، ونعومة الرياش، وترف المعاش، وسعة الدار... وما إلى ذلك وهذا النوع هو من قصر فكره، وضعف علمه فلم يعد يفكر إلا بلذائذ الجسد وهوى النفس الأمارة بالسوء. وأما من أفاض الله عليه من نور المعرفة، وغزارة العلم فإنه ينظر إلى ما وراء ذلك كنعمة الوجود،والفكر،والشعور،والهداية والإيمان،

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٢/٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢.

والولاية... وهذا ما كان رسول الله ﷺ يؤكد عليه ويربي عليه أصحابه فقد روي عنه ﷺ أنه قال في جمع من أصحابه: ((**إني لأتخولكم بالموعظة تَخَوُّلاً مخافة السأمة عليكم، وقد أوحى إليَّ ربي جل وتعالى أن أذكركم بأنعمه، وأنذركم بما أفيض عليكم من كتابه**، وتلا ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ الآية،ثم قال لهم: **قولوا الآن قولكم ما أوّل نعمة رغبكم الله فيها وبلاكم بها** ؟ فخاض القوم جميعاً فذكروا التي أنعم الله عليهم، وأحسن إليهم بها من المعاش والرياش والذّرية والأزواج إلى ساير ما بلاهم الله عز وجلّ به من أنعمه الظاهرة، فلما أمسك القوم أقبل رسول الله ﷺ على علي ، فقال: **يا أبا الحسن قل! فقد قال أصحابك.** فقال: **وكيف لي بالقول فداك أبي وأمي؟ وإنما هدانا الله بك؟** قال: **ومع ذلك فهات قل! ما أول نعمة بلاك الله عز وجلّ وأنعم عليك بها؟**

- أن خلقني جل ثناؤه، ولم أك شيئاً مذكوراً.

- صدقت فما الثانية؟

- أن أحسن بي إذ خلقني فجعلني حياً لا مواتاً .

- صدقت فما الثالثة ؟

- أن أنشأني فله الحمد في أحسن صورة وأعدل تركيب .

- صدقت فما الرابعة ؟

- أن جعلني متفكراً واعياً لا بلهاً ساهياً .

- صدقت فما الخامسة ؟

- أن جعل لي شواعر أدرك ما ابتغيت بها، وجعل لي سراجاً منيراً.

- صدقت فما السادسة؟

- أن هداني لدينه، ولم يضلّني عن سبيله.

- صدقت فما السابعة؟

- أن جعل لي مرداً في الحياة لا انقطاع لها .

- صدقت فما الثامنة ؟

- أن جعلني ملكاً لا مملوكاً .

- صدقت فما التاسعة ؟

- أن سخر لي سماءه، وأرضه، وما فيهما، وما بينهما من خلقه .

- صدقت فما العاشرة ؟

- أن جعلنا سبحانه ذكرانا قواما على حلائلنا لا إناثا، قال صدقت فما بعد هذا ؟ كثرت نعم الله يا نبي الله فطابت ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: **لتهنّك الحكمة، ليهنك العلم يا أبا الحسن فأنت وارث علمي، والمبيّن لأمتي ما اختلفت فيه من بعدي من أحبّك لدينك، وأخذ بسبيلك فهو ممن هدي إلى صراط مستقيم، ومن رغب عن هداك، وأبغضك وتخلاّك لقي الله يوم القيامة لا خلاق له))**[(١)] .

تلك هي النعم التي يذكرها أمير المؤمنين عليه السلام نعمة الوجود، والحياة، وجمال التركيب، والشعور، والإدراك، والهداية، والإنابة إلى الله، والرجوع إليه يوم القيامة ... الخ.

وهذا شأن من سمت نفسه عن تراب الأرض، وتعلقّت بنور السماء، فكل شيء يمر عليه يذكّر ه بالمنعم جل وعلا، والنعم الإلهية سواء كانت معنوية، أو مادية ظاهرية، أم باطنية أكبر من أن يحيط بها إدراك الإنسان، لكن لا ينبغي أن

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٠/٧٠.

ينحصر إحساس الإنسان بنعمة الطعام، والشراب، والنساء، والأولاد، والمساكن والمراكب، وإنما ينبغي أن تتعدى مداركه إلى ما ورائها، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**من لم يعلم فضل نعم الله عليه إلا في مطعمه ومشربه، فقد قصر علمه ودنا عذابه**))(١).

وروى الفخر الرازي في تفسيره عن جابر الجعفي قال: ((دخلت على الباقر عليه السلام فقال: **ما تقول أرباب التأويل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾**(٢) فقلت: يقولون: الظل والماء البارد، فقال: **لو أنك أدخلت بيتك أحداً وأقعدته في ظل واسقيته ماء بارداً أتمن عليه؟** فقلت: لا. قال: **فالله أكرم من أن يطعم عبده ويسقيه، ثم يسأله عنه** فقلت: ما تأويله؟ قال: **النعم هو رسول الله صلى الله عليه وآله أنعم الله به على هذا العالم فاستنقذهم به من الضلالة. أما سمعت قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾**(٣)))(٤).

وعن الإمام الصادق عليه السلام ((**إن الله عز وجلّ أكرم وأجل من أن يطعم طعاماً فيسوغكموه، ثم يسألكم عنه، إنما يسألكم عما أنعم عليكم بمحمد وآل محمد**))(٥).

وقد فسر العلامة الطباطبائي قدس سره هذا المعنى أجمل تفسير فقال: ((أقول: وهذا المعنى مروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بطرق أخرى وعبارات مختلفة، وفي

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٠/ ١٩.

(٢) التكاثر: ٨.

(٣) آل عمران: ١٦٤.

(٤) الرازي، التفسير الكبير: ٨٢/٣٢.

(٥) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٥٤/٢٠.

بعضها أن النعيم ولايتنا أهل البيت، ويؤول المعنى إلى ما قدمناه من عموم النعيم لكل نعمة أنعم الله بها بما أنها نعمة.

بيان ذلك: أن هذه النعم لو سئل عن شيء منها فليست يسأل عنها بما أنها لحم أو خبز أو تمر أو ماء بارد أو أنها سمع أو بصر أو يد أو رجل مثلاً، وإنما يسأل عنها بما أنها نعمة خلقها الله للإنسان، وأوقعها في طريق كماله والحصول على التقرب العبودي كما تقدمت الإشارة إليه، وندبه إلى أن يستعملها شكراً لا كفراً.

فالمسؤول عنها هي النعمة بما أنها نعمة، ومن المعلوم أن الدال على نعيميَّة النعيم، وكيفية استعماله شكراً، والمبيِّن لذلك كله هو الدين الذي جاء به النبي ﷺ ونصب لبيانه الأئمة من أهل بيته فالسؤال عن النعيم مرجعه السؤال عن العمل بالدين في كل حركة وسكون، ومن المعلوم أيضاً أن السؤال عن النعيم الذي هو الدين سؤال عن النبي ﷺ والأئمة من بعده الذين افترض الله طاعتهم وأوجب اتّباعَهم في السلوك إلى الله الذي طريقه استعمال النِّعم كما بينه الرسول والأئمة))[1].

((ما هي النعم التي يذكرها الإنسان ؟))

النعمة لغة هي الحالة الحسنة كما قال الراغب الأصفهاني في مفرداته وهي: ((اليد البيضاء الصالحة والصنيعة والمنَّة. وما أنعم به عليك، ونعمة الله بكسر النون منُّه، وما أعطاه الله العبد مما لا يمكن غيره أن يعطيه إياه كالسمع والبصر))[2].

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٥٤/٢٠.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٥٨٠/١٢.

فكل صنيعة جميلة، وفعل حسن، وإفضال كريم، وإحسان جسيم أو جليل ومِنّة كريمة فهو نعمة، بل كل شيء في حياة الإنسان هو نعمة من نعم الله تعالى ويمكن تقسيم النعم الإلهية بشكل عام إلى عدة أقسام:

أولاً: نعمة الإيجاد: إن وجود الإنسان بذاته نعمة إلهية كبرى، ولولا هذا الخلق، والإيجاد لما كان للإنسان عين، ولا أثر ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[(١)].

وقد أشارت الآيات القرآنية كثيراً إلى هذه النعمة تذكيراً وإيقاظا للإنسان عن الغفلة عنها: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾[(٢)].

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾[(٣)].

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[(٤)].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾[(٥)].

ثانياً: نعمة الإبقاء والاستمرار: وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٦)] فاستمرار الإنسان في الحياة مدة عمره، ورزقه، وعافيته وسلامته، ومسيرته. وكل ما يتعلق بحياته من قريب أو بعيد نعمة من الله لا يستهان بها. وهذه النعمة أو النعم المنطوية في إطارها غير قابلة للعد والإحصاء

---

(١) الواقعة: ٥٨-٥٩.

(٢) الطارق: ٥.

(٣) الزمر: ٦.

(٤) المرسلات: ٢٠.

(٥) الأعراف: ١١.

(٦) النمل: ٦٤.

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[(١)].

ثالثاً: نعمة الدين والولاية الإلهية: يقول تعالى: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا**﴾[(٢)] فإنزال الخطابات الإلهية ، وما تحتويه من تعاليم فكرية وأخلاقية ودستورية لا يأتيها الباطل من بين يديها، ولا من خلفها نعم عظيمة يجب أن يذكرها الإنسان ويشكر الله عليها ﴿**وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ**﴾[(٣)].

فمن أعظم النعم الإلهية نعمة الولاية لأهل البيت عليهم السلام، يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((**نحن والله نعمة الله التي أنعم الله بها على عباده، وبنا يفوز من فاز**))[(٤)] وفي قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ** ﴾[(٥)].

روى العياشي في حديث طويل قال: ((سأل أبو عبد الله عليه السلام أبا حنيفة عن هذه الآية، فقال له: **ما النعيم عندك يا نعمان؟** قال: القوت من الطعام والماء البارد فقال عليه السلام **لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها وشربة شربتها ليطولنّ وقوفك بين يديه**، قال: فما النعيم جعلت فداك؟ قال: **نحن أهل البيت الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد إن كانوا مختلفين، وبنا ألف الله بين قلوبهم بعد أن كانوا أعداءً، وبنا هداهم الله للإسلام، وهي النعمة**

(١) النحل: ١٨.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) البقرة: ٢٣١.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٤٥/٨.

(٥) التكاثر: ٨ .

التي لا تنقطع والله سائلك عن حق النعيم الذي أنعم الله به عليهم وهو النبي وعترته))[١].

فالإسلام، والقرآن، ورسول الله صلى الله عليه وآله، وأهل بيته عليهم السلام نعمٌ عظيمة على البشرية جمعاء لا تدانيها نعمة، ولا يهبها أحد... ومعنى كونهم نعمة هو:مما لا ريب فيه فلولا رحمة الله تعالى ولطفه بإرسال الرسل والأنبياء، وتعيين خلفائهم من بعدهم لتعرضت البشرية إلى الضلال، والفوضى في الدنيا ، والعذاب الأبدي في الآخرة.

رابعاً: نعمة الحواس والجوارح: الحواس الخمسة التي منحها الله تعالى للإنسان، وجعلها طريقاً إلى كسب المعارف والعلوم هي من النعم التي لا يدركها الإنسان في كثير من الأحيان إلا حينما يفقدها، وقد أشار القرآن الكريم مذكراً ومنبهاً لأهميتها في حياتنا، وأن الله هو الواهب لها يقول تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[٢].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾[٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[٤].

كل تلك الآيات أشارت إلى هذه النعم العظيمة على الإنسان من بارئه ولكل من هذه النعم أهمية كبيرة فلولاها لتكدر صفو حياة الإنسان، ولعاش في ظَنَكٍ من

---

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ٨١٣/١٠.

(٢) الأنعام: ٤٦.

(٣) يونس: ٣١.

(٤) المؤمنون: ٧٨.

الحياة، فينبغي أن يتذكر الإنسان نعم الله التي لا تفارقه لحظة من الزمان، ويشكر واهبها.

ويعجبني أن أنقل كلاماً لأحد الكتّاب الغربيين لما فيه من دلالة على ما نتحدث فيه يقول: «إن عبارات فكر واشكر، مكتوبة في كثير من دور العبادة، هذه الكلمات يجب أن تكتب فوق قلوبنا أيضاً: فكر، وأشكر، فكر في كل ما لديك لتكون شاكراً لله على كل ما منحك من نعم وهبات ...» .

«أنت وأنا نستطيع أن نتمتع بخدمات طبيب الرجل المرح مجاناً كل يوم وذلك بأن نركّز انتباهنا على ما نملكه من ثروات لا تصدق - ثروات تفوق بكثير كنوز علي بابا الخرافية .

هل تبيع عينيك مقابل بليون دولار؟ ماذا تأخذ مقابل رجليك؟... يديك؟... حاسة السمع؟... أطفالك؟... أسرتك؟... أضف كل ممتلكاتك سوف تجد أنك لا تبيع ما تملك مقابل كل الذهب الذي جمعه (**فورد**) و(**روكفلر**) و(**مور جانز**) مجتمعين معاً.

ولكن هل نُقَدِّر هذا كله؟ لا، كما يقول شوبنهور: «إننا نادراً ما نفكر في ما نملكه، ولكن دائماً نتذكر ما ينقصنا» نعم إن اتجاهنا بان لا نفكر فيما نملك إلا نادراً، ونظل نذكر دائماً ما ينقصنا لهو أكبر مأساة (تراجيديا) على وجه الأرض وربما تكون السبب في حدوث البؤس أكثر مما تسببه كل الحروب والأمراض على مدى التاريخ»[1] .

خامساً: نعمة النجاة من الشدائد والهلكات: لا شك أن كلاً منا يتذكر ساعة

---

(١) كيف تتمتع بحياتك وبعملك؟ نشر المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع/ جمهورية مصر العربية: ٣٦-٣٧.

من ساعات العسر والشدة في حياته سواء كان وقوعه تحت سلطة إنسان غاشم ظالم، أو ضياع في بر أو بحر، أو حاجة ضرورية لا مفر منها، أو مرض... الخ.

فلو فكرنا وقلنا من الذي أنقذنا وأنجانا من ذلك؟ من الذي فرّج ذلك العسر؟ ومعروف لدى كل من مر بذلك بِمَنْ يتعلق قلبه حيث لا منجي ولا منقذ وإلى هذا المعنى أشارت عدة آيات، لتذكرنا بهذه النعمة التي لا نحس بها إلا حين نفقدها، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[١].

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[٢].

إن الإنسان يتوجه إلى الله في حالات الشدة والعسر بكل إخلاص، إلا أنه غالباً ما ينسى بعد أن تنفرج عنه الشدائد ، ويعود إلى ما كان فيه ، وإلى هذا المعنى يشير الإمام الصادق عليه السلام بقوله لرجل، قال له: ((دلّني على الله ما هو؟ فقد أكثر عليَّ المجادلون، وحيّروني، فقال له: **يا عبد الله هل ركبت سفينة قطّ**؟ قال: نعم. قال: **فهل كُسرت حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك**؟ قال: نعم، قال: **فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك**؟ قال: نعم، قال الصادق عليه السلام: **فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي وعلى الإغاثة حيث لا مغيث**))[٣] .

إن حالة الخروج من العسر إلى اليسر، ومن الشدة إلى الفرج نعمة يحس بها

---

(١) لقمان: ٣٢.

(٢) يونس: ٢٢.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٤١/٣.

الإنسان في حينها، ويشكر الله عليها إلا أننا مع الأسف الشديد بسبب غفلتنا عن الله وللحجب المضروبة على قلوبنا غالباً ما ننسى تلك النعمة حين يمر عليها زمن ولا نذكرها إلا حين نقع بشدة بأخرى، والله عز وجل قد منّ على الأقوام السابقة بذلك وذكرها لنا لنتعظ بها، ونتيقّظ من غفلتنا، بل إن الله يمنّ بذلك على خُلّص عباده يقول تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[(١)].

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[(٢)].

لذلك ينبغي للمؤمن أن يتذكر تلك الحالات فإنّ تَذَكُّرها يشدّ الإنسان إلى الله وتُذكِّره بنعمه؛ ولهذا قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾[(٣)].

إن أي واحد منا حين يتذكر تلك الحالات تجعله يشعر بتدخل اليد الإلهية في نجاته وخلاصه... وكاتب هذه السطور يذكر حالة من ذلك يوم هاجمه البعثيون المجرمون في بيته، وحوصر في سطح ذلك البيت، وليس له منج إلا الله تعالى فاستغاث به، وتوسل إليه بحرمة أوليائه، وإذا باليد الربانية تتدخل ، وتخرجه من ذلك الحصار اللئيم، وتُنْزله من على طابقين إلى الأرض في بيت الجيران بأعجوبة فأنجاه الله من عذاب شديد، أو موت محتم برصاص الظالمين وغير ذلك كثير رأيناه وشاهدناه، ومررنا به إنها لحظات تكشف عن النعم الكبيرة التي أنستنا الذنوب إياها.

---

(١) الأنبياء: ٧٦.

(٢) الصافات: ١١٤-١١٥.

(٣) إبراهيم: ٦.

إن نسيان تلك الحالات العسيرة ينبئ عن دنس نفسي، ونكران للجميل يقول تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[(١)].

تاسعاً: الشوق إلى لقاء الله تعالى:

((**مشتاقة إلى فرحة لقائك**)): المقصود بلقاء الله تعالى هو الرجوع إليه والوقوف بين يديه يوم الحساب ، وظهور الحقائق ، وانكشاف الأستار، يقول العلامة الطباطبائي قدس سره: (والمراد بلقاء الله وقوف العبد موقفاً لا حجاب بينه وبين ربه كما هو الشأن يوم القيامة الذي هو ظرف ظهور الحقائق، قال تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾[(٢)]))[(٣)].

وقيل: ((المراد بلقاء الله المصير إلى دار الآخرة، وطلب ما عند الله،وليس الغرض الموت؛ لأن كلاً يكرهه فمن ترك الدنيا وأبغضها أحب لقاء الله، ومن آثرها وركن إليها كره لقاء الله))[(٤)].

وفي الخبر الصحيح قيل: ((يا رسول الله، إنا نكره الموتَ ! فقال: ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله، وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحبَّ لقاءَ الله، وأحبَّ اللهُ لقاءه، وأن الكافر إذا حضره الموت

---

(١) العنكبوت: ٦٥.

(٢) النور: ٢٥.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٦/٣.

(٤) الشيخ الطريحي، مجمع البحرين: ٣٧٩/١.

بُشِّربعذاب الله فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكَره لقاء الله ، فكَره الله لقاءه))[1]

إن النفس الإنسانية كلما زكت من أدران الذنوب، ومذام الأخلاق ارتفعت عن تراب الأرض، وتحررت من زخارف الدنيا أصبحت أكثر رقة وشفافية وتعلقاً بالعوالم المعنوية، وحينئذ تصبح متطلعة إلى عالم السمو والكمال الروحي والأخلاقي، وتستغرق بحب الله تعالى، وتهيم وتشتاق إلى لقائه حتى تصل إلى درجة أن هذا الشوق يشغلها وينسيها كل شيء حتى يستوي لديها العسر واليسر والشدة والرخاء، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المتقين: ((**نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كُتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم فهم والجنة كمن رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن رآها فهم فيها معذبون**))[2]؛ ولهذا فإن لقاء الله أمنية أولياء الله من الرسل، والأنبياء والأوصياء، وأتباعهم المخلصين، جاء في دعاء الإمام الصادق عليه السلام: ((**اللهم حبب إليَّ لقاءك، واجعل لي في لقائك خير الرحمة والبركة**))[3]

---

(١) صحيح البخاري: ١٩١/٧، وقد نقله جمع من علمائنا منهم: الشهيد الثاني في روض الجنان، والبحراني في الحدائق،والشهيد الأول في الذكرى، والكركي في جامع المقاصد، والمحقق السبزواري في ذخيرة المعاد، والشيخ الجواهري في جواهر الكلام.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٥٨٦/٢.

((بماذا أحببت لقاء الله ؟))

سئل أمير المؤمنين عليه السلام: ((بماذا أحببت لقاء الله؟ قال: **لما رأيته قد اختار لي دين ملائكته ورسله وأنبيائه علمت أن الذي أكرمني بهذا ليس ينساني**))(١).

ودلالة ذلك أن الذي يعلم ويعي أن الله جعل دينه كرامة وعزة وشرفاً لعباده سوف لن ينسى الله لحظة واحدة، وإنما سيكون مشغولاً بذكره قولاً وفعلا وهذا يُصعِّد من تعلقه بالله، وهكذا حتى يصل درجة الشوق إلى لقائه تعالى يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**يا أيها الناس... نعيت إليَّ نفسي، واقترب أجلي، واشتد مني الشوق إلى لقاء ربي ...**))(٢).

وروي أن الله أوحى إلى داود عليه السلام: ((**من أحب حبيباً صدَّق قوله، ومن أنس بحبيب قَبل قوله، ورضي فعله، ومن وثق بحبيب اعتمد عليه، ومن اشتاق إلى حبيب جدَّ في السير إليه، يا داود ذكري للذاكرين، وجنتي للمطيعين، وزيارتي للمشتاقين وأنا خاصة للمطيعين**))(٣).

وفي رواية عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام قال: ((**أخبرني أبي عن جدّي محمّد بن علي عليهما السلام قال: قد جمع رسول الله صلى الله عليه وآله المهاجرين، فقال لهم: أيها الناس إني قد دعيت، وإني مجيب دعوة الداعي، قد اشتقت إلى لقاء ربي واللحوق بإخواني من الأنبياء ...**))(٤).

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٢٧/٦.

(٢) المصدر نفسه: ٣٧٣/٧٦.

(٣) المصدر نفسه: ٤٠/١٤.

(٤) المصدر نفسه: ٤٧٨/٢٢.

ولا يعني الشوق إلى لقاء الله الانقطاع عن خلقه، والانعزال عنهم، والفرار منهم بل يعني الجدية في الدعوة إلى الله لإرجاع الخلق إليه تعالى، وتعبيدهم له فقد روي ((أن داود عليه السلام خرج مصّحِراً منفرداً فأوحى الله إليه: **يا داود ما لي أراك وحدانياً** ؟ فقال: **إلهي اشتد الشوق مني إلى لقائك، وحال بيني وبيّنك خلقك** فأوحى الله إليه: **ارجع إليهم فإنك إن تأتني بعبد آبق أثبّتك في اللّوح حميداً**))(١)

إذن الشوق إلى لقاء الله تعالى له بُعْدان:

الأول: بُعد ذاتي بين العبد وربه فيه:حب، وشوق، وحنين، وخوف، ورجاء وتفجع،وبكاء من خوف الفراق.

والثاني: بُعد اجتماعي: وهو أن هذا الشوق إلى الله يدفعه لبذل أقصى الجهود لإرجاع الناس إلى الله تعالى؛ ولهذا لا يجد المؤمن الراحة إلا في لقاء الله تعالى في نيل رضوانه، وتنفيذ أوامره ؛لتعبيد خلقه إليه تعالى جاء عن الصادق عليه السلام ((**لا راحة لمؤمن على الحقيقة إلا عند لقاء الله تعالى**))(٢) .

وفي مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله قال عليه السلام: ((**وما الراحة؟** قال صلى الله عليه وآله: **لقاء الله تعالى**))(٣) .

((من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه))

تلك هي الحقيقة التي لا مراء فيها، والتي صرح بها المعصومون عليهم السلام: ((**إن الله يحب لقاء من يحب لقاءه**)) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((قلت له: أصلحك الله

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٤١/١٤.

(٢) المصدر نفسه: ٦٩/٧٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣٨٣/٣٥.

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه؟ ومن أبغض لقاء الله أبغض الله لقاءه؟ قال: **نعم** قلت: فوالله إنا لنكره الموت! فقال: **ليس ذاك حيث تذهب، إنما ذلك عند المعاينة إذا رأى ما يحب فليس شيء أحب إليه من أن يتقدم، والله يحب لقاءه وهو يحب لقاء الله حينئذ، وإذا رأى ما يكره فليس شئ أبغض إليه من لقاء الله عز وجلّ والله يبغض لقاءه**))[1] .

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: ((**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**))[2] .

((الاستعداد للقاء الله تعالى))

قال أفلاطون: ((فلكي تحيا، وتفكر في حياة وفِكْرٍ حقيقيين معناه أن تستعد للموت)) .

إنه لأمر رهيب مرعب يوم يقف العبد بين يدي الله حيث تكشف سرائره ولا تخفى منه خافية يقول الله تعالى:

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾[3].

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[4].

نعم، تظهر حقائق الأعمال، ومخفيات السرائر أمام الله تعالى، وعلى رؤوس

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٢٩/٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٣.

(٣) الحاقة: ١٨.

(٤) غافر: ١٨.

الأشهاد ، وتشهد على الإنسان جوارحه، وتظهر جميع مكنونات نفسه ، وما كان يخفيه على الناس: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾(١).

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

ولهذا يتعجبون كيف تشهد عليهم جوارحهم: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾(٣).

تلك هي الحسرة العظمى والمصيبة القاصمة التي تحل بالإنسان حيث تشهد عليه جوارحه، وتظهر سيئاته أمام الملأ، وهي الفضيحة العظمى والخزي؛ ولهذا وجدنا أنبياء الله مع عصمتهم وطهارتهم يتعوذون بالله من هذا الخزي العظيم يقول تعالى عن لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۞ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾(٤).

هذا ما ينتظر الإنسان فماذا يجب أن يعمل؛ لينجو في هذا الموقف الرهيب؟ وماذا يجب أن يعد من عمل؛ ليقف مسروراً مرفوع الرأس تحت راية الحمد؟ .

ولهذا كان أهل البيت عليهم السلام يؤكدون لشيعتهم دائماً على وجوب الاستعداد لهذا السفر الطويل، والموقف الرهيب، بل أرادوا منا أن نجعل كل أعمالنا من الواجبات والمستحبات استعداداً لهذا اللقاء المخيف فعن أبي محمد العسكري

---

(١) يس: ٦٥.

(٢) فصلت: ١٩-٢٠.

(٣) فصلت: ٢١.

(٤) الشعراء: ٨٧-٨٩.

عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: ((**قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: ما الاستعداد للموت؟ قال: أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والاشتمال على المكارم، ثم لا يبالي إن وقع على الموت، أو وقع الموت عليه، والله ما يبالي ابن أبي طالب إن وقع على الموت أو وقع عليه الموت**))[١] .

وعن الإمام علي بن محمد عليهما السلام قال: ((**قيل لمحمد بن علي بن موسى عليهم السلام: ما بال هؤلاء المسلمين يكرهون الموت؟ قال: لأنهم جهلوه فكرهوه...ثم قال: يا أبا عبد الله ما بال الصبي والمجنون يمتنع من الدواء المنقي لبدنه والنافي للألم عنه؟ قال: لجهلهم بنفع الدواء، قال: والذي بعث محمداً بالحق نبياً إن من استعد للموت حق الاستعداد فهو أنفع له من هذا الدواء لهذا المتعالج، أما أنهم لو عرفوا ما يؤدي إليه الموت من النعيم لاستدعوه ، وأحبوه أشد ما يستدعي العاقل الحازم الدواء؛ لدفع الآفات، واجتلاب السلامة**))[٢] .

ففي كل فريضة يؤديها المؤمن، وكل محرم يجتنبه، وكل خصلة كريمة ينالها إنما يستعد بذلك للسفر الطويل، ولنتأمل قليلاً فيما نسب للإمام الصادق عليه السلام يقول: ((**واعلم بأن الله لم يفترض الحج، ولم يخصه من جميع الطاعات بالإضافة إلى نفسه بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ولا شرع نبيه في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه للاستعداد والإشارة إلى الموت، والقبر والبعث ...**))[٣] ويقول الإمام السجاد عليه السلام: ((**إنما الاستعداد للموت،**

(١) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا: ٢٩٧.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٥٦/٦.

(٣) مصباح الشريعة: ٤٩.

تجنب الحرام وبذل الندى))[١] .

((اللهم ارزقني الاستعداد عند الموت، واكتساب الخير قبل الفوت،حتى تجعل ذلك عدة لي في آخرتي، وأنساً لي في وحشتي يا ولي نعمتي))[٢] .

عاشراً: خير الزاد:

((**متزودة التقوى ليوم جزائك**)): كل المطالب المتقدمة في البحث، وما تتضمنه من خصال كريمة لا يمكن أن تتحقق بدون التقوى؛ وذلك لأن الاستمرار في السير والسلوك إلى الله يحتاج إلى زاد يغذيه، ويقويه، ويدفعه ، ويحميه، وليس لذلك غير تقوى الله تعالى يقول تعالى: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾[٣] وإنما هي خير الزاد ؛ لأنها هي التي تعين المؤمن على مواصلة السير والكدح إلى الله، وتحفظه من الزلل والسقوط، فما هي التقوى؟ .

والجواب: إن التقوى حالة روحية عالية تترسخ في النفس، وتحمي جميع المقامات الأخرى من الانحراف، والتعب، والسقوط، وبعبارة أوجز (مقاومة إيجابية إزاء المخالفات الشرعية).

والتقوى أفضل ضمانة لاستقامة الإنسان على دينه، وأقوى قلعة حصينة تحمي الإنسان من تسويلات النفس وهواها، والشيطان وأحابيله، وخير معين على تجاوز عقبات المسير، ومكايد الأعداء، يقول تعالى: ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٦٦/٤٦.

(٢) المصدر نفسه:٤٤٩/٩٥.

(٣) البقرة: ١٩٧.

يضركم كيدهم شيئا ﴾[١] وبها يُصْلح الله عمل المؤمن، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[٢] وبها يؤيد الله عباده وينصرهم، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[٣] وبها يتقبل الله أعمال عباده، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٤] وبها يكرم الله الإنسان، ويعزه في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٥] وبها يغفر الله ذنوب عباده، يقول تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٦] وبها ينجي الله عباده من النار، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾[٧] و﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾[٨] وبها يخلد الله عباده في دار رحمته في جنات عدن، يقول تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[٩].

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[١٠] وبعد هذا يظهر من الدعاء أن الإمام عليه السلام يريد أن يوجد الحافز والمحرك الذي يجعل النفس تسعى دائماً؛ لنيل هذه الكرامة الإلهية، ولا

---

(١) آل عمران: ١٢٠.

(٢) الأحزاب: ٧٠-٧١.

(٣) النحل: ١٢٨.

(٤) المائدة: ٢٧.

(٥) الحجرات: ١٣.

(٦) الصف: ١٢.

(٧) مريم: ٧٢.

(٨) الليل: ١٧.

(٩) آل عمران: ١٥.

(١٠) آل عمران: ١٩٨.

تقف عن الطلب في أي حال من الأحوال؛ لأنها إذا كانت ساعية وطالبة بصورة دائمة للتقوى فسوف تتقرب إلى الله تعالى، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**فإن التقوى في اليوم الحرز والجُنة، وفي غد الطريق إلى الجَنة، مسلكها واضح، وسالكها رابح ، ومستودعها حافظ، لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين منكم، والغابرين لحاجتهم إليها غداً إذا أعاد الله ما أبدى، وأخذ ما أعطى**))(١) .

ويقول عليه السلام: ((**فإن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالب، وينجو الهارب، وتنال الرغائب**))(٢) .

ويقول عليه السلام: ((**أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى، والأبصار اللامحة إلى منار التقى؟ أين القلوب التي ذهبت لله، وعوقدت على طاعة الله**))(٣) .

وقال عليه السلام: ((**عباد الله إن تقوى الله حمت أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم، فأخذوا الراحة بالنصب والريّ بالظمأ، واستقربوا الأجل، فبادروا العمل، وكذبوا الأمل، فلاحظوا الأجل**))(٤) .

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١٩١.

(٢) المصدر نفسه: خطبة: ٢٣٠.

(٣) المصدر نفسه: خطبة: ١٤٤.

(٤) المصدر نفسه.

الحادي عشر: الاستنان بسنة أولياء الله:

((**مستنة بسنة أوليائك**)): السنة في اللغة: ((الطريقة المسلوكة، وأصلها من قولهم سننت الشيء بالمسن إذ أمررته عليه حتى يؤثر فيه سنن أي طريقاً))(١)

وفي الاصطلاح الخاص يراد بها طريقة النبي صلى الله عليه وآله، وأوصيائه عليهم السلام قولاً وفعلاً، وتقريراً.

وقيل السنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة، أو هي الطريقة المعتادة سواء كانت حسنة، أو سيئة كما في الحديث: ((**من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها**)) وقال في ضده: ((**من سن سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها**))(٢) . وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**أيما عبد من عباد الله سنَّ سنَّة هدى كان له أجر مثل أجر من عمل بذلك، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وأيما عبد من عباد الله سنَّ سنَّة ضلالة كان عليه مثل وزر من فعل ذلك، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**))(٣) .

وسنة الله: أحكامه في أوامره ونواهيه، وما وضعه من قوانين للكون والحياة وهدى الخليقة إليها، ووضعها على جادة رشادها؛ لتأخذ دورها الطبيعي الذي خلقها من أجله، وسنها للناس بيَّنها أي بيَّن طريقاً قويماً، قال الله تعالى: ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ** ﴾(٤) فالاستنان بسنة أولياء الله هو الاهتداء بنورهم

---

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسيرالقرآن: ٢١/٤، والسيد محمد تقي الحكيم، أصول الفقه المقارنة: ١٢١.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٠٤/٧٤.

(٣) المصدر نفسه: ٢٥٨/٧١.

(٤) الأحزاب: ٦٢.

والاقتداء العملي بهداهم، أي السير في خطوات منهجهم، يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[١].

ولابد أن نشير: أنه ليس الاستنان حفظ أقوالهم، ومعرفة مصادرها وأسانيدها، والتغني بها، وإنما الاستنان في هذا الدعاء هو: التطبيق العملي لأقوالهم وأفعالهم، يقول الإمام السجاد عليه السلام: ((**أبغض الناس إلى الله من يقتدي بسنة إمام ولا يقتدي بأعماله**))[٢] وبهذا المعنى وردت أحاديث أهل البيت عليهم السلام تحث على الأخذ بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: ((**واقتدوا بهدى نبيكم فإنه أفضل الهدى، واستنوا بسنته فإنها أهدى السنن**))[٣] كما جاء عنهم عليهم السلام: ((**فمن كان من شيعتنا فليقتد بنا، وليستن بسنتنا**))[٤].

وفي وصية الإمام الصادق عليه السلام لشيعته قال: ((**أيتها العصابة الحافظ الله لهم أمْرَهُمْ عليكم بآثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسنته، وآثار الأئمة الهداة من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله من بعده وسنتهم، فإنه من أخذ بذلك فقد اهتدى، ومن ترك ذلك ورغب عنه ضلَّ؛ لأنهم الذين أمر الله بطاعتهم وولايتهم**))[٥].

وكما حثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام على الالتزام بسنتهم فقد حذرونا من مخالفة سننهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**ومن خالف سنتي فقد ضل، وكان عمله في تباب[٦] أما إني أصلي، وأنام، وأصوم، وأفطر، وأضحك، وأبكي فمن**

(١) الأنعام: ٩٠.
(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٨/ ١٣٨.
(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١١٠.
(٤) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ٤/١٦.
(٥) ثقة الإسلام الكليني، الروضة من الكافي: ٨/٨
(٦) التباب: الخسران.

رغب عن منهاجي، وسنتي فليس مني))[١].

وفي حديث آخر قال عليه السلام: ((... **ومن رغب عن سنتي فليس مني))**[٢] وعن الأصبغ بن نباته قال: ((قال أمير المؤمنين عليه السلام: **ما بال أقوام غيَّروا سنَّة رسول الله، وعدَلوا عن وصيّه؟ لا يتخوفون أن ينزل بهم العذاب**، ثم تلا هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[٣] ثم قال: **نحن النعمة التي أنعم الله بها على عباده، وبنا يفوز من فاز يوم القيامة))**[٤].

والنفس المستنة هي النفس التي زكت من الآثام والأدران، وطهرت من ذمائم الأخلاق، فأصبحت قابلة لتلقى النور الإلهي، ولهذا تراها رقيقة شفافة تطلب الخير والحق، والهدى، والصلاح، ولا تبغي عن ذلك بدلاً.

الثاني عشر: مخالفة أخلاق أعداء الله:

((**مفارقة لأخلاق أعدائك**)): لأولياء الله أخلاق يتميزون بها، تحددها عقيدتهم بالله تعالى، ويجسدون تلك الأخلاق من خلال التزامهم بالقوانين المشرّعة لهم من قبل الله تعالى فالعدالة، والشجاعة، والعفة، والحكمة، وما يتفرع منها من خصال كريمة هي أخلاق إلهية كل من يلتزم بها التزاماً واعياً نابعاً عن معرفة دقيقة بعقيدة التوحيد، وتطبيقا لأحكام الشريعة المقدسة فهو من أولياء الله تعالى.

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٨٥/١.

(٢) المصدر نفسه: ٤٩٦/٥.

(٣) ابراهيم: ٢٨-٢٩.

(٤) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢١٧/١.

ولأعداء الله أخلاق خاصة يُعرفون بها، نابعة من عدم اعتقادهم بالله تعالى تلك هي: الفسق، والنفاق، والشرك، والبغي... الخ. وما يتفرع منها من شعب الكفر أقول هذا لأنني أعتقد أن تصورات الإنسان ورؤاه نحو الكون والحياة والإنسان هي التي تحدد مساره في الحياة، وترسم سلوكه الأخلاقي مع نفسه، ومع الناس، ومع الطبيعة؛ لأن العقيدة في حياة الإنسان لها دور كبير في التزاماته اليومية وتحديد ما هو حلال وما هو حرام... ومع التزام بذلك لابد أن يكون له تأثير في نفسه وسلوكه.

والإمام السجاد عليه السلام في دعائه: اللهم اجعل نفسي ((**مفارقة لأخلاق أعدائك**)) يطلب من الله تعالى أن يعينه على تزكية نفسه، ويميزها عن أخلاق أعداء الله - رغم أن نفسه المقدسة قد طهرها الله من جميع الأرجاس -؛ لأن أخلاق أعداء الله هي أرذل الأخلاق على الإطلاق.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يعرف هاتين الأخلاقيتين: أخلاق أولياء الله، وأخلاق أعداء الله ؛ ليلتزم بالأولى، ويفارق الثانية، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

((**واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تَعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه فالتمسوا ذلك من عند أهله، فإنهم عيش العلم، وموت الجهل هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرهم عن باطنهم؛ لا يخالفون الدين، ولا يختلفون فيه فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق**))[(١)] .

فهنا اشترط أمير المؤمنين عليه السلام لمعرفة الرشد بمعرفة التارك لسبيل الرشد وهو من باب أن الشيء يعرف بنقيضه، وهذا دليل على وجوب معرفة المجتمع

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١٤٧.

البشري الذي نعايشه بمختلف ملله، وطوائفه، وعاداته، وتقاليده، بل ينبغي أن نعرف كيف يفكرون، وكيف يخططون، وكيف ينفذون؟ لنستطيع مواجهتهم ودحرهم، ومخالفة أخلاقهم؛ ولهذا نجد أن القرآن في الوقت الذي يتحدث عن الأنبياء والمرسلين يتحدث عن الطواغيت الذين يحاربونهم،كما نجد أن علماء الاجتماع يدرسون عادات، وتقاليد، وأعراف، وأخلاق الشعوب والأمم ، ويبذلون الكثير من الوقت والمال والجهد كل ذلك؛ لتحديد أساليب النفوذ والسيطرة، واستلاب الخيرات والتسلط على مقدرات تلك الأمم والشعوب فحري بنا أن ندرس ذلك بدقة ووعي وهدفية بناءة؛ لنعرف كيف ننشر رسالة الله، ولا سيما اليوم بعد أن أصبح العالم بمثابة مدينة واحدة.

((من أخلاق أعداء الله اليوم))

لأعداء الله اليوم، وفي كل مجال من مجالات الحياة، مناهج مبنية على تخطيط محكم ففي مجال السياسة مثلاً ((الغاية تبرر الوسيلة)) مهما كانت الوسيلة قذرة وظالمة يمكن استعمالها إذا كانت تحقق الغاية التي يبغونها، ولو أدت إلى إبادة شعوب بكاملها، وهذا ما حصل كثيراً كما في حادثة هروشيما، وحادثة حلبجة وحرب فيتنام... وغيرها. وشعارهم في ذلك يقول: ((تخلص من الضمير ومن الشفقة والرحمة... تلك المشاعر التي تطغى على الحياة الإنسانية الباطنية اقهر الضعفاء، واصعد على جثثهم)) .

وهذا معناه ممارسة السياسة بلا إنسانية، ولا أخلاق لأن ((السياسة -عندهم - لا تتفق مع الأخلاق في شيء. والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسي بارع، وهو لذلك غير راسخ على عرشه.

لابد لطالب الحكم من الالتجاء إلى المكر والرياء فإن الشمائل الإنسانية

العظيمة من الإخلاص، والأمانة تصير رذائل بالسياسة، وأنها تبلغ في زعزعة العرش أعظم مما يبلغه ألد الخصوم. هذه الصفات لا بد أن تكون هي خصال البلاد الأممية (غير اليهودية) ولكننا غير مضطرين إلى أن نقتدي بهم على الدوام))[(١)] وبهذا حولوا العالم إلى غابة يحكمها المخلب والناب، فنبذوا الحب والرحمة، وبرروا العنف والكراهية؛ ولهذا فهم يحكمون على الأعمال بالنتائج المترتبة عليها لا بالدوافع المنبعثة منها...

ومن أخلاق أعداء الله تعالى أنهم تحكم سلوكهم النفعية، والمصلحية والأنانية بأبشع صورها، والأَمَرّ من ذلك أنهم اعتبروا ذلك هو الفضيلة الكبرى في الحياة، ونظّروا لذلك، وجاءوا بمذهب سموه`المذهب النفعي في الأخلاق وخلاصته كما يقول بنتام: ((وضعت الطبيعة الإنسان تحت رحمة وسيادة سيدين هما: الألم واللذة وبالإشارة إليهما فحسب علينا أن نحدد ما ينبغي أن نفعله، فمن جانب أول نجد لدينا معيار الصواب والخطأ، ومن جانب آخر يرتبط بعرشهما سلسلة العلل والمعلولات وهذان الجانبان مشدودان إلى عرش هذين السيدين))[(٢)]

ويقول نيتشه: ((علينا أن نتمتع بالدنيا، وكلما كان ذلك أكثر كان خيراً، وكلما يعين على بلوغ هذه الغاية - حتى وإن تميز بالقسوة، والمكر، والخداع والاحتراب- يكون حسناً، وكلما يحول دون بلوغ هذه الغاية - وإن تميز بالصدق والاستقامة، والمحبة، والفضيلة، والتقوى - يكون قبيحاً))[(٣)] .

ويعجبني أن أنقل تعليق علي عزت بيجوفيتش الرئيس البوسني حيث قال:

---

(١) الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون: الطبعة الرابعة: ١٠٦.

(٢) مابوت، مقدمة في الأخلاق: ترجمة الدكتور ماهر عبد القادر محمد علي.

(٣) الأستاذ محمد تقي الفلسفي، الأخلاق من منظور التعايش والقيم الإنسانية: ٤٢/١.

((هذه النظرة تجعل من الأخلاق مجرد أنانية مهذبة. مَصلحة فـرد مفهومـة ومقـدرة إنما يتدخل العقل؛ ليحوّل العقل الرغبة فـي اللـذة إلـى مطلـب أخلاقـي، ويفسـح الذكاء والذاكرة الرؤية أمـام الإنسـان؛ ليـرى الماضـي والمسـتقبل، بالإضـافة إلـى الحاضر، وهكذا لا يحفز سلوك الإنسان فقط مصلحته الحاضرة الآنيّة، وإنما النهايـة السعيدة في كليتها، وفي ضوء هذه الحسبة يحول الإنسـان مشـاعر الألـم واللـذة - وهي حقائق بيولوجية حيوانية داروينية - إلى مفهومي الخير والشر فـالخير والشـر ليسا سوى اللـذة والألـم تضـاعفا بالفطنـة والتفكيـر والحسـاب، وهكـذا تنحصـر أخلاقيات المنفعة في حدود الطبيعـة، وينحسـر بصـرها عنـد أسـوار هـذا العـالم الدنيوي فهي لا يمكن أن تتقدم وراء حدود المصلحة لكي تصبح أخلاقية بالمعنى الأصيل لهذه الكلمة))(١) .

فالأخلاق والتي هي معنى إنساني معنـوي عميـق فـي الـنفس، تتحـول إلـى وسائل لجلب المنافع المادية فقط وفقط؛ ولذلك حللـوا الربـا، والغـش، والتحايـل والمكر...، وشن الحروب للكسب المادي.

ومن أخلاق أعداء الله نشر الإفساد الأخلاقي، واتخاذه طريقاً للسـيطرة علـى الشعوب، وتجاوزوا بذلك كل القيم الإنسانية، ونتيجة ذلك - ولا سيما في عصرنا- انتشر الفساد بشكل رهيب فـ((وفقاً للإحصائيات المنشورة مـن قبـل دولـة ألمانيـا الغربية على أثر معاشرة جنود الدول المنتصرة مع النساء الألمانيات، ولد مائتا ألـف طفل غير شرعي في ألمانيا... وهذا العدد عُشر عدد المواليـد غيـر الشـرعيين سـلم عن الإسقاط، أو القتل بيد الأمهات، فهم الآن تحت رعاية الحكومة الألمانية خمسة

---

(١) علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب: ٢٠٠/ طبعة مؤسسة بافاريا.

آلاف منهم من السود)) .

((وليس سائر الدول الغربية بأقل حظاً من ألمانيا، وإن أكثر شيء ألماً هو التقرير الذي قدم إلى مجلس الأمور الأخلاقية (نوتهاميتون) في مركز بريطانيا كشف الستار فيه عن أن عدد الأطفال غير الشرعيين في (نوتهاميتون) أكثر من خمسين بالمائة من معدل كل الأطفال في هذه الناحية...)) .

وقد أعلن جون كندي رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٦٢م يقول: ((إن لأمريكا مستقبلاً مؤلماً إذ الشباب انحلاليون وغارقون في الشهوات وغير مستعدين، لأن يقوموا بما يحول عليهم فمثلاً من كل سبعة من الشباب يدخلون في الجندية يخرج ستة منهم ضعفاء غير لائقين، ذلك أن إفراطهم في شهواتهم قد استنفذ منهم استعداداتهم النفسية والجسدية))(١) .

هذه بعض مصاديق أخلاق أعداء الله اليوم، وما نراه في الأوساط الاجتماعية في عالم اليوم لا يعد ولا يحصى، بل لا تكاد تخلو منه بقعة في هذه المعمورة...

ذكرت ذلك وأعرضت عن ذكر الجرائم الأخلاقية التي دونها المؤرخون لانتشارها وتداولها في معظم دول العالم.

ولنرجع إلى ما تحدث به رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام؛ لنعرف من خلال كلماتهم ما نهوا عنه من الرذائل الأخلاقية المجافية لروح الإيمان وسلوك المؤمن، ويمكن أن نستوحي من تلك الأحاديث أن تلك الرذائل هي أخلاق أعداء الله، وإن برزت على بعض من يدعي الإيمان، ويتلبس بثوبه كذباً وزوراً وقد عقد الشيخ الكليني قدس سره في سِفره العظيم باباً أسماه أصول الكفر وأركانه ذكر فيه تلك الرذائل الخلقية من خلال الأحاديث الشريفة، وبعضها أشارت إلى ممارسات عملية هي

---

(١) السيد مجتبى اللاري، كتاب الإسلام والحضارة الغربية: ٤٤-٤٧.

إفراز لتلك الأخلاق الردية نذكر من تلك الأحاديث على سبيل الاختصار:

١- عن أبي بصير قال: ((قال أبو عبد الله عليه السلام: **أصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار، والحسد. فأما الحرص فإن آدم حين نهي عن الشجرة حمله الحرص على أن أكل منها، وأما الاستكبار فإبليس حيث [حين] أمر بالسجود لآدم فأبى وأما الحسد فابنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه**))[(١)] .

٢- وعن أبي عبد الله عليه السلام ((**إن رجلاً من بني خثعم جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: أي الأعمال أبغض إلى الله عز وجلّ؟ فقال: الشرك بالله، قال: ثم ماذا؟ قال: قطيعة الرحم، قال: ثم ماذا؟ قال: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف**))[(٢)] .

٣- وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أخبركم بأبعدكم مني شبهاً؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الفاحش، المتفحش، البذيء البخيل المختال، الحقود، الحسود، القاسي القلب، البعيد من كل خير يرجى غير المأمون من كل شر يتّقى**))[(٣)] .

٤- وعن جابر بن عبد الله قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **ألا أخبركم بشر رجالكم؟** قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: **إن من شرار رجالكم البهّات**[(٤)]**، الجريء الفحّاش، الآكل وحده، والمانع رفده، والضارب عبده، والملجئ عياله إلى غيره**))[(٥)] .

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢/٢٨٩.

(٢) المصدر نفسه:٢٩٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢٩١.

(٤) البهّات: المبالغة من البهتان.

(٥) المصدر نفسه: ٢٩٢.

تلك هي بعض الأخلاق الذميمة التي أشارت إليها الأحاديث الشريفة وقد أشارت أحاديث أخرى لأخلاق مذمومة أخرى في نفس الباب:كالكذب والمكر، والغدر، والخديعة، والظلم، والبغي، والكيد، والخرق، والتهور والعصبية، والقسوة، والغل، والحقد، وسوء الظن بالله تعالى، والرياء... الخ وغيرها كثير، وقد حذّر الإسلام من تلك الأخلاق ترغيباً وترهيباً؛ ليحفظ الإنسانية من هوة سوء الخلق الذي هو مَعْلَم بارز من معالم الخروج عن مبادئ الحق والعدل والإنسانية.

وهكذا فإن النفس المؤمنة إذا استننت بسنن أولياء الله، وسارت على هداهم بوعي، وإخلاص، وتجرد لله تعالى فهي لا محال تفارق أخلاق أعداء الله تعالى. اللهم **((ألبس قلبي الوحشة من شرار خلقك، وهب لي الأنس بك وبأوليائك، وأهل طاعتك، ولا تجعل لفاجر، ولا كافر عليَّ منة، ولا له عندي يدا، ولا بي إليهم حاجة، بل اجعل سكون قلبي، وأنس نفسي، واستغنائي بك وبخيار خلقك))**(١).

الثالث عشر: الاشتغال عن الدنيا بحمد الله وثناءه:

((مشغولة عن الدنيا بحمدك وثنائك)): إذا اكتملت تلك الخصال في شخصية المؤمن، وانطبعت النفس بها، واتصفت بصفاتها حتى تحولت في حياتها إلى عادة وطبع وسلوك فإنها سوف تصبح ذاكرة لله تعالى حامدة له تعالى مسبحة ومهللة قولاً وفعلاً، وبذلك تكون مصداقاً لقوله عليه السلام: **((مشغولة عن الدنيا بحمدك وثنائك))**.

والانشغال عن الدنيا هو التعبير العملي لتفريغ القلب لله تعالى كما صور لنا

---

(١) الصحيفة السجادية: دعاء: ٢١.

الإمام زين العابدين عليه السلام ذلك في دعائه قائلاً: ((**اللهم صل على محمد وآله واجعل ثنائي عليك، وحمدي لك في كل حالاتي حتى لا أفرح بما آتيتني من الدنيا، ولا أحزن على ما منعتني منها**)) وفي دعاء كميل ((**يا رب يا رب يا رب أسألك بحقك، وقدسك، وأعظم صفاتك، وأسمائك أن تجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورة، وبخدمتك موصولة، وأعمالي عندك مقبولة حتى تكون أعمالي وأورادي كلها ورداً واحداً، وحالي في خدمتك سرمداً**)) وهل هناك أصرح وأصدق من هذا في الانشغال بحمد الله وثنائه عن الدنيا وزخارفها؟ .

((موقف الإسلام من الحياة الدنيا))

هل وقف الإسلام من الحياة الدنيا موقفاً سلبياً ؟ وبعبارة أوضح: هل أمر برفضها والتجافي عنها، وترك ما فيها، والانصراف إلى التعبد، والانقطاع عن اللذات المادية التي وهبها الله للإنسان كما هو معروف لدى بعض المذاهب الصوفية؟ أم وقف منها موقف الموازنة؟ .

والجواب: إن الإسلام لم يقف من الدنيا موقف الرفض، والزهد بها كهدف وغاية مستقلة قائمة بذاتها، وإنما أراد أن يحرر الإنسان من الخضوع لشهواته،ويحطم القيود التي تعيق حركته إلى الله فإن الإنسان حين تصبح الدنيا قطب الرحى في حياته فإنها تستعبده ((**ويحدث هذا عندما يظن الإنسان أن الحياة هدفاً وغاية لا طريقاً ووسيلة، ويغفل عن أن لها غاية وراءها**))(١) وبذلك ينسى قِيَمَه ومبادئه ويتنازل عنها مقابل تحقيق شهواته.

إن الله تعالى لما خلق الإنسان، وأسكنه الأرض لم يخلقه عبثاً، ولم يتركه

---

(١) لبيب بيضون، تصنيف نهج البلاغة: ٨٨٥

سدى بل جعل لوجوده هدفاً وغاية؛ **ولأجل تحقيق** هذا الهدف استخلف الإنسان؛ قال الله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾(١) وخلافة الله تعالى لعباده في أرضه تستبطن المسؤولية، وبناء على ذلك لم يسمح الإسلام للإنسان أن يترك الدنيا كلياً، أو يستغرق فيها، وإنما أراد له أن يوازن بين لذاته البدنية المشروعة، ولذاته المعنوية العقلية والقلبية، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**ليس منا من ترك دنياه لدينه، أو ترك دينه لدنياه**))(٢).

وفي حديث آخر: ((**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**))(٣).

ومعنى الحديثين صريح وهو: أن المسلم ينبغي له أن يوازن بين المطالب المادية والمطالب الروحية الأخروية... وفي تصورنا أنه ليس هناك فصل بين العمل الصالح في الدنيا، وعمل الآخرة، لأن العمل الصالح في الدنيا إنما أمر الله تعالى به، لأجل أن يتكامل الإنسان في هذه المرحلة من مراحل الحياة؛ ليكون مؤهلاً لولوج دار رحمة الله تعالى، فإذن عمل العامل في الدنيا متاع لسفر الآخرة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**إن الله تعالى جعل الدنيا لما بعدها، وابتلى فيها أهلها؛ ليعلم أيهم أحسن عملاً ولسنا للدنيا خلقنا، ولا بالسعي لها أمرنا، وإنما وضعنا فيها؛ لنبتلى بها، ونعمل فيها لما بعدها**))(٤).

وإلى هذا المعنى أشار القرآن الكريم في كثير من الآيات ووصف الدنيا بأنها

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٢١/٧٨.

(٣) المصدر نفسه: ١٣٩/٤٤.

(٤) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٢٨.

متاع لما بعدها، يقول تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾(١).

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٢).

وبذلك يتضح لنا أن الحياة وسيلة وطريق للتكامل البشري، وهو يحصل للإنسان بمقدار سعيه وجهده في تسخير الطاقات الدنيوية لهذا الغرض؛ ليكون صالحاً ومؤهلاً لدخول دار الخلود التي أعدها الله لعباده الصالحين، وعلى هذا الأساس ضمن الإسلام في عقيدته للإنسان بادخار كلما يعمل من خير لنفسه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٣)

وقد أجمل المفكر الإسلامي الشهيد الشيخ حسين معن قدس سره موقف الإسلام من الدنيا أحسن إجمال بقوله: «فإن للإسلام ثلاثة مواقف من الدنيا: موقف نظري، وموقف تشريعي، وموقف أخلاقي، ويتمثل الموقف النظري في اعتبار الحياة الدنيا مرحلة من مراحل الحياة، وليست كل الحياة ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ﴾(٤) وفي كونها داراً للفتنة والمسؤولية يؤكد فيها الإنسان ذاته واختباره بين الخير والشر ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(٥) وفي معانيها من مال، وبنين ونساء... نعماً إلهية تستحق الشكر والحمد والانفتاح النفسي، وفي كون العامل الدنيوي عاملاً رئيسياً محركاً في التاريخ...

---

(١) الرعد: ٢٦.

(٢) الشورى: ٣٦.

(٣) الزلزلة: ٧-٨.

(٤) الحديد: ٢٠.

(٥) الملك: ٢.

وأما الموقف التشريعي فيتمثل في السماح، والحث على استغلال الخيرات والنعم الإلهية انطلاقاً من مفهوم الخلافة عن الله، وفي تنظيم عملية استغلال النعمة بالشكل الذي ينسجم مع مصالح الإنسان العامة ودور الإنسان كعابد لله تعالى. ويتمثل الموقف الأخلاقي في محاولة الإسلام تحرير الإنسان المسلم من الأهواء والشهوات وحب الدنيا))(١).

وتأسيساً على ذلك فإن الموقف النظري الذي يعتبر الدنيا مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية يحدد مهمة الإنسان فيها وهي: عليه أن يفجر طاقاته البدنية والروحية؛ ليستغل ما وهبه الله من قوة في تعبيد الناس لله تعالى... وليس من حقه أن يعطل تلك الطاقات، ويبقى كمية مهملة لا قيمة ولا اعتبار، بل يجب أن يعرف موقعه من الحياة الدنيا، ويأخذ دوره كخليفة لله تعالى في أرضه (والخلافة تستبطن المسؤولية) كما يقول الشهيد الصدر (قدس سره) فالإنسان مسؤول عن نفسه ، وكلما يتعلق بها من قول، أو عمل، أو نية، ومسؤول عن مجتمعه، وما يحيط به، ولا يحق له أن يتنصّل عن هذه المسؤولية بحال، يقول تعالى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾(٢))).

وفي أدق بيان أوضح لنا أمير المؤمنين (عليه السلام) سعة مسؤولية الإنسان في الدنيا بقوله: ((**اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم أطيعوا الله، ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه**))(٣).

---

(١) الشهيد الشيخ حسين معن، الإعداد الروحي: ١٦٤ الطبعة الجديدة-بيروت.

(٢) الزخرف: ٤٣-٤٤.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١٦٧.

إذن لما كان الإنسان المسلم مسؤولاً في هذه الدنيا أمام الله تعالى لكونه خليفة عنه فكيف يجوز له أن يهملها، ويعتزل أهلها وما فيها من خيرات ومن نعم والمسؤولية تقتضي أن يمارس دوره فيها في الدعوة الى الله ، والدفاع عن الحق والعدل، والسعي لإقامة كيان الإسلام الحق .

هذا من جانب ومن جانب آخر فإن الدنيا لما كانت مرحلة من مراحل حياة الإنسان يكسب فيها لما بعدها إذن ينبغي له أن يستعد فيها لمواصلة السير إلى الله ونيل رضوانه... سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يذم الدنيا وهو مغرور بها فأجابه عليه السلام بكلام طويل من جملته أنه قال: ((**إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن أتعظ بها مسجد أحباء الله ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة**))[(١)] .

فإذن الدنيا في منطق الإسلام دار صدق، وعافية، وغنى، وموعظة، وعبادة... ثم إنها متجر ربح فيها قوم، وخسر آخرون، والربح والخسارة متوقفان على إرادة الإنسان، وعزمه، وهدفيته في الحياة ((فالمؤثر في حسن الأشياء، وقبحها، وذمها ومدحها هو الإنسان فإنه يقدر أن يستفيد من كل شيء أحسن استفادة، إذا نظر إليه بالتعقل والتدبر اللائق. فالدنيا، وما فيها كتاب تلقى فيه دروسٌ نافعة للمتعلم، والطالب السابق، ولكن كسل الراغب عن الاستفادة يمقتها ويعرض عنها، ويذمها، كالطالب المدرسي اللاهي، اللاعب، المعرض عن تحصيل الدروس المقررة في المدارس والمكاتب. فإنه ينظر إلى الكتب الدراسية والتعليمات المدرسية نظر النفور والعداوة، ويحسبها عداوة لملاهيه، ومانعة عما يشتهيه، ويتهمها بالجرم

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: الكلمات القصار: ١٣١.

ويحكم عليها بالعقوبة))[١] .

والحياة الدنيا في منطق الإسلام متاع لسفر طويل إلى حياة أخرى، ولهذا فإن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة تتوقف على مقدار ما يتزوّد فيها من متاع لسفره وهذا ما جاء في آيات كثيرة من القرآن الكريم، يقول تعالى:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ﴾[٢].

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾[٣].

﴿إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ﴾[٤].

((الدنيا المذمومة))

قد يعترض معترض فيقول: إذا كانت الدنيا دار صدق وعافية وموعظة ...الخ. فلماذا وردت فيها الكثير من الآيات والروايات تصفها بأنها لعب، ولهو وزينة، وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد، وإنها دار الغرور، خداعة، غرارة وإن مثلها كمثل الحيّة مسها ناعم، والسم ناقع في جوفها، وإنها دار بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة... وإلى غير ذلك من أنواع الذّم والقدح؟ فبماذا تفسرون ذلك؟ .

نقول: إن الناس في الدنيا صنفان: صنف يملك الدنيا، وصنف تملكه الدنيا ولا يملكها... والمذموم منها هو الثاني، وهو الذي استولى حبُ الدنيا على قلبه

---

(١) حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة: ٢٠١/٢١.

(٢) آل عمران: ١٨٥.

(٣) الرعد: ٢٦.

(٤) غافر: ٣٩.

وأصبحت الدنيا قطب الرحى في حياته كلها، نظر إليها فانبهر، واستغرق بها فأغرقته إلى هامته حتى لم يعد يرى ما ورائها فلا يطلب سواها؛ لأنها استوعبت كل وجوده، فأنسته نفسه، وبهذا نسي مبادئ الحق والعدل والإنسانية، فتحول إلى بهيمة همها علفها لا تنظر إلى ماضيها، ولا مستقبلها، بل تستغرق في لذاتها الحاضرة لأن «حب الدنيا ينتهي إلى انشغال نفسي، وعملي، يتنافى مع ما يتطلبه وضع الإنسان المؤمن من تكريس كل طاقاته النفسية، وجهوده في عبادة الله تعالى وتعبيد الناس له، وما يكون عليه من تعال وتسام في الوضع، والسلوك»[١] .

تلك هي الدنيا المذمومة في الإسلام عندما يصبح الإنسان عبداً لها كالأعمى لا يبصر ما وراءها، ولا يشغله غير زخارفها حتى صارت له رباً يعبده كما يصف أمير المؤمنين ﷺ أهلها: «**سلكت بهم الدنيا طريق العمى، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى، فتاهوا في حيرتها، وغرقوا في نعمتها، واتخذوها رباً فلعبت بهم، ولعبوا بها، ونسوا ما وراءها**»[٢] .

فإذا أصبح الإنسان بتلك الصورة البشعة فإنه سيسحق كل القيم الإنسانية والأخلاق والمبادئ تحت أقدامه، وهذا ما لا يرضاه الإسلام؛ لأنه أراد من الإنسان أن يتخذ الدنيا وسيلة؛ لتحقيق إرادة الله في الأرض، وتعبيد البشرية بالقيم الروحية والفكرية والأخلاقية؛ ليسود الحق والعدل بين أبناء آدم .

وأما إذا اتخذ الدنيا هدفاً وغاية قائمة بنفسها، فإنها سوف تستوعب كل جوانب حياته ووجوده حتى يتجمد فيها، ويعمى عما سواها، وما أروع وما أدق تعبير أمير المؤمنين ﷺ في بيان ذلك، حيث قال: «**وإنما الدنيا منتهى بصر**

---

(١) الشهيد الشيخ حسين معن، نظرات حول الإعداد الروحي: ١٦٥ طبعة بيروت.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ٣١.

الأعمى لا يبصر مما وراءها شيئاً، والبصير ينفذها بصره، ويعلم أن الدار ورائها . فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متزود، والأعمى لها متزود))[١] .

وفي نص آخر بيَّن أمير المؤمنين عليه السلام كيف يجب أن يتعامل الإنسان مع الدنيا كي لا تستحوذ عليه، وتعمي بصيرته، يقول عليه السلام: ((... **ومن أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته**)) والفرق كبير بين من أبصر بها، ومن أبصر إليها، فالأول اتخذها وسيلة، وطريقاً يقربه من الله، ويتزود منها متاعاً لسفره البعيد،وأما الثاني فقد اتخذها غاية وهدفاً في حياته لا يبغي مما وراءها شيئاً، لأنه اتخذها معبوداً من دون الله، ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[٢].

فالدنيا المذمومة في الإسلام هي التي تُجَرد عن القيم الإنسانية كالأخلاق الحسنة والحق والعدل؛ لأنها إذا تجردت من ذلك فقد فقدت محتواها الإنساني ، وتحولت إلى غابة يصطرع فيها الوحوش، ويحكم فيها المخلب والناب، وتلك هي دنيا اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر[٣]، أما دنيا الحق والعدل والإنسانية فهي المتاع الذي يوصل الإنسان إلى مقره الأخروي بسلام، فالحياة الدنيا إذن هي المتاع، وهذا المتاع هو: الإيمان بالله، والعلم بدين الله، والعمل بأوامر الله.

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٣٣.

(٢) الفرقان: ٤٣.

(٣) يقول الإمام الخميني قدس سره: ((فالدنيا المذمومة هي في داخلك أنت، والتعلق بغير صاحب القلب وحبه هو الموجب للسقوط)) موعد اللقاء: ٨٢ .

٢

معالم
الشخصية الرسالية

«اللهم صل على محمّد وآله، وحلِّني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتقين، في بسط العدل وكظم الغيظ، وإطفاء النائرة، وضم أهل الفرقة وإصلاح ذات البين، وإفشاء العارفة، وستر العائبة ولين العريكة، وخفض الجناح، وحسن السيرة وسكون الريح، وطيب المخالقة، والسبق إلى الفضيلة، وإيثار التفضل، وترك التعيير، والإفضال على غير المستحق، والقول بالحق، وإن عز واستقلال الخير، وإن كثر من قولي وفعلي واستكثار الشر، وإن قل من قولي وفعلي، وأكمل ذلك لي بدوام الطاعة، ولزوم الجماعة، ورفض أهل البدع ، ومستعملي الرأي المخترع»

((من دعاء مكارم الأخلاق))

في النص المتقدم بيان لإحدى وعشرين مكرمة أخلاقية هي أمهات الفضائل الإنسانية، وذروة المكارم النفسية؛ ولعزتها وجلالتها نجد أن الإمام السجاد (عليه السلام) يتوسل بالله عز وجلّ بهذه الضراعة، والخشوع، والصدق، والإخلاص، والتجرد المطلق داعياً أن يُزَيّنَه الله بتلك المكارم السامية، وهذا دليل على أهمية، وعظمة

تلك السمات الأخلاقية في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية، ولا نشك أن الإمام عليه السلام إنما يتوسل إلى الله تعالى بهذا المستوى؛ لعلمه بأن التخلق بها يقربه إلى الله تعالى، ويدخله في رحمته، ويرضيه عنه، كما لا نشك أن الإمام السجاد عليه السلام متحلٍ ومتخلّقٍ بها،كيف لا وهو من الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، هذه الطهارة والسمو الخلقي الذي برز في سلوكه اليومي، وفي مواجهة التحديات الكبيرة التي اعترضته في فترة إمامته وما قبلها، ولكن هذا الطلب، وهذا الضراعة لله تعالى جاءت من خلال سعة معرفته بالله تعالى، وشعوره بالتقصير في دائرة العصمة؛ لأن أولياء الله تعالى كلما قدموا لله تعالى من عمل عبادي فهم يشعرون أنهم مقصرون في أداء حقه، والدليل على ذلك أن سيد العابدين، والعارفين والشاكرين، وخاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وآله، رغم كماله المطلق ومعرفته الكاملة وعبادته المتواصلة يقول: ((**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**)) وقال صلى الله عليه وآله: ((**ما عبدناك حق عبادتك، وما عرفناك حق معرفتك**))[1] .

فالعارف الحقيقي لله تعالى لا يمكن أن يخرج نفسه عن حد التقصير؛ ولهذا يقول الإمام أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام لبعض ولده: ((**يا بني عليك بالجد لا تخرجنَّ نفسك عن حد التقصير في عبادة الله وطاعته فإن الله لا يعبّد حق عبادته**))[2] وقال الإمام الباقر عليه السلام لجابر: ((**يا جابر لا أخرجك الله من النقص والتقصير**))[3] يعنى من الشعور بالتقصير في عبادة الله والنقص في أداء حقوقه تعالى، فإنه جل وعلا لا يعبد حق عبادته.

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٣/٧١.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٧٢/٢.

(٣) المصدر نفسه: ٧٣.

إذن ولي الله تعالى مهما عبد الله، ومهما ضحى، ومهما قدم يبقى شاعر بالتقصير والقصور أمام عظمة الله، فيظل خائفاً وجلاً، شاعراً أنه غير مؤدي حقه الله بتمامه وحتى الملائكة المنقطعين لعبادته تعالى، إذا نظروا إلى جهنم تزفر على أهل المعاصي قالوا: ((سبحانك ما عبدناك حق عبادتك))[١] .

والخصال المذكورة في النص الشريف هي المعالم البارزة في شخصية الإنسان الصالح ممن وصل إلى مراتب التقوى العالية، وإنما وصفناه بصفتين: صفة الصلاح وصفة التقوى؛ لأن تينك الصفتين متلازمتان لا تنفك إحداهما عن الأخرى، فلا يمكن أن يكون الإنسان صالحاً ما لم يكن مؤمناً متقياً؛ لأن التقوى هي مَعْلَم الصلاح، ولا يكون العمل صالحاً ما لم يصدر عن تقوى؛ ولأن المتقي هو الذي يتحرك مريداً للإصلاح بقصد نيل رضا الله تعالى فـ((إن قلباً لا يتعلق بالله يخشى غضبه، ويلتمس رضاه لا يملك أن يتخلص من ثقلة الأعراض ولا يملك أن يرف شاعراً بالانطلاق))[٢] .

وبعد أن يؤكد النص الارتباط بين التقوى والصلاح، والتلازم المحكم بينهما يبدأ بيان تلك المكارم على التوالي: بسط العدل، كظم الغيظ... الخ.

ولابد أن نشير إلى أن هذه الخصال السامية، وإن كانت تتجلى في سلوك الفرد فهي جميعاً لها أبعادٌ اجتماعية دقيقة لا تبني الفرد لذاته، وإنما تبنى المجتمع من خلال انعكاس تلك الخصال من الفرد على المجتمع؛ ولذا فهي ترسم علاقة الإنسان بربه أوّلا، وعلاقته بنفسه ثانياً، وبمجتمعه ثالثاً، وبعبارة أخرى هي أخلاق يتحلى بها الفرد، وينعكس تأثيرها على المجتمع.

---

(١) الصحيفة السجادية: الدعاء: ٣.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٣/٨٠٠

ولنقف عند كل خصلة من هذه الخصال بالتفصيل:

أولاً: بسط العدل :

بكل معناه الشامل للجانب العقائدي، والجانب النظامي في الإسلام سواء كان في الحياة الفردية، أو الاجتماعية فهو المطلوب من كل أحد، وبدونه تضطرب الحياة، ويختل نظامها، وتسودها الفوضى فهو ((ميزان الله سبحانه الذي وضعه في الخلق، ونصبه لإقامة الحق))[(١)] .

فإذا فقد العدل في المجتمع ساد الظلم، وعمت الآثام، وانتشرت الجرائم وأصبحت الحياة جحيماً لا يطاق؛ لأنها ستتحول إلى غابة تصطرع فيها الوحوش الكاسرة؛ ولأجل حماية الإنسانية من ذلك ((جعل الله سبحانه العدل قواماً للأنام وتنزيهاً من المظالم والآثام، وتسنية للإسلام))[(٢)] .

وقد أكد الإسلام قرآناً وسنة على العدل، وأدخله في كل زاوية من زوايا الوجود الكوني، قال رسول الله صلى الله عليه وآله بصريح العبارة: ((**بالعدل قامت السماوات والأرض**))[(٣)] وهذا هو العدل التكويني الذي استقام به الوجود، وهو عبارة عن دقة النظام الذي وضعه الله في السماوات والأرض وما بينهما... وكما أكد العدل التكويني فقد أوجب العدل التشريعي بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ**﴾[(٤)].

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٩٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الفيض الكاشاني، التفسير الصافي: ٦٤/٧.

(٤) النحل: ٩٠.

كما أمر الله نبيه ﷺ أن يؤكد ويعلن هذا الأمر ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[1]؛ ولهذا ألزم الإسلام حملة رسالته أن يلتزموا بشريعة العدل في كل أحوالهم، ومع جميع الناس، ولم يُجَوز لأحد أن يظلم أحداً ولو كان عدوه، فالعدالة لازمة لزوماً حتمياً حتى مع العدو المشانئ يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

وهذا ما لم نجده في دين، ولا مذهب من المذاهب السياسية والاجتماعية ذلك هو الالتزام بالعدل مع الأعداء، وعدم ظلمهم فهو صفة يتفرد بها الإسلام.

وبالعدل التشريعي الذي تمثل في الأحكام الشرعية التي نص عليها القرآن والسنة المطهرة يتحقق العدل الاجتماعي شريطة أن يتصدى للحكم بين الناس الحاكم الكفوء العادل؛ ليتسنى له تطبيق شريعة الله تعالى على عباده.

ومن هنا يجب على الإنسان أن يكون عادلاً مع ربه، وهذا هو العدل العقائدي والفكري، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((... **والعدل أن لا تتهمه**)) أي أن لا تنسب إلى الله تعالى ما يتنافى مع مقامه المقدس فلا تساويه في خلقه، ولا تشبهه بهم، وأن تعتقد أنه تعالى يجري العدل في جميع أفعاله وأقواله، ولم يظلم مثقال ذرة فإنه تعالى لا يريد ظلماً للعباد، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك**))[3].

(١) الشورى: ١٥.

(٢) المائدة: ٨.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١٩١.

((...الذي صدق في ميعاده، وارتفع عن ظلم عباده، وقام بالقسط في خلقه وعدل عليهم في حكمه))[(١)] .

((...وعدل في كل ما قضى))[(٢)] .

((...وأشهد أنه عدل عدل، وحكم فصل))[(٣)] .

وكذلك يجب أن يكون عادلاً مع نفسه، أي أن يسلك بها المسلك الذي أمره الله تعالى بسلوكه فلا يخرج بها عنه قيد أنملة، والعدل مع النفس هو التوسط، وعدم الإفراط، أو التفريط في الملكات، وحسب تعبير علماء الأخلاق ((كل فضيلة محاطة برذيلتين)) فإذا خرج عن الحد الوسط وقع في إحدى الرذيلتين.

وبمقياس أهل البيت (عليهم السلام) أن العدل مع النفس هو تطهير النفس من رذائل الأخلاق، وتزكيتها من أدران الذنوب، وإلزامها التمسك بما أمرها الله، والانتهاء عما نهى، وهذا هو مفهوم مخالفة الأهواء النفسية، وكبح الشهوات الدنية يصف أمير المؤمنين (عليه السلام) ذلك بقوله: ((**قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه**))[(٤)] .

فهنا يشير أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أن الإنسان إذا لم ينف الهوى عن نفسه لا يستطيع أن يكون عادلاً مع نفسه، ولا مع غيره، بدليل أنه قال بعد هذا النص: ((**يصف الحق، ويعمل به، لا يدع للخير غاية إلا أمها، ولا مظنة إلا قصدها قد أمكن الكتاب من زمامه، فهو قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقلُه، وينزل حيث**

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ٨٥ .

(٢) المصدر نفسه، خطبة: ١٩١.

(٣) المصدر نفسه، خطبة: ٢١٤.

(٤) المصدر نفسه، خطبة: ٨٧ .

كان منزله))[١] . وهذا هو تمام العدل، والملتزم بذلك هو العادل الذي أراده الله تعالى.

فإذا فاز الإنسان بتلك السجية الفاضلة، وبنى على أساسها حياته أصبح رمزاً لبسط العدل الاجتماعي، وهو الذي طلبه الإمام السجاد عليه السلام بدعائه أن يوفقه لبسط العدل... ونستوحي من ذلك أن الإسلام لا يكتفي من المؤمن بأن يتصف بالعدالة الذاتية وكفى، وإنما يريد منه أن يتصف بالعدالة الوظيفية ،ويعمل على بسط العدل ونشره، ويجسده واقعاً حيّاً متحركاً يضع الشيء في محله، ويوصل الحق إلى مستحقه، يقول الشهيد مرتضى مطهري: ((فثمة فرق بين العادل، وطالب العدالة مثلما هناك فرق بين الحر وطالب الحرية، فذاك حر أي أنه بنفسه شخص حر، وهذا يطالب بالحرية أي أنه يدافع عن حرية المجتمع، ويرى أن الحرية هدف المجتمع، ومثاله كذلك الأمر مع العلم فهذا شخص عالم، والآخر بالإضافة إلى كونه عالماً يطالب بتعميم العلم والمعرفة والتعليم العام، وهكذا العدالة فهذا شخص عادل وآخر يطالب بها فالعدالة عنده فكرة اجتماعية، ومرة أخرى كالصالح وطالب الإصلاح، تقول الآية الكريمة: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ القيام بالقسط يعني إجراء العدل وهذا يختلف عن كون الشخص عادلاً بذاته))[٢] .

إذن العدل في الإسلام لا ينحصر في الوجود الفردي، وهو الملكة التي يتسم بها الإنسان فتدفعه لفعل الواجبات، وتمنعه عن فعل المحرمات فلا يكفي أن يتصف هو بالعدالة فقط، وإنما لابد أن يعمل على إيجاد هذه الملكة في غيره

---

(١)الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ٨٧ .

(٢) الشهيد مطهري، العدل في الإسلام: ١٠.

لتتحول إلى نظام حاكم في المجتمع، ويسود العدل في سلوك الفرد، ونظام المجتمع، فالعدل الاجتماعي هو المطلوب، وهو هدف أساسي من أهداف الإسلام، وخلاصته ((هو التوازن التام في سلوك المجتمع، وسلوك أفراده، وتعاون الجميع على العمل في سبيل الخير، واكتساب الصفات الخلقية المثلى ونيل السعادة العامة))[(١)] .

والملفت للنظر أن الإمام عليه السلام قدم العدل في طلبه على سائر الصفات والأفعال، والسر في ذلك أن العدل ((أصل كل خير، وعليه مدار كل أمر، وبه قامت السماوات والأرض، وهو ميزان الله القسط في الدنيا والآخرة، قدمه في الطلب على سائر المكارم المطلوبة؛ اهتماماً بشأنه، وتنبيهاً على علو مكانه))[(٢)] .

بل تأكيد على وجوب التحلي به؛ لأن الإنسان إذا افتقر إلى العدالة لا يمكن أن ينتفع ببقية الخصال فغير العادل حتى لو نال تلك الخصال الحميدة فإنه سوف يتخذها وسيلة لأطماعه وأهوائه، وحينئذ يتمحور على ذاته، وتتحكم به شهواته، وينحدر إلى مستنقع الرذائل . أما لو كان عادلاً فإنه سوف يُحَكم عقله في شهواته وعند ذلك تتوازن شخصيته، ويحتفظ باستقامته، فالعدل إذن يحفظ الإنسان من السقوط؛ لأن ((العدل وضع جميع القوى تحت نفوذ العقل، فيعطي كل واحدة من هذه القوى حقوقها كاملة فإذا عمل الإنسان ذلك مع الناس الآخرين سميت هذه الصفة منه إنصافاً وعدلاً بمعناه الخاص))[(٣)] .

---

(١) الشيخ محمد أمين زين الدين، الأخلاق عند الإمام الصادق عليه السلام: ٧٦.

(٢) السيد علي خان المدني، رياض السالكين: ٣/٣٣٧.

(٣) الشيخ محمد أمين زين الدين، الأخلاق عند الإمام الصادق عليه السلام: ٧١.

((أمثلة من عدل الإمام علي عليه السلام))

يقول ابن أبي الحديد: ((**ولم تحصل العدالة الكاملة لأحد من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا لهذا الرجل، ومن أنصف علم صحة ذلك**))[١] .

إننا إذا تتبعنا حياة علي عليه السلام في أقواله، ومواقفه، وسلوكه... نجد أن العدالة متمثلة في كل كلمة قالها، وكل خطوة خطاها، وكل موقف وقفه، مع نفسه، ومع الناس أعداؤه، أو أتباعه على حد سواء، وفي كل المجالات السياسية والأخلاقية والاقتصادية، والقضائية... ولهذا عرف عنه أنه أقضى الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله مطلقاً فكان بحق (صوت العدالة الإنسانية) ونحن لا نريد أن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع؛ ولهذا سنذكر نماذجاً من عدالته كما نقلها الرواة، والمؤرخون:

عدله مع نفسه: لقد أخذ علي عليه السلام على نفسه أن لا يطع أو يوافق هوى نفسه أبداً، وهو القائل: ((**وأيم الله - يميناً استثني فيها بمشيئة الله - لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً**))[٢] .

فأول العدل عند علي عليه السلام والذي لا يتحقق عدل بدونه هو مخالفة الأهواء النفسية، حيث يقول عليه السلام في وصف عباد الله: ((**قد أخلص لله فاستخلصه، فهو من معادن دينه، وأوتاد أرضه، قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه**))[٣]؛ لأن المتبع هواه، والمنقاد إلى رغبات نفسه، لا يمكن أن يكون عادلاً لان العدل يقتضي السيطرة على الأهواء، وإخضاعها لحكم العقل، وما لم تنقاد

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣٧٠/٦.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: كتاب: ٤٥.

(٣) المصدر نفسه: خطبة: ٨٧ .

الشهوات لحكم الشرع والعقل لا يكون الإنسان عادلاً... ولهذا كان علي عليه السلام معروفاً بأنه لم يعرض عليه أمران إلا خالف أقربهما إلى أهوائه، يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((**ما اعتلج على علي أمران إلا أخذ بأشدهما**))(١) .

كما عرف عنه أنه لم يكن يميز نفسه بشيء عن سائر الناس لا في ملبس ولا مأكل، ولا مسكن، بل كان يعيش عيشة أفقرهم؛ ليواسي الفقراء، ولهذا، قال عليه السلام لمن لم يعِ فلسفته الاجتماعية فأعترض على الإمام قائلاً له: ((**هذا أنت في خشونة ملبسك، وجشوبة مأكلك! فرد عليه قائلاً: ويحك إني لست كأنت إن الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يَتَبَيَّغ بالفقير فقره**))(٢) .

يقول عقبة بن علقمة: ((دخلت على علي عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذتني حموضته، وكسر يابسة، فقلت: يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟! فقال لي: **يا أبا الجنوب رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يأكل أيبس من هذا، ويلبس أخشن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإن أنا لم آخذ بما أخذ به خفت أن لا ألحق به**))(٣) .

وعن بكر بن عيسى قال: ((حدثنا جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عليه السلام قال: **كان علي عليه السلام يطعم الناس بالكوفة الخبز واللحم، وكان [له] طعام على حده فقال قائل من الناس: لو نظرنا إلى طعام أمير المؤمنين ما هو؟ فأشرفوا عليه، وإذا طعامه ثريدة بزيت مكللة بالعجوة، وكان ذلك طعامه، وتُحمل إليه من المدينة**))(٤) .

---

(١) أبو إسحاق الكوفي، الغارات: ٨٢/١ .

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ٢٠٩.

(٣) أبو إسحاق الكوفي: الغارات: ٨٤/١ .

(٤) المصدر نفسه: ٨٥ .

وفي ملبسه كان عليه السلام يتميز بالتواضع والبساطة بأروع صورها حتى يرقع ثوبه مرات عديدة، ولهذا كان البعض يعترض عليه، ولنستمع إليه يقول: ((**والله لقد رقعت مدرعتي حتى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت: أعزب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى**))[(١)] .

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: ((**والله إن كان علي ليأكل أكل العبد، ويجلس جلسة العبد، وإن كان ليشتري القميصين السنبلانيين فَيُخيّر غلامه خيرهما ثم يلبس الآخر فإذا جاز أصابعه قطعه، وإذا جاز كعبه حذفه**))[(٢)] .

ولو تأملنا بقوله عليه السلام: ((**فيخيّر غلامه خيرهما**)) عرفنا أن أمير المؤمنين عليه السلام وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، وإمام المسلمين يلبس كما يلبس عبده، أو دونه - وهذا لن نجده إلا في الإسلام - وفي التعامل مع الناس لم يكن يميز أحداً على أحد أبداً أبدا، بل كان يتعامل مع الناس سواسية كأسنان المشط، روى علي بن محمد بن أبي سيف المدائني عن فضيل بن أبي الجعد قال: ((آكد الأسباب كان في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمر المال فإنه لم يكن يفضل شريفاً على مشروف، ولا عربياً على عجمي، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه))[(٣)] .

ولنقف على بعض صور تلك العدالة التي لم يعرف التاريخ لها نظيراً:

١ - روى المؤرخون وكتّاب السير أن امرأتين أتتا علياً عليه السلام عند القسمة إحداهما من العرب، والأخرى من الموالي فأعطى كل واحدة خمسة وعشرين

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١٦٠.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٠٢/٤١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٩٧/٢.

درهما وكراً من الطعام، فقالت العربية: ((يا أمير المؤمنين إني امرأة من العرب وهذه امرأة من العجم، فقال عليه السلام: **[إني] والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني إسحاق**))[1].

إن عدلا كهذا لم يعرف التاريخ له نظيراً، وليس لأغلب الناس تصوره أما عند علي عليه السلام فإن ((العدالة... فلسفة اجتماعية إسلامية، وتقع في أعلى المستويات من تفكيره باعتبارها من أهم القوانين الإسلامية وأسماها لقد أقام سياسته على هذا الأساس فما كان من الممكن أن ينحرف قيد أنملة عن هذا الأساس مهما كان الدافع والهدف))[2].

٢ - وعدل علي عليه السلام لم يكن مجرد طبع وعادة صُبغت بها نفسه، إنما هو دين يدين الله به، ومنهج يريد أن يعيد به المنهج الإسلامي إلى مجراه الأول الذي جرى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ولذلك رفض كل العروض التي طرحت عليه لأجل تثبيت دعائم الدولة على حساب المبدأ والعقيدة ولو كلفه ذلك ما كلفه من أتعاب شاقة فالمهم عند علي عليه السلام تثبيت دعائم الرسالة لا تثبيت أسس الحكم والسلطة فالدولة والسلطة عند علي عليه السلام وسيلة لتطبيق الرسالة وفي خدمتها، وليس العكس، ومن أجل هذا الهدف السامي خاض علي عليه السلام ثلاث حروب طاحنة، ولو هادن الطامعين، وملأ جيوبهم على حساب بقية المسلمين لما تحمل ما تحمل من مصاعب قالوا له: ((يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، ومن تخاف عليه من الناس[3] فراره إلى

---

(١) أبو إسحاق الكوفي، الغارات: ١/٧٠.

(٢) الشهيد مرتضي مطهري، العدل في الإسلام: ١٥.

(٣) في آمالي المفيد: ((ومن يخاف خلافه عليك من الناس)).

معاوية، فقال لهم عليه السلام: **أتأمرونني أن أطلب النّصر بالجور؟ لا والله ما أفعل ما طلعت شمس، ولاح في السماء نجم، والله لو كان ما لهم [والله لو كانت أموالهم] لي لواسيت بينهم وكيف وإنما هو أموالهم ...**))[١].

ويأتيه طلحة، والزبير ليقولا: ((ليس كذلك كان يعطينا عمر، قال: **فما كان يعطيكما رسول الله صلى الله عليه وآله؟** فسكتا، قال: **أليس كان رسول الله يقسم بالسوية بين المسلمين؟** قالا: نعم، قال: **فسنة رسول الله أولى بالاتباع عندكم أم سنة عمر؟** قالا: سنة رسول الله صلى الله عليه وآله يا أمير المؤمنين لنا سابقة وعناء وقرابة، قال: **سابقتكما أسبق أم سابقتي؟** قالا: سابقتك، قال: **فقرابتكما أم قرابتي؟** قالا: قرابتك، قال: **فعناؤكما أعظم من عنائي؟** قالا: عناؤك، فقال: **والله ما أنا، وأجيري هذا إلا بمنزلة واحدة** وأومأ بيده إلى الأجير))[٢].

ذلك هو هدف علي عليه السلام إحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وآله ولو كلفته حرب الجمل وصفين، والنهروان بأثقالها، وما أريق فيها من دماء ذلك هو منهج العدل عند علي عليه السلام.

٣ - وتصل عدالة علي عليه السلام حداً لا ترجح كفة الميزان على الكفة الأخرى ولو مقدار ذرة واحدة مما يثير عجب الآخرين أن يكون جدياً بهذا المستوى في التسوية بين المسلمين، وما قصة تقسيم رغيف الخبز إلا دليل على ذلك[٣].

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٨٢/١١ وجواهر الكلام: ٢١٧/٢١.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١١٦/٤١.

(٣) يقول كليب الحربي [الجرمي] عن أبيه قال: ((شهدت علياً عليه السلام، وقد جاء مال من الجبل، فقام وقمنا معه، وجاء الناس يزدحمون، فأخذ حبالاً فوصلها بيده، وعقد بعضها إلى بعض، ثم أدارها حول المال، وقال: **لا أحل لأحد أن يجاوز هذا الحبل**، قال: فقعد الناس كلهم من ←

٤ – وأما في التقاضي فقد ضرب علي عليه السلام المثل الأعلى في العدل فما سمع التاريخ زعيماً يجد ضالته في يد أحد رعاياه، وهو قادر على انتزاعها منه بأيسر جهد، ثم يرفع دعواه إلى قاضيه، ثم يقف هو وخصمه النصراني على حد سواء يترافعا في دعواهما، يقول المؤرخون: ((إن عليا وجد درعاً له عند نصراني فاقبل به إلى شريح قاضيه، وجلس إلى جانبه يخاصم النصراني مخاصمة رجل من رعاياه، وقال إنها درعي، ولم أبع، ولم أهب قال شريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ قال النصراني ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين بكاذب!! والتفت شريح إلى علي عليه السلام يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟ فضحك علي، وقال: **ما لي بينة**، فقضى بها للنصراني، فمشى هُنَيَّة، ثم أقبل فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام النبيين؛ أمير المؤمنين يمشي بي إلى قاضيه وقاضيه يقضي عليه أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ وأن محمداً عبده ورسوله الدرع والله درعك، يا أمير المؤمنين، انبعث الجيش، وأنت منطلق إلى صفين فَخَرّتْ من بعيرك الأورق[1]، فقال عليه السلام: **أما إذا أسلمت فهي لك، وحمله على فرس**))[2].

٥ – ((واستعدى رجل على علي عليه السلام عمرَ بن الخطاب، وعلي جالس فالتفت عمر إليه، فقال: قم يا أبا الحسن فاجلس مع خصمك، فقام فجلس معه وتناظرا ثم

←

وراء الحبل ودخل هو فقال: **أين رؤوس الأسباع؟** وكانت الكوفة يومئذ أسباعاً فجعلوا يحملون هذه الجوالق إلى هذا وهذا إلى هذا، حتى استوت القسمة سبعة أجزاء، ووجد مع المتاع هذا رغيفاً فقال: **اكسروه سبع كسر وضعوا على كل جزء كسرة**، ثم قال: **هذا جناي وخياره فيه إذ كلّ جان يده إلى فيه**)) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٣٦/٤١.

(١) الأورق من الإبل: الذي في لونه سواد إلى بياض.

(٢) أبو إسحاق الكوفي، الغارات: ١/ ١٢٥ وكتاب علي وأبنائه: ١٩٠.

انصرف الرجل، ورجع علي عليه السلام إلى محله، فتبين عمر التغير في وجهه عليه السلام فقال: يا أبا الحسن، ما لي أراك متغيراً؟! أكرهت ما كان؟ قال عليه السلام: **نعم**، قال: وما ذاك؟ قال عليه السلام: **كَنَّيتني بحضرة خصمي، هلا قلت قم يا علي فاجلس مع خصمك؟!** فاعتنق عمر علياً، وجعل يُقَبل وجهه، وقال: بأبي أنتم! بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمة إلى النور))[١].

ذلك هو العدل بكل أبعاده تمثل في سلوك رجل أصبح مقياساً للعدل وهذا هو بسط العدل بين الأنام، يهدي الضال، ويضعه على جادة الصواب.

ثانياً: كظم الغيظ :

لغة أصله من الكظم، وهو مخرج النفس، وكظم الغيظ حبسه، وعدم إظهاره وتحمل أسبابه، وبتعبير آخر: ((هو القدرة على ضبط النفس في المواقف التي تثير الانفعال أي البعد عن التهور والاندفاع، وتأجيل التعبير المباشر عن الانفعال بما يتيح للفرد التفكير، واختيار أنسب الاستجابات))[٢]

والفرق بين الغضب والغيظ هو: أن الغضب يعاكس الرضا ويضاده، وأما الغيظ فهو ثورة النفس، وهيجان الطبع، بل هو ((أشد غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه))[٣]، قال تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ فكظم الغيظ إذن هو ضبط النفس، والسيطرة عليها إزاء المثيرات أثناء هيجان الغضب فإذا هاج غضب الإنسان، وتوترت أعصابه، ثم احتفظ باتزانه، ولم يخرج عن حدود

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦٥/١٧.

(٢) الدكتور أحمد عزت راجح، أصول علم النفس: ١٤١.

(٣) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ غريب القرآن: ٣٦٨.

المعقول، بل ثبت، واتـزن، وردَ، بهـدوء وتعقـل، وتصـرف تصـرفاً مَرْضـياً فـذلك الكاظم للغيظ.

ثم إن كظم الغيظ من الملكات الفاضلة، والخصال الكريمة التي تتصـف بهـا النفوس الكبيرة فمن تحررت نفسه من الميول الصبيانية كالأنانية، وحب الذات وما يتولد عنها من رذائل الصفات كالتهور، وبذاءة الكلام، والحقـد، والتكبـر، والتشـنج والثورة غير المتزنة ((فالناضج لا يتشنج، ولا يثور، بل يفرض، ويرفض فـي هـدوء وثبات، وإصرار))[(١)] .

وكظم الغيظ من جانب آخر هو تمرين على الحلم، وثمرة مـن ثمراتـه فمـن مرّن نفسه على كظم غيظه بشكل تدريجي نال صفة الحلم، وبنيلهـا يفـوز بالقـدرة على ضبط النفس، والحلم أصدق مصاديق كظم الغيظ، وقد مدح الله تبارك وتعـالى المتصفين بها بقولـه تعـالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٢)].

وفي آية أخرى حث القرآن الكريم المؤمنين علـى الاتصـاف العملـي بتلـك الخصلة الكريمة، يقـول تعـالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[(٣)]

إن الانفعال حقيقة بشرية لا يمكـن أن يتنكـر لهـا الإنسـان، أو يقتلعهـا مـن جذورها، ولولاه لتوقف كثير من شؤون الحياة، إلا أن هذا الانفعال لابد وأن يوجـه

---

(١) الدكتور أحمد عزت راجح، أصول علم النفس: ١٤١.

(٢) آل عمران: ١٣٤.

(٣) فصلت: ٣٤-٣٥.

لتُحفظ الطاقة التي يثيرها، ويَشحن النفس بها، وإلا سوف تنفجر ثورة مدمرة إذا لم تخضع لحكم العقل، ولهذا أكدت التعاليم الإسلامية على توجيه هذه الطاقة توجيهاً إيجابياً فليس معنى كظم الغيظ هو كبته؛ ليتحول إلى عقد نفسية تستبطن الحقد، والكيد... وإنما هو حفظ للطاقة النفسية، وتوجيهها توجيهاً سليماً، لتندفع بقوة واتزان؛ لتغير الواقع نحو الأحسن فمرة تندفع بلا حدود، ولا ضوابط فحينئذ تدمر كل ما تصطدم به، ومرة يقف العقل سداً حصيناً، وموجهاً حكيماً؛ ليكظمها ويحول تلك الطاقة إلى عزم، وإرادة، وبصيرة،ورفض، وإيمان يقول الإمام الباقر عليه السلام: ((**من كظم غيظاً، وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة**))[١].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: ((**من كظم غيظاً، ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه**))[٢].

كما أكدت روايات أخرى أن كظم الغيظ يزيد الإنسان عزاً وكرامة عند الله وعند الناس، يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((**ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عزاً في الدنيا والآخرة، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٣] وأثابه الله مكان غيظه ذلك**))[٤] ويزداد عزاً إذا كان كظمه للغيظ في سبيل الله، هذا هو الشرط الأساس، وثانياً أن يكون قادراً على إنفاذ غيظه، ولم يكظمه عن عجز فإذا توفر على هذين الشرطين، وكظم غيظه ارتفع قدره عند الله، وعند الناس؛ لأن صبره هذا ينبئ عن قوة وصلابة في

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ١١٠/٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) آل عمران: ١٣٤.

(٤) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ١١٠/٢.

شخصيته، ودليلاً على متانة عقله، وغزارة علمه وحلمه ،كل ذلك مما يُعز الإنسان ويُعلي شأنه؛ لأنه اتسم بصفات كريمة، وخُلق رفيع هو من الخلق الإلهي،وهذه الشروط تحمي الإنسان من الوقوع في مخاطر قد تصيبه لأن ((كظم الغيظ هو المرحلة الأولى، وهي وحدها لا تكفي فقد يكظم الإنسان غيظه؛ ليحقد ويضطغن؛ ليتحول الغيظ الفائر إلى احنة غائرة، ويتحول الغضب إلى حقد دفين... وإن الغيظ والغضب لأنظف، وأطهر من الحقد والضغن؛ لذلك يستمر النص؛ ليقرر النهاية الطليقة لذلك الكظيم في نفوس المتقين، إنها العفو والسماحة والانطلاق . إن الغيظ وقرٌ على النفس حين تكظمه، وشواظ يلفح القلب، ودخان يغش الضمير فأما حين تصفح النفس، ويعفو القلب فهو الانطلاق من ذلك الوقر، والرفرفة في آفاق النور، والبرد في القلب، والسلام في الضمير))[١] .

((نماذج في كظم الغيظ))

روى المبرد وابن عائشة: أن شامياً رأى الإمام الحسن عليه السلام راكباً فجعل يلعنه والحسن عليه السلام لا يرد، فلمّا فرغ أقبل الحسن عليه السلام فسلم عليه، وضحك، فقال عليه السلام: **((أيها الشيخ أظنّك غريباً، ولعلك شبهت؛ فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عارياً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيّناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا، وكنت ضيفناً إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً، وجاهاً**

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٧٧/٢.

عريضاً، ومالاً كثيراً.

فلمّا سمع الرجل كلامه بكى، ثم، قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه . الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ، والآن أنت أحبّ خلق الله إليّ، وحوّل رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبّتهم))[١] .

٢- سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يشتم قنبراً، وقد رام قنبر أن يرد عليه فناداه أمير المؤمنين عليه السلام: ((**مهلاً يا قنبر دع شاتمك مهاناً ترضي الرحمن، وتسخط الشيطان، وتعاقب عدوك فو الذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما أرضى المؤمن ربه بمثل الحلم، ولا أسخط الشيطان بمثل الصمت، ولا عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه**))[٢] .

٣- وقف على علي بن الحسين عليه السلام رجلٌ من أهل بيته، فأسمعه وشتمه فلم يكلمه فلما انصرف، قال لجلسائه: ((**قد سمعتم ما قال هذا الرجل، وأنا أحب أن تبلغوا معي إليه حتى تسمعوا مني ردي عليه**، فقالوا له: نفعل، ولقد كنا نحب أن تقول له، ونقول قال: فأخذ نعليه ومشى، وهو يقول: ﴿**وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾[٣] فعلمنا أنه لا يقول له شيئاً، قال: فخرج حتى أتى منزل الرجل فصرخ به، فقال: **قولوا له هذا علي بن الحسين**، قال: فخرج إلينا متوثباً للشر، وهو لا يشك أنه إنما جاءه مكافياً له على بعض ما كان منه، فقال له علي بن الحسين عليه السلام: **يا أخي إنك كنت قد وقفت عليّ آنفاً قلتَ**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٤٤/٤٣.

(٢) السيد مهدي الصدر، أخلاق أهل البيت: ٣٥.

(٣) آل عمران: ١٣٤.

وقلتَ، فإن كنت قد قلت ما فيَّ فأنا استغفر الله منه، وإن كنت قلتَ ما ليس فيَّ فغفر الله لك قال: فقبّل الرجل بين عينيه، وقال: بلى قلت فيك ما ليس فيك وأنا أحق به))[١] .

ثالثاً: إطفاء النائرة :

النائرة: هي الحقد والعداوة، ومنه قوله: ((بينهم نائرة)) أي شحناء، وعداوة والنائر: ((المُلقي بين الناس الشرور)) وفي الحديث الشريف: ((**اطفؤوا نائرة الضغائن باللحم والثريد**)) وإطفاء النائرة: ((عبارة عن تسكين الفتنة، وهي فاعلة من النار))[٢] .

عند اختلاف الإرادات، والأهواء، وتباين الأمزجة، والأفكار، والعادات كثير ما تشب نار الخصومة، والشحناء بين الناس، وتشعل آوار الحرب والقتال... والناس في ذلك نوعان: نوع يحاول أن يصب الزيت على النار ليزيد في لهيبها لأنه يختزن في نفسه الشر، والدمار، والهلاك للناس، وهؤلاء هم أصحاب النفوس القذرة التي امتلأت حقداً على البشرية فلا تحب أن ترى الناس في خير وما أكثر أولئك في كل زمان... ولعل هذا ما ورد في تقسيم الناس، حيث قال أمير المؤمنين عليه السلام: ((**والناس على أربعة أصناف... ومنهم المصلت سيفه، والمعلن بشره، والمجلب بخيله ورجله. قد أشرط نفسه، وأوبق دينه؛ لحطام ينتهزه، أو مقنب يقوده، أو منبر يفرعه ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً . ومما لك عند الله عوضاً ...**))[٣] .

---

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢٥٧.

(٢) الشيخ الطريحي، راجع مجمع البحرين: ٥٠٦/٣، وابن منظور، لسان العرب: ٢٤٧/٥.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ٣٢.

وعلى العكس من ذلك فهناك من يزرع بذور الألفة والمودة والأخوة، ويقتلع جذور الحقد والضغينة، ويؤالف بين الناس، ويقلب الحقد والضغينة إلى محبة ومودة أولئك حملة الرسالة الذين تخلقوا بأخلاقها، وتحلّوا بسماتها وجسدوها واقعاً متحركاً على الأرض لا يبغون عنها حولاً... وهذا الذي يتضرع من أجله الإمام السجاد عليه السلام إلى ربه كي يزينه به، وإن كان هو قد زيّنه الله به بل بكل المكارم ولكنه عليه السلام يرجوا من الله المزيد من فضله.

رابعاً: ضم أهل الفرقة:

إنّ أخطر ما يهدد مصير الأمم والشعوب والدول والحركات والأحزاب هو: عامل الفرقة والاختلاف، فما من أمة اختلفت، وتنازعت إلا وتفرقت صفوفها وتمزقت وحدتها، وجرّتْ على نفسها الدمار، والهلاك، والاندثار... وذلك لأن الاختلاف يؤدي إلى تفتيت وحدتها، وتمزيق كلمتها؛ لتشاحن أبنائها فيما بينهم وانشغالهم بعضهم بالبعض الأخر، ونسيان الأهداف المرسومة التي يراد تحقيقها، وبذلك تذهب قوتهم، ويصبحون فريسة لكل طامع، وبهذا سقطت دول، وتمزقت أمم، واندثرت حضارات، وهذا ما أكده القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[1] لأن النزاع يؤدي إلى الاختلاف، والاختلاف يؤدي إلى الفرقة، والفرقة تؤدي إلى التمزق والتشتت والضعف؛ ولهذا أكد أئمة الهدى عليهم السلام على لزوم وحدة الكلمة بالتعاون والتواصل، يقول الإمام علي عليه السلام: ((**... وعليكم يا بنيَّ بالتواصل، والتباذل، والتبار، وإياكم والتقاطع، والتدابر، والتفرق ﴿وَتَعَاوَنُوا**

---

(١) الأنفال: ٤٦.

﴿عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[١]))[٢].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: ((**فإياكم والتلون في دين الله، فإن جماعة فيما تكرهون من الحق، خير من فرقة فيما تحبون من الباطل، وإن الله لم يعط أحداً بفرقة خيراً مما مضى، ولا ممن بقى**))[٣].

وقال ﷺ: ((... **وألزموا السواد الأعظم فإن يد الله على الجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشاذ من الناس للشيطان، كما إن الشاذ من الغنم للذئب، ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه، ولو كان تحت عمامتي هذه**))[٤].

كل هذا التأكيد على الوحدة والاتحاد؛ لأن ((**الاجتماع رحمة، والفرقة عذاب**))[٥] كما ورد عنهم ﷺ، وجاء رجل إلى أمير المؤمنين ﷺ فقال: أخبرني عن السنة والبدعة، وعن الجماعة، وعن الفرقة، فقال ﷺ: ((**السنة ما سن رسول الله ﷺ والبدعة ما أحدث بعده، والجماعة أهل الحق، وإن كانوا قليلاً والفرقة أهل الباطل، وإن كانوا كثيراً**))[٦].

وفي الخطبة القاصعة التي استعرض فيها عوامل سقوط الأمم والشعوب وعوامل رقيّها وازدهارها، قال ﷺ: ((**فانظروا إلى ما صار إليه آخر أمورهم حين وقعت الفرقة، وتشتت الألفة، واختلفت الكلمة، والأفئدة، وتشعبوا مختلفين**

---

(١) المائدة: ٢.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٤٩/٤٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣١٢/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٢٨٩/٦٨.

(٥) المصدر نفسه: ١٠٤/٢٨.

(٦) المصدر نفسه: ٢٦٦/٢.

وتفرقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين منكم))[١] .

هذه بعض آثار الفرقة كما نطق به أهل الحق، أهل بيت الرسالة عليهم السلام، وهم أصدق القائلين. والفرقة بين الأمة الواحدة أحد السبل التي استعملها الطغاة للسيطرة عليها، وقد وضعوا لذلك قاعدة طبقوها بدقة وهي (فرق تسد)، وما معاهدة (سايكس بيكو) عنا ببعيد، والتي قَسموا بها البلاد الإسلامية، وجعلوا لكل دولة منهم نفوذاً على منطقة معينة، ورأينا ويلات تلك المعاهدة طيلة قرن من الزمان، ولا زلنا نئن من ويلاتها إلى اليوم، وأسلوب فرق تسد قديم بقدم الزمان حيث نقل لنا التاريخ كما في الأخبار الطوال للدينوري، قال الإسكندر لمؤدبه أرِسْطَاطَاَليس: ((إني قد وترت أهل الأرض جميعاً لقتلي ملوكهم، واحتوائي على بلادهم، وأخذي أموالهم، وقد خفت أن يتظافروا على أهل أرضي من بعدي فيقتلونهم، ويبيدونهم لحنقهم عليَّ، وقد رأيت أن أرسل إلى كل نبيه وشريف، ومن كان من أهل الرياسة في كل الأرض، وإلى أبناء الملوك فأقتلهم.

فقال له مؤدبه: ليس ذلك رأي أهل الورع والدين، مع إنك إن قتلت أبناء الملوك، وأهل النباهة والرياسة كان الناس عليك وعلى أهل أرضك أشد حنقاً من بعدك، ولكن لو بعثت إلى أبناء الملوك، وأهل النباهة فتجمعهم إليك فتتوجهم بالتيجان ، وتُمَلكَ كل رجل منهم كورة[٢] واحدة، وبلداً واحداً فإنك تشغلهم بذلك بتنافسهم في الملك، وحرص كل واحد منهم على أخذ ما في يدي صاحبه عن أملاك بلادك، فتلقي بأسهم بينهم، وتجعل شغلهم بأنفسهم فَقَبِلَ الإسكندر ذلك منه

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: الخطبة القاصعة: ١٩٢.

(٢) الكورة: الصقع والمدنية.

وفعله، وهم الذين يقال لهم ملوك الطوائف))[١].

وللصهيونية العالمية خطة مفصلة في تقسيم البلاد الإسلامية كالعراق ومصر وغيرها. ولقد من الله على عباده الصالحين أن ألف بين قلوبهم وجمعهم على كلمة التقوى، يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٢].

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٣].

ولكن رغم هذا التآلف الذي مَنّ الله على المؤمنين به، لابد وأن تقع بينهم البغضاء والشحناء فيختلفون ويتفرقون... وهنا يأتي دور المؤمن العامل المصلح الذي رزقه الله همة عالية، وحكمة بالغة، وقدرة على التأليف والتقريب وهو دور عظيم لا يلقاه إلا ذو حظ عظيم، وقد رأينا وقرأنا كيف أصلح الله أمماً ووحد كلمتها على يد أحد المصلحين من الرسل، أو الأنبياء، أو أولياء الله المنتجبين كما جمع الله العرب على يد رسول الله صلى الله عليه وآله على دعوته فنالوا كل نعمة وكرامة **((فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث الله إليهم رسولاً، فعقد بملته طاعتهم، وجمع على دعوته ألفتهم كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، وأسالت لهم جداول نعيمها، والتفت الملة بهم في عوائد بركتها فأصبحوا في نعمتها غرقين، وفي خضرة عيشها فكهين ...))**[٤].

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال: ٣٨.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

(٣) الأنفال: ٦٣.

(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة: الخطبة القاصعة: ١٩٢.

وجَمْعُ الناسِ، وتوحيد كلمتهم، لطف من الله، يمن به على بعض عباده من ذوي العزيمة القوية، والإرادة الصلبة، والنية الصادقة؛والخبرة الاجتماعية الواسعة ولهذا يتوسل الإمام السجاد (عليه السلام) بالله تعالى أن يُزَيِّنَه بتلك الخصلة العظيمة، رغم أنه له الحظ الكامل في ذلك كيف لا وهو ممن أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، والذي كان يُحْسِنُ لأعدائه فضلاً عن أوليائه .

ولنعود إلى أصل الدعاء في قوله (عليه السلام): ((**وضم أهل الفرقة**)) وهي ((عبارة عن التأليف بين أرباب القلوب المتنافرة، وإيقاع المحبة بين الأنفس المتباغضة ؛ لينعقد حبل أُلفتهم التي هي من أعظم الأسباب في استعدادهم لسعادتي الدنيا والآخرة ولذلك عَظَّم الله تعالى المنّة بإيقاع التأليف بين أهل الملة))(١)، فقال تعالى: ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** ﴾(٢).

وإذا رجعنا أكثر إلى التعاليم الأخلاقية، والخصال الكريمة التي حث عليها الإسلام كالتّبار، والإحسان، والتواصل، والتآلف، والتآخي، والرفق، والتواضع والشكر، وصلة الرحم، والبر بالوالدين، وإصلاح ذات البين، والعطف على الصغير، وإجلال الكبير، وإكرام الضيف، وما إلى ذلك من أخلاق وأعراف وتقاليد... ما أقرها الإسلام إلا لأجل تأليف القلوب؛ لتكوين أمة متعاونة متضامنة متوازرة، فوحدة القلوب لا يمكن أن يمزقها شيء؛ ولهذا جعل الإسلام المفرقين بين الأخوان هم شرار الناس فعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ((**قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال المشاؤون بالنميمة، المفرقون**

---

(١) السيد علي خان المدني، رياض السالكين: ٣٤٣/٣.

(٢) الأنفال: ٦٣.

بين الأحبة، الباغون للبراء العيب[(١)]))[(٢)].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((**وسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله شرار الناس من يبغض المؤمنين، وتبغضه قلوبهم، المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء العيب أولئك لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم**))[(٣)] .

خامساً: إصلاح ذات البين :

قال الراغب الأصفهاني: الصلاح ضد الفساد، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسيئة، قال تعالى:

﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾[(٤)].

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾[(٥)].

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[(٦)] في مواضع كثيرة.

والصلح يختص بإزالة النِّفار بين الناس، يقال منه اصطلحوا، وتصالحوا قال تعالى: ﴿أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾ ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[(٧)].

البين في كلام العرب جاء على وجهين: يكون البين الفرقة، ويكون الوصل،

---

(١) أي الطالبون للعيب لمن بريء عنه.

(٢) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ٣٧٥/٤٤.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٩٨/٦٧.

(٤) التوبة: ١٠٢.

(٥) الأعراف: ٥٦.

(٦) البقرة: ٨٢ .

(٧) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن: ٢٨٤

بأن يبين بيناً وبينونة وهو من الأضداد، قال الشاعر:

((**لعمرك لولا البين لا يقطع الهوى ولـولا الهوى ما حن للبين آلفُ**))[١]

وقد ذكر شارح الصحيفة السجادية السيد علي خان المدني في رياض السالكين ثلاثة معاني لكلمة البين وهي:

١- إصلاح الفرقة على أن البين بمعنى الفرقة، والمراد بها الخصومة والمنازعة والعداوة، والبغضاء.

٢- إصلاح ما بين الناس من أحوال حتى تكون ألفة ومحبة على أن البين ظرف.

٣- إصلاح الوصل كما قاله الزجاج فيكون الصلاح بمعنى السعي في كونهم على ما هم عليه من الألفة.

ثم قال: ((وخير هذه الاحتمالات أوسطها))[٢] .

والذي اعتقده أن كلمة ((**إصلاح ذات البين**)) مطلقة أي تشمل كل الشؤون الاجتماعية التي تربط الناس بعضهم بالبعض الآخر فكل ما من شأنه يصلح ما فسد بين الناس، ويوصل ما تقطع بينهم، وما يجمع قلوبهم ، ويوحدها على دين الله فهو إصلاح، والدليل على ذلك ما ورد في القرآن والسنة المطهرة من أمر به وحث عليه، ومدح له، يقول تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

وإذا تتبعنا كلمة صلح، أو إصلاح في القرآن الكريم نجد أنها وردت مطلقة تشمل جميع نواحي الإصلاح سواء كان الإصلاح السياسي، أو الاجتماعي أو الاقتصادي...

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: ٦٢/١٣.

(٢) السيد علي خان المدني، رياض السالكين: ٣٤٥/٣.

فالإصلاح الاجتماعي هو وصل ما تقطع بين الناس من صلات تربط بعضهم بالبعض، وتغير واقعهم من واقع فاسد إلى واقع سليم، يقول تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[١].

وهاتان الآيتان، وإن نزلتا في حادثة معينة، إلا أنهما لا تنحصران بهما وإنما تدل على أكثر الجوانب الإصلاحية.

وإصلاح ذات البين من أشرف وأعظم الأعمال التي تُقرب العبد إلى الله تعالى فهي أعظم من عامة الصلاة والصيام كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أكد على ذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة يقول تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢].

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾[٣].

وأما ما ورد في الأحاديث الشريفة فكثير جداً فنذكر منها:

قال صلى الله عليه وآله: ((**إصلاح ذات البين أعظم من عامة الصلاة والصيام**))[٤].

---

(١) الحجرات: ٩-١٠.

(٢) النساء: ١١٤.

(٣) النساء: ٨٥.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٦/ ٤٣ باب الإصلاح بين الناس.

وعن الصادق عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما عمل امرؤ عملاً بعد إقامة الفرائض خيراً من إصلاح بين الناس، يقول خيراً، وينمي خيراً**))[١].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: ((**صدقة يحبها الله إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وتقارب إذا تباعدوا**))[٢].

ويقول عليه السلام للمفضل: ((**إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة فافتدها من مالي**))[٣].

يقول أبو حنيفة سايق الحاج: ((مر بنا المفضل، وأنا وختني نتشاجر في ميراث فوقف ساعة، ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربع مائة درهم فدفعها إلينا من عنده حتى إذا استوثق كلٌ واحد منا من صاحبه، قال: أما أنها ليست من مالي، ولكن أبو عبد الله عليه السلام أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما، وافتديها من ماله فهذا من مال أبي عبد الله عليه السلام))[٤].

بهذه الأحاديث الواضحة المدلول، يتبين لنا عظمة الإصلاح، وإصلاح ذات البين بالذات... ورغم أن الإسلام حرم الكذب، واعتبره من أقبح المحرمات لكن في الإصلاح جوَزَهُ، يقول أبو عبد الله عليه السلام: ((**المصلح ليس بكاذب**))[٥] أي إنه نَزَّل كلام المصلح، وإن لم يكن حقيقة، حين ينقل إلى المخاصمين كلاماً لم يقولاه منزلة الصدق، وقيل: ((إنه لا يسمى كذب اصطلاحاً، وإن كان كذباً لغة ؛ لأن

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٦/ ٤٣ باب الإصلاح بين الناس.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢٠٩/٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٠٩/٢.

(٥) المصدر نفسه: ٢١٠/٢.

الكذب في الشرع ما لا يطابق الواقع، ويذم قائله، وهذا لا يذم شرعاً))[1] وقيل: ((لم يكذب من نم بين اثنين ليصلح))[2] .

ولنختم هذا البحث بوصية أمير المؤمنين علي عليه السلام لولديه وهو يكاد يغادر الدنيا، يقول عليه السلام: ((**أوصيكما، وجميع ولدي، وأهلي، ومن بلغه كتابي بتقوى الله، ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدكما صلى الله عليه وآله يقول: صلاح ذات البيّن أعظم من عامة الصلاة والصيام**))[3] .

ولعل السر في هذا التأكيد على إصلاح ذات البيِّن : إن الصلاة والصيام إذا كانت تقام في مجتمع لا يتمتع بعلاقات جيدة بين أبنائه فإنها تصبح فارغة المحتوى وتفقد الغاية منها، وهي التي أرادها الله تعالى، وهي إصلاح الإنسان في جميع أبعاده الفردية والاجتماعية... أو أن إصلاح ذات البين يوثق العلاقة بين الناس، ويزيد في روح التآلف والتوادد فتتحسن أحوالهم، وتصلح سيرتهم وبذلك يكونوا عباداً مخلصين لله تعالى.

سادساً: إفشاء العارفة وستر العائبة :

من أخلاق الإيمان - والتي ينبغي أن تتجلى في سلوك المؤمن - هي العمل بجد على نشر الفضائل والمكارم والإحسان في الوسط الاجتماعي وإشاعتها بين الناس كي يتخلَّق بها الناس، أو تكون عنصراً فعالاً في تحفيز الناس على فعل الخير... وفي الوقت الذي ينتشر المعروف، والخير، والجمال، والإحسان... فيجب

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٦/ ٤٦.

(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: ٢/٥٠٧.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة: كتاب: ٤٧.

أن يبذل جهده، لستر عيوب الناس حتى ولو عرفوا بها - إلا إذا كان فيها خطراً على الإسلام والمسلمين - فإن العيوب والقبائح، إذا دفنت يمكن أن تقبر في محلها وتزول، ولربما يتوب صاحبها، وتحفظ كرامته، ويرجع إلى سبيل الرشد يوماً ما، وأما إذا تحدثنا بها، ونشرناها، وفشت في الوسط الاجتماعي، فيمكن أن يكون ذلك عاملاً مساعداً على إفشائها إضافة إلى هدر كرامة من اتصف بها وربما يجرّه ذلك إلى العناد والإصرار في المواصلة عليها ونشرها بين الناس... ولكن هذا ليس على إطلاقه، وإنما ينبغي ملاحظة تأثير الإظهار أو الستر، وقد قيل: ((ستر العائبة إنما يحسن إذا وقعت من ذوي الهيئات الحسنة [أو] ممن لم يعرف بأذى، ولا فساد في الأرض، وأمّا المولعون بذلك الذين سُتِروا غير مرة فلم يكفوا فلا يبعد القول بكشف عيبهم؛ لأن الستر عليهم من المعاونة على المعاصي.

وستر عيب من يندب إلى ستره إنما هو في معصية مضت، وإمّا معصية هو متلبّس بها فلا يبعد القول بوجوب المبادرة إلى إنكارها، والمنع منها لمن له قدرة عليه، فإن لم يقدر رفع إلى أولي الأمر ما لم يؤدِّ إلى مفسدة أشد))[١] .

((وجوب الستر على المؤمن))

كل إنسان معرض للخطأ، والنسيان، والاشتباه، والغفلة، والانجرار وراء الأهواء إلا من عصمهم الله، وأذهب عنهم الرجس؛وطهرهم تطهيرا؛ لذلك أكدت الروايات الواردة عنهم بوجوب ستر المؤمن الصالح الذي وقع في مخالفة شرعية ووجوب عدم إفشائها، ونشرها بين الناس حفظاً لكرامته، وقبراً للفواحش في مهدها، وقد هدد الله تعالى الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين بعذاب

---

(١) السيد علي خان المدني، رياض السالكين: ٣٤٦/٣.

أليم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وإشاعة الفاحشة في المؤمنين لا تنحصر بتوجيه تهمة مخلة بسمعة الإنسان وإنما تشمل كل ما ينسب إليهم من قبيح الأفعال والأقوال زوراً وبهتاناً من دون مراعاة لحرمة المؤمن، ومصلحة المجتمع؛ ولهذا شدَّدت أحاديثُ أهل البيت عليهم السلام على ستر وحفظ كرامة المؤمن نذكر منها:

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((**لو وجدت مؤمناً على فاحشة لسترته بثوبي**، أو قال: **بثوبه هكذا**))[2].

وعنه عليه السلام أنه قال له النبي صلى الله عليه وآله: ((**لو رأيت رجلاً على فاحشة؟ قال: أستره قال: إن رأيته ثانياً ؟ قال: أستره بإزاري وردائي إلى ثلاث مرات، فقال النبي صلى الله عليه وآله: لا فتى إلا علي**))[3].

ولا يعنى ستره الرضا والسكوت على المنكرات التي يفعلها، وإنما يعني غض النظر عنه، وتحسيسه بصورة غير مباشرة، علّه يرجع إلى رشده لا سيما إذا كان هذا المؤمن مُتَستِراً على ذنبه، ولا يرضى بذلك أصلاً فهذا معناه أن نفسه باقية على فطرتها، ويرجى إصلاحها لو هُيئت لها عوامل الإصلاح؛ ولهذا يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((**من اطّلع على ذنب، أو سيِّئة فأفشى ذلك عليه، ولم يكتمها، ولم يستغفر الله له،كان عند الله كعاملها، وعليه وزر ذلك الذي أفشاه عليه، وكان مغفوراً لعاملها، وكان عقابه ما أفشى عليه في الدّنيا مستوراً عليه في**

---

(١) النور: ١٩.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢/٢٠٧.

(٣) الشيخ هادي النجفي، ألف حديث في المؤمن: ٢٠٥.

الآخرة ...))[(١)] .

ولأجل تجنب الوقوع في هذه المفارقة الشرعية، وما يتولد عنها من آثار سلبية جاءت التعاليم الإسلامية مؤكدة على وجوب النظر إلى الذات، وتفحص ما فيها من عيوب، وقبائح عملية، أو أخلاقية، بل أوجبتْ على الإنسان أن ينظر إلى نفسه وأعماله، ويدقق في سلوكه أولاً، وقبل كل شيء؛ ليصلح ما فيها ويزكِّيها من أدران الذنوب، وذمائم الأخلاق، وحينئذ سوف ينشغل بعيوب نفسه وهذا أعظم صارف للإنسان عن متابعة عيوب الآخرين، ومما لا شك فيه أن هذا يضع الإنسان على مدرجة الكمال حين يُبَصِّره الله بعيوب نفسه؛ لأن الإنسان مادام يحب ذاته، فإنه كلما اطلع على عيب من عيوبه عمل على إصْلاحه وبذلك ينشغل عن البحث عن عيوب الآخرين بعيب نفسه،يقول سيد الحكماء علي عليه السلام:

((من أبصر زلته صغرت عنده زلة غيره)) .

((من أبصر عيب نفسه لم يعب أحداً)) .

((من علم ما فيه ستر على أخيه))[(٢)] .

إذن، إذا أراد المؤمن أن يفوز بنيل تلك الخصلة الإلهية، ويكون سَتُوراً لابد له من أن يستعيد شريط حياته، ويتأمل فيه؛ ليقف على مفارقاته الذاتية، ويعمل على إصلاحها.

وإذا ما نازعته نفسه، ودفعته لكشف عيوب الآخرين، فيجب عليه أن يفكر جيداً، ويسأل نفسه هل أن هذا الذي أُعيب أخي فيه قد ارتكبته أم لا؟ فإن عاب الآخرين بشيء قد ارتكبه، فهو أحمق الحمقى؛ لأنه نسي ذنوبه، وذكر ذنوب

---

(١) الشيخ المفيد، الاختصاص: ٣٢.

(٢) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٤- ٢٣٥.

الآخرين، والأنكى من ذلك إنه ينسى ستر الله عليه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **((فكيف بالعائب الذي عاب أخاه، وعيَّره ببلواه! أما ذكر ستر الله عليه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذي عابه به! وكيف يذمّه بذنب قد ارتكب مثله؟! فإن لم يكن قد ركب ذلك الذنب بعينه فقد عصى الله فيما سواه مما هو أعظم منه))**(١).

إذن، تذكُّر ستّر الله على ذنوب الإنسان المتواصلة يُعينه كثيراً على ستر عيوب الآخرين، وتلك خصلة عالية من مكارم الأخلاق، ما اتصف بها إنسان إلا ستره الله تعالى، وأظهر مروءته وكرامته، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: **((لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة))**(٢).

وقد وضع الإسلام احتياطات كثيرة؛ لحفظ المجتمع البشري من الوقوع في هذه المزالق، ولنتأمل في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر حين ولاه مصراً حيث، قال: **((وليكن أبعد رعيتك منك، وأشنأهم عندك، أطلبهم لمعايب الناس فإن في الناس عيوباً. الوالي أحق من سَتَرَها فلا تَكْشفَنَّ عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك))**(٣).

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١٤٠.

(٢) الفخر الرازي: التفسير الكبير: ١٨٣.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة.

سابعاً: لين العريكة وخفض الجناح :

العريكة هي الطبيعة، وتطلق على من كـان ليناً سلساً مطواعاً منقاداً قليل الخلاف رقيقاً رحيماً فيمن يعامله، ويصاحبه، ولهذا جاء في صفة رسول الله ﷺ ((إنه كان أصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة))[١] .

وأصل الكلمة في البعير يقال عريكة البعير أي ((سنامه إذا عركه الحمل وجمعها عرائك))[٢] .

وخفض الجناح استعارة لفظية لبيان أهمية التواضع فمعنى ((**أخفض جناحك**)) أي تواضع لهم، وألن معاملتك معهم، وأرفق بهم، وأفض عليهم من لطفك ومحبتك كما يكسر الطير جناحه، ويضم فراخه بفطرته؛ ليحفظهم من الحر والبرد، فلين العريكة، وخفض الجناح تعبير ((عن التواضع المشفوع بالمحبة واللطف، كما أن الطيور تخفض أجنحتها لأفراخها محبة منها لها، وتجعلها تحت أجنحتها؛ لتكون مصانة من الحوادث المحتملة، ولتحفظها من التشتت والتفرق فكذلك الأمر للنبي إذ أمر أن يخفض جناحه للمؤمنين))[٣] .

((الرفق واللين سبيل النجاح))

الرفق ضد العنف، وهو: لين الجانب، ولطافة الفعل، والرأفة، والرحمة والعطف في الأقوال والأفعال على الخلق في جميع الأحوال...

ثم إن الرفق خُلق إلهي سامي المنزلة يتجلى في النفوس الطيبة السمحة

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار :٣٧٠/٦٤.

(٢) ابن منظور، لسان العرب١٠-٤٦٦

(٣) الشيخ ناصر مكارم شيرازي، التفسير الأمثل: ٤٢٤/١١.

الزكيّة من الآثام والأدران، ومداني الأخلاق أحبه الله تعالى لعباده، وجعله من أشرف السجايا يقول الإمام علي عليه السلام: ((**لا سجية أشرف من الرفق**))[(١)] .

((آثار الرفق في حياة الإنسان))

جبلت نفوس بني آدم على كل شيء هين لين يتعامل معها بلطف ورحمة ورأفة تحبه، وتكرمه، وتتقرب إليه، وتمنحه ما يريد، وتبقى تحن إليه حتى بعد فراقه، وهذا أمر نحسه بالوجدان فكم من فرق شاسع بين مس الحرير، وبين مس الأشواك؟وكم تنجذب النفس إلى الطريق المعبد اليسير السير؟ وكم تفر من الطريق المتعرج ذي الصخور الجارحة... ولهذا حثت التعاليم الإسلامية في أدب التعامل على الاتصاف بصفة الرفق والليونة، والمداراة، واعتبرت تلك الصفة من رحمة الله على عبده يقول تعالى مخاطباً رسوله الكريم صلى الله عليه وآله: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾[(٢)].

وإذا استقرأنا الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام نجدها إضافة إلى مدح الرفق تبين آثاره الوضعية في حياة الإنسان،نذكر منها :

أ- **الرفق سبيل النجاح في الحياة:** يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: ((**الرفق مفتاح النجاح**)) و((**ارفق توفق**)) و((**من عامل بالرفق وفق**))[(٣)] وسيأتي بيان سر ذلك من خلال الأحاديث التي نذكرها في الآثار الأخرى.

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٤.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٤.

ب- **الرفق سبيل السلام:** عندما يكون الإنسان رفيقاً فلا يواجه عنفاً ولا تحديا، وينتهي به الرفق في أغلب الأحيان إلى السلم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**الرفق يؤدي إلى السلم**))[1] بل قد يقلب العداوة والبغضاء إلى محبة ووداد كما يقول تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[2] و﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[3].

ج- **استجلاب المحبة:** الإنسان اللين الطبع الذي يتعامل بلطف وعطف ورفق تحبه النفوس بفطرتها، ولهذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**ما استجلبت المحبة بمثل السخاء والرفق وحسن الرفق**))[4].

د- **حل المشاكل وتسهيل الصعاب:** وذلك لأن الرفق في المعاملة يجتث من النفوس الانفعال السلبي، ويلين أعصاب الإنسان، ويُذهب عنه الغضب والغيظ لذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

((**الرفق يفل حد المخالفة**)).

((**بالرفق تهون الصعاب**)).

((**الرفق يُيَسّر الصعاب، ويسهل شديد الأسباب**)).

((**لن لمن غالظك فإنه يوشك أن يلين لك**)).

((**من استعمل الرفق لان له الشديد**)).

((**كم من صعب تسهل بالرفق**))[5].

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٤.

(٢) فصلت: ٣٤.

(٣) المؤمنون: ٩٦.

(٤) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٤.

(٥) المصدر نفسه.

هـ- **الرفق يستدر الرزق:** لأن الرفق هو المداراة الحكيمة، والتدريج لأجل تحقيق المطالب بالهدوء واللطف، وهذا سبب يفتح الله به أبواب الرزق، هذا من جانب، ومن جانب آخر فمن كان رفيقاً أي متصرفاً فيما يملكه بتدبير واقتصاد حفظ ما عنده يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**من استعمل الرفق استدر الرزق**)) و((**من استعمل الرفق غنم**))[1].

ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**إن في الرفق الزيادة،والخير، والبركة، ومن يحرم الرفق يحرم خيراً كثيراً**))[2].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**أيما أهل بيت أعطوا حظّهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق، والرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال والرفق لا يعجز عنه شيء، والتبذير لا يبقى معه شيء، إن الله رفيق يحب الرفق**))[3].

و- **دوام الصحبة:** مما لا شك فيه أن من كان فظاً غليظ الطبع، خشن التعامل تبغضه القلوب، وتنفر منه النفوس؛ ولذا لا تدوم معه صحبة، وبعكسه من كان ليناً رفيقاً عطوفاً فإن رفقته مع الآخرين تدوم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**بالرفق تدوم الصحبة**))[4] وجعل الإسلام الثواب الجزيل لمن كان أعظم رفقاً بصاحبه يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً، وأحبهما إلى الله عز**

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم:٢٤٤.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ١١٩/٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٤.

وجلّ أرفقهما بصاحبه))(١) .

ثامناً: حسن السيرة :

وهي السلوك المستقيم الذي ينم عن وعي رسالي يجسد الرسالة في الواقع العملي قولاً وفعلاً حتى يجعلها حقيقة شاخصة ينطق عنها سلوكه بين الناس وخير الهداة من هدى الناس بسيرته.

والسيرة العادلة الحسنة تبرز محاسن الرسالة في الشخص، حتى يصبح مُذَكِّراً بها، وإن لم يتكلم، وبعبارة أخرى أن صاحب السيرة الحسنة إذا ما شوهد في الساحة الاجتماعية ذَكَّرَ الناس برسالته،وجذبهم إليها، وإن لم يدعهم بلسانه لها وهذا هو الداعية الصامت الذي يهدي الناس، ويربيهم بسيرته، يقول أمير المؤمنين عليه السلام : ((**من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه، ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم**))(٢) .

وذلك لأن هذا التعليم ينبئ عن صدق وإخلاص لما يتبنى من أفكار وعقائد فإذا طابق السلوك العملي المَبْنى الرسالي كان أكثر تأثيراً على الناس، ولهذا كان الأئمة الأطهار عليهم السلام يؤكدون على ذلك، يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((**كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم؛ ليروا منكم الورع، والاجتهاد، والصلاة، والخير فإن ذلك داعية**))(٣) بل أرادوا من شيعتهم أن يكونوا النماذج التي تحكي الإسلام بسيرتها

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ١٢٠/٢.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٥٦/٢.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٧٨/٢ باب الورع.

ليصبحوا مقتدى للناس يتحدثون بورعهم واستقامتهم فعن علي بن أبي زيد عن أبيه قال: ((**كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عيسى بن عبد الله القمي فرحب به وقرب من مجلسه، ثم قال: يا عيسى بن عبد الله ليس منا - ولا كرامة - من كان في مصر فيه مائة ألف، أو يزيدون، وكان في ذلك المصر أحد أورع منه**))(١).

وعن محمد بن حمزة العلوي قال: ((أخبرني عبيد الله بن علي عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: كثيراً ما كنت أسمع أبي يقول: **ليس من شيعتنا من هو في قرية فيها عشرة آلاف رجل فيهم [من] خلق الله أورع منه**))(٢).

وبهذا يتبين لنا أن السيرة الحسنة هي مطابقة السلوك العملي لما يحمله الإنسان من عقائد سليمة وأحكام صحيحة، وأما من خالف قوله فعله فهو سيئ السيرة، ممقوت عند الله، وعند عباد الله، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(٣).

وإنما مَقَتَ الله تعالى الذي يقول ولا يفعل؛ لأنه يعطي صورة عكسية عن المبادئ التي يحملها، أو يدعوا إليها، فمن يأمر بالمعروف ولا يتحلّى به، أو ينكر المنكر، وهو متلبس به، لا يمكن أن يُقبل منه؛ لأن قوله خالف فعله وصفته، ومن وعظ بموعظة، وهو مخالف لها في سلوكه ارتفعت موعظته من القلوب، ولنقرأ القصة التي رواها مؤلف كتاب شعراء الغري علي الخاقاني عن والده: ((كان العالم العامل، والواعظ الزاهد الشيخ جعفر التستري يعظ الناس في الجهة الشمالية من

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٨٧/٢ .

(٢) المصدر نفسه: ١٢٠.

(٣) الصف: ٢-٣.

الصحن الحيدري قرب (التكّية) وكنت أحضر مجلسه ووعظه وكان قوي التأثير نافذ القول، يجتمع حول منبره الآلاف من الفقهاء، والعلماء، والتجار وأبناء البلد في كل يوم ساعة، أو يزيد، وكان يختم خطبته فيبتدىء بصلاة المغرب، وفي يوم جاءه رجل من أهل الزهد فسأله أن يعظ الناس في الغد، ويفهمهم سوء مغبة الترف؛ لأن نسيجاً أجنبياً وفد على العراق يعرف بـ(الكرمسود) وهو يعلو بثمنه عشرات المرات على اللباس المتعارف وهو (القدك) أي الخام المصبوغ بالزرقة فيصنع منه معظم الطبقات ألبستهم البارزة وأن بوعظك هذا تقاوم الأجنبي؛ لئلا ينتفع من بلادنا، ويسلب ثروتنا كما تجعل المساواة بين الغني والفقير باقية فاستحسن منه ذلك، وما إن جاء اليوم الثاني إلا والسائل ينتظر منه الدخول في الموضوع، وإذا بالشيخ كأن لم يُسأل فوجه أسباب التأخير، وتصور أن سيخوض الموضوع في اليوم الثالث، وإذا به لم يفعل فقال: لعل الشيخ بدا له، رأي وهو أعرف بما يبدو له ولكنه لم ينقطع عن سماع وعظه والحضور في مجلسه، غير أن الشيخ في اليوم العاشر طرق الموضوع طرقاً عنيفاً ، وتبسط في وعظه، واستوفى كلما يجب أن يقال، فإذا بمن كان لابساً من ذلك النسيج ود أن الأرض تبتلعه؛ ليرتاح من مشاهدة المستنكرين له، وبعد الفراغ من وعظه جاءه السائل، وقبل يده، وقال: جزاك الله خيراً، ولكني أود أن أعرف سبب التأخير الذي ربما في خلاله تورط بعض الناس ما نهيت عنه تنفس الشيخ الصعداء، وقال: يا أخي رأيت أن لا أنهى عن أمر وربما عندي ما يشبهه؛ لذا رأيت أن أحاسب نفسي أولاً. فإذا بي لم أجد شيئاً، ثم فتشت زوجتي فلم أجد عندها شيئاً، فصرت أذهب إلى من أعول بهم، أو أؤثر عليهم مباشرة كابن أخي وزوجته، وصهري، وابنتي، وإذا بعد فحص دام عشرة أيام توثقت خلالها من انعدام الشيء الذي أنوي استنكاره؛ لذا ترى أثر الموعظة في

النفوس بالغاً))[١] .

نقلت هذه القصة على طولها؛ لأستدل أن السيرة الحسنة هي السلوك الذي لا يختلف فيه القول والادعاء مع الفعل والتصرف، وأن دور السيرة الحسنة عميق التأثير في الآخرين. وفي ختام هذا البحث لابد أن نشير أن السيرة الحسنة كما ترفع مقام صاحبها وتحببه للقلوب الطاهرة فهي تقهر المناوئ وتبهظه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**بالسيرة العادلة يقهر المناوئ**)) وذلك لأن العدو يفتش عن كل نقطة ضعف في عدوه؛ لينفذ منها إلى إسقاطه والإيقاع به؛ ولهذا أشد ما يغيظ الإنسان أن يرى عدوه حسن السيرة مستقيم السلوك، طيب السمعة، ناجحاً في حياته؛ ينسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((**ما انتقم الإنسان من عدوه بأعظم من أن يزداد من الفضائل**))[٢]، وسأله رجل بماذا أسوء عدوّي؟ فقال: ((**بأن تكون على غاية الفضائل؛ لأنه إن كان يسوءه أن يكون لك فرس فاره أو كلب صَيُود فهو لأن تُذْكَرْ بالجميل، وينسب إليك أشد مساءة**))[٣] .

تاسعاً: سكون الريح :

وهو كناية عن الوقار، والرزانة، والهدوء، والوداعة، قال الزمخشري: ((رجل ساكن الريح أي وقر)) ولما كانت الريح سريعة الحركة طائشة عجلة استعير لفظها للطيش، والعجلة، والإمام السجاد عليه السلام في هذا الدعاء يتوسل إلى الله أن يهبه السكينة، والوقار، والهدوء رغم أن الله تعالى زَيَنّه بها إلا أنه عليه السلام يطلب من الله

(١) علي الخاقاني، شعراء الغري: ٤٦٥/١٢.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣٣٣/٢٠.

(٣) المصدر نفسه : ٢٥٨/٢٠.

المزيد،مع بلوغه ذروة الكمال؛ لأن من سمات أهل البيت عليهم السلام أنهم لا يخرجون أنفسهم عن التقصير في حق الله، وأدعيتهم شاهده على ذلك. مضافاً إلى ما صرحوا به من أحاديث لأصحابهم .

((في معنى السكينة))

السَكِينَة لغة: تطلق على الرزانة[١]، والمهابة، والوقار، ولكن هناك فرق بين السكينة التي يتحلى بها المؤمن، والتي هي ثمرة من ثمار الإيمان، وبين السكينة المفتعلة التي تكون نتيجة التصنع، والتمثيل، وافتعال المواقف الصلبة، للحصول على الهيبة في عيون الخصم كما يظهر ذلك من تْصنع (الدبلوماسيين) الذين يحاورون خصومهم، أو من يريدون أن يُكَوِّنوا معهم علاقات سياسية أو اقتصادية... فهذه ليست سكون، ولا وقار، وإنما هي توقر، وتَسَكُّن، وضبط للنفس مفتعل ولهذا نرى كثيراً من (الدبلوماسيين) عندما لا يحقق الهدف من حواره يخرج من طوره ويكشر عن أنيابه، ويحاول أن يوجه أقسى الضربات لمحاوره...

أما سكينة الإيمان فهي ((أمر وراء السكون والثبات لا أن لها معنى في اللغة أو العرف وراء مفهوم الحالة النفسانية الحاصلة من السكون والطمأنينة بل بمعنى أن الذي يريده تعالى من السكينة في كلامه مصداق غير المصداق الذي نجده عند كل شجاع باسل له نفس ساكنة وجأش مربوط، وإنما هي نعت خاص من الطمأنينة النفسانية له نعت خاص وصفة مخصوصة))[٢]

وباختصار: السكينة الإيمانية ((حالة إلهية لا ينسى العبد معها مقام ربه لا كما

---

(١) الرزين: الثقيل من كل شيء ورجل رَزِينٌ: ساكن، وقيل: أصيل الرأي.

(٢) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢٢٣/٩.

عليه عامة الشجعان أولوا الشدة والبسالة المعجبون ببسالتهم المعتمدون على أنفسهم))[١] .

ولهذه المنّة الإلهية عطاء عظيم لا يحوط به بيان، ولا يمكن أن يتصوره إنسان إلا حين يتذوق لذته في حالات الشدة والعسر عندما تتكالب عليه الأعداء، وتظلم دنيا الناس، ورغم ذلك يبقى قلبه ثابتاً مطمئناً لا ينتابه قلق ولا اضطراب؛ ولهذا نرى أولياء الله الخلص يطلبون من الله أن يمن عليهم بها، فإنها نعمة لا تفوقها نعمة، وسعادة لا تدانيها سعادة، وهي السلاح الجبار الذي يقاوم به المؤمن فتن الحياة بطرفيها السلبي والإيجابي، يقول المحدث المجلسي قدس سره: ((المراد بالسكينة الثبات، وطمأنينة النفس، وشدّة اليقين، بحيث لا يتزلزل عند الفتن،وعروض الشبهات، بل هذا إيمان موهبيٌّ يتفرع على الأعمال الصالحة والمجاهدات الدينية سوى الإيمان الحاصل بالدليل، والبرهان؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾[٢]))[٣] .

وقد أكدت روايات كثيرة على أن السكينة هي الإيمان الثابت المستقر الذي لا تزلزله عواصف الفتن، فعن علي بن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((سألته عن قول الله عز وجلّ: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٤] قال: **هو الإيمان** قال: وسألته عن قول الله عز وجلّ: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ قال: **هو الإيمان**))[٥]، وعنه

---

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢٢٣/٩.

(٢) الفتح: ٤.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٩٩/٦٩.

(٤) الفتح: ٤.

(٥) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ١٥/٢.

عليه السلام: ((**السكينة هي الإيمان**))[١] .

((آثار السكينة في الحياة اليومية))

للسكينة آثار كبيرة فعلى المستوى الفردي تكنح الإنسان الراحة ، والإطمئنان والإستقرار النفسي ، والقوة ، والثبات في مختلف حالاته فلا تزعزعه المحن ، ولاتهزه العواصف ، ولاتغره الأموال والمناصب ، ولا السمعة والجاه ، وعلى المستوى الإجتماعي تمنحه الهيبة، والاحترام، والقبول عند الناس بل ربما حتى في عيون الأعداء، فقد روي أن أمير المؤمنين عليه السلام مر بجماعة من أهل الشام فيهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهم يشتمونه فأُخبر بذلك فوقف فيمن يليهم من أصحابه وقال لهم: ((**انهضوا إليهم، وعليكم [بـ]ـالسكينة، وسيماء الصالحين ووقار الإسلام، أقربنا من الجهل بالله**[٢] **والجرأة عليه، والاغترار لقوم رئيسهم معاوية، وابن النابغة، وأبو الأعور السلمي، وابن أبي معيط شارب الخمر، والمجلود الحد في الإسلام، والطريد مروان، وهم هؤلاء يقربون، ويشتمون وقبل اليوم ما قاتلوني وشتموني ...**))[٣] .

وعلى ضوء قوله عليه السلام: ((**انهضوا إليهم وعليكم السكينة ...**)) نستدل أن المؤمن ينبغي إذا برز للناس أياً كانوا أن يبرز إليهم، وعليه الوقار، والهدوء، والوداعة، والرزانة؛ لأن ذلك أوقع في القلوب، وأملأ للعيون، وأجلب للاحترام والقبول ولهذا يقول رسول الله صلى الله عليه وآله في وصيته لابن مسعود: ((**يا بن مسعود عليك**

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ١٥/٢.

(٢) في تاريخ الطبري: فو الله لأقرب قوم من الجهل بالله عز وجل قائدهم ومؤدبهم معاوية، وابن النابغة.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٦١٣/٣٢.

بالسكينة والوقار، وكن سهلاً ليناً عفيفاً مسلماً ...))[1] .

والسبب في ذلك أن حملة الإسلام ودعاته الذين يبشرون به إذا لم يتحلّوا بالرزانة، والوقار، والوداعة لا يمكن لهم أن يؤدوا رسالة الله، ويرسخوها في قلوب من يدعوهم.

إذن، السكينة والوقار تمنحان الإنسان: جلالاً، وهيبة، وكرامة، وجمالاً، وزينة وفضلاً، وتؤمنه من دناءة الطيش، وتحفظه من الخفة والتعجل، وبذلك يتوفر على سلامة الدنيا والآخرة شريطة أن تكون طبيعية غير متكلفة، نابعة عن إيمان، ووعي، وصدق خالص لله وفي الله تعالى.

ونختم هذا البحث ببعض الأحاديث التي وردت في بيان أهمية هذه الخصلة الكريمة:

من وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسين عليه السلام قال: ((**واعلم بني أنه... من خالط العلماء وقر، ومن خالط الأنذال حقر**))[2] .

وعنه عليه السلام: ((**ومن تفقه وقر**))[3] .

وقال عليه السلام: ((**من عُرِف بالحكمة لحظته العيون بالوقار**))[4] .

وعن الإمام الصادق عليه السلام: ((**اطلبوا العلم، وتزيّنوا معه بالحلم والوقار**))[5] .

وفي غرر الحكم جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٠٩/٧٧.

(٢) الآمدي، تصنيف تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢٨٥.

(٤) المصدر نفسه: ١٨٣.

(٥) المصدر نفسه: ٤١.

((ملازمة الوقار تؤمن دناءة الطيش)) .

((من كثر وقاره كثرت جلالته)) .

((يستدل على عقل الرجل بكثرة وقاره)) .

((وقار الرجل يزيّنَه، وخرقه يشينه)) .

((عليك بالسكينة فإنها أفضل زينة)) .

((الوقار برهان النبل)) .

((السكينة عنوان العقل)) .

((من توقر وقر)) .

((إن تَوَقَّرت أُكرمت)) .

((بالوقار تكثر الهيبة))(١) .

((الصمت يكسبك الوقار، ويكفيك مؤونة الاعتذار)) .

((الصمت وقار، والهذر عار))(٢) .

عاشراً: طيب المخالقة :

المخالقة هي المعاشرة بالحسنى، ورد الجميل بأجمل منه، والحسن بأحسن منه ودرء السيئة بالحسنة، وتفقد الإخوان، وقضاء حوائجهم، وأداء حقوقهم ومشاركتهم في آلامهم، وآمالهم، وأفراحهم ،وأحزانهم، وقد أمر الإسلام بحسن المعاشرة مع أي إنسان يلتقيه المسلم أي كانت عقيدته، ومذهبه، وقوميته، ووطنه يقول الإمام الباقر عليه السلام: **((صانع المنافق بلسانك، وأخلص ودك للمؤمن، وإن**

---

(١) الآمدي، تصنيف تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢١٦.

جالسك يهودي فأحسن مجالسته))[١] .

وتأسيساً على ذلك ينبغي لكل مؤمن أن يتحلّى بطيب المخالقة مع جميع الناس، ولكن ينبغي الإشارة هنا إلى أن مصانعة المنافق لا تعني مداهنته والرضا بسلوكه، وإنما تعني أن تعامله بالخلق الحسن لعله يهتدي ويرجع عن غيّه، أو على الأقل درءاً لشره، ولنا في ذلك خير أسوة في العالمين الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله حيث كان يتألف قلوب أعدائه كما تصرف صلى الله عليه وآله في فتنة عبد الله بن أبي عندما قال: ﴿**لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ**﴾[٢] وأراد ولده قتله، فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله: ((**قد بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت لابد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: بل نرفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا**))[٣] وبهذا يتبيَّن أن المصانعة نوع مداراة وتأليف للقلوب بالإحسان إليها.

فطيب المخالقة إذن هي أن يحسن الإنسان المعاملة مع من يعاشرهم ويتفضل عليهم، يقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ((**... وإن خالطت الناس فإن استطعت أن لا تخالط أحداً منهم إلا من كانت يدك عليه العليا فافعل**))[٤] وهو تعبير عن الأمر بالإحسان والأفضال على الآخرين بتقديم الخدمات إليهم في سبيل الله تعالى.

وبهذا اتضح أن طيب المخالقة معنى جامع لكل الفضائل الأخلاقية التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمن في علاقاته مع الناس جميعاً كصدق الحديث، وأداء

---

(١) الشيخ النوري، مستدرك الوسائل: ٣١٦/٨.

(٢) المنافقون: ٨ .

(٣) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢٨٤/١٩.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣١٠/٧٨.

الأمانة، وحسن الجوار، وكظم الغيظ، وقبول العذر، والعفو عن الذنب، ومد يد العون، والرفق، والمداراة، وعيادة المرضى، وتشييع الموتى، واستجابة الدعوة والتعاون على البر والتقوى، يقول الإمام الصادق عليه السلام لكثير بن علقمة حينما طلب منه الوصية: ((**أوصيك بتقوى الله، والورع، والعبادة، وطول السجود، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وحسن الجوار، فبهذا جاءنا محمد صلى الله عليه وآله صلوا في عشائركم وعودوا مرضاكم، واشهدوا جنائزكم، وكونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً حببونا إلى الناس، ولا تُبَغِّضُونا إليهم، فجرّوا إلينا كل مودة، وادفعوا عنا كل شر**))[(١)].

وعن أبي الربيع الشامي قال: ((**دخلت على أبي عبد الله عليه السلام والبيت غاص بأهله -إلى أن قال- فقال: يا شيعة آل محمد اعلموا أنه ليس منا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صحبه، ومخالقة من خالقه، ومرافقة من رافقه، ومجاورة من جاوره، وممالحة من مالحه**))[(٢)].

وعن أبي أسامة زيد الشحام قال: ((قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **اقرأ على من ترى أنه يطيعني منهم، ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله عز وجل والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود، وحسن الجوار فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله، وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها براً أو فاجراً، فإن رسول الله كان يأمر بأداء الخيط والمخيط، صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدى الأمانة، وحَسَّنَ خلقه مع الناس**

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٨/٤٠٠.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠٢.

قيل هذا جعفري، فيسرني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر وإذا كان على غير ذلك دخل علي بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر، والله لحدّثني أبي عليه السلام أن الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي عليه السلام فيكون زيّنها، أدّاهم للأمانة، وأقضاهم للحقوق وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه، فتقول من مثل فلان، إنه أدانا للأمانة، وأصدقنا الحديث))[١] .

الحادي عشر: السبق إلى الفضيلة :

إن من أبرز معالم المؤمن وسماته المبادرة إلى كل عمل يقربه إلى الله تعالى والسعي الجاد، وبذل الجهد لنيل (الدرجة الرفيعة في الفضل) والسابقون هم المسارعون إلى طاعة الله تعالى، وحمل رسالته في الامتثال لأوامرها، ونشرها وتبليغها إلى الناس أجمع طمعاً بنيل رضا الله، ومحبته ورحمته ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ**﴾[٢].

والمسابقة إلى نيل المكارم، والأخلاق الإلهية من أعظم سمات الإيمان، وأكبر مفاخر المؤمن.

والسبق إلى الفضيلة بمعناها العام بما تشمل من فضائل الأعمال، ومكارم الأخلاق بكل ما للكلمة من معنى حث عليها القرآن، والسنة الشريفة، يقول تعالى:

﴿**وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ**﴾[٣].

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٣٩٨/٨.

(٢) المؤمنون: ٦١.

(٣) البقرة: ١٤٨.

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١]

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((**فيما ناجى الله تعالى به موسى عليه السلام ...يا موسى نافسْ في الخير أهله، واسبقْهم عليه فإن الخير كاسمه**))[٢] .

والسبق والتسابق إلى مغفرة الرب الجليل هو التسابق إلى الإيمان الذي يدفع الإنسان إلى عمل الخير جميعاً، والاتصاف بالخلق الإسلامي القويم فكراً، وعاطفة وسلوكاً؛ ولذلك لا ينبغي للمؤمن أن ينتظر من الآخرين أن يفعلوا الخير دونه ويبقى هو خال الراحتين، وإنما يجب أن يبادر، ويسبق الآخرين إلى كل فضيلة ومكرمة، ويكون بذلك من أهل الخير، يقول سيد السابقين علي عليه السلام: ((**افعلوا الخير، ولا تَحقَّروا منه شيئا فإن صغيره كبير، وقليله كثير، ولا يقولن أحدكم إن أحداً أولى بفعل الخير مني، فيكون والله كذلك**))[٣] .

وليس هناك كالسبق إلى الفضائل،وأعمال الخير يقرب الإنسان إلى الله يقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[٤].

وإنما كان السابق إلى الخير أفضل؛ لأنه أسرع استجابة لأمر الله، والإنسان كلما كان مبادراً لطاعة الله بنية خالصة، فإنه يكون أقرب إلى الله، وكلما اقترب الإنسان من الله سمت فضائله، وعلت حسناته.

---

(١) آل عمران: ١٣٣.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٣/٣٥٤.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة: قصار الحكم: ٤٢٢.

(٤) الواقعة: ١٠-١١.

((العناصر اللازمة للسبق))

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ((**كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن الجنة حفت بالمكاره وإن النار حفت بالشهوات، واعلموا إنه ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كره، وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة، فرحم الله إمرءاً نزع عن شهوته، وقمع هوى نفسه، فإن هذه النفس أبعد شيء منزعاً، وإنها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى**))[(١)].

وبناء على هذا ليس من السهل أن يصبح المؤمن من السَبّاقين المسارعين إلى الخيرات إلا بعد توفر عناصرها فيه، حيث تتأصل في نفسه، وتترسخ في أعماقه وتتجسد في سلوكه، حتى تملك عليه كيانه تلك العناصر يمكن أن نستوحيها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[(٢)].

ففي هذا النص الإلهي تتجلى تلك العناصر وهي:

١- **الخشية من الله تعالى**: وهي حالة تحصل للإنسان عند شعوره بعظمة الله وهيبته، وعند خوفه من حجبه عنه؛ ولذا فهي خوف يشوبه تعظيم على حد تعبير الراغب الأصفهاني في المفردات. وقد خص الله هذه الحالة بالعلماء فقط؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[(٣)].

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة : ١٧٦.

(٢) المؤمنون: ٥٧-٦١.

(٣) فاطر: ٢٨.

وبتأثير هذه الخشية، فهو مشفق، خائف، متحذّر من الوقوع في مخالفة، أو تقصير.

((ولكون الخشية ذات جانب عاطفي، والإشفاق ذا جانب عملي، ذكرا معاً إيضاحاً للعلة والمعلول في الآية. فهي تعني أن الخوف المخلوط بتعظيم الله قد استقر في قلوبهم، وقد بدت علائمه في أعمالهم، والتزامهم بالتعاليم الإلهية. أي أن الإشفاق مرحلة لتكامل الخشية، وهو الذي يؤثر في عمل الإنسان، فيجنبه ارتكاب الذنوب، ويدفعه للقيام بمسؤولياته ...))(١) .

٢- **الإيمان بآيات الله:** وهو التعبير العملي عن الإيمان بالله فكل شيء يمر عليه المؤمنون يُذَكّرهم بالله تعالى، ويدفعهم لنيل رضاه، والسير على هدى أنبيائه ورسله في تجاوز العقبات التي تعترض سيرهم وسلوكهم إلى الله تعالى فينسون ذاتهم ومصالحهم، ويقدمون مصلحة دينهم على مصلحة أنفسهم. هؤلاء هم الذين يؤمنون بآيات الله النازلة على رسوله في كتابه الكريم، وبآياته الدالة على عظمته والتي تبرز في كل كائن من الذرة إلى المجرة، وهؤلاء هم مصداق لما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: **((ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وفيه ومعه))**(٢) فالمؤمن بآيات الله كل شيء يذَكّره بالله، هؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات، ويتسابقون لنيل الفضائل والمكرمات .

٣- **الإخلاص والتجرد المطلق لله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾** يعملون عملاً صالحاً لله، وفي الله، وفي سبيل الله من دون سمعة، ولا رياء، ولا طلب شهرة، وإنما رضا الله غاية في كل عمل يقومون به... ومن دون هذا العنصر

---

(١) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، التفسير الأمثل: ٤١٨/١٠.

(٢) الملا هادي السبزواري، شرح الأسماء الحسنى: ٤/١.

لا يمكن للمؤمن أن يكون من المسارعين في الخيرات...

٤- **الخوف من عدم قبول الأعمال:** مهما عمل المؤمن، وجَد واجتهدَ في طاعة الله تعالى، وتجرد لله تعالى فإنه يبقى يشعر بالتقصير في حقه تعالى، ويبقى وجلاً خائفاً من عدم قبول أعماله كما يصف أمير المؤمنين عليه السلام المتقي بأنه: ((**يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل**))[1] هكذا كان أئمة الهدى عليهم السلام في علاقاتهم بالله تعالى فعن سفيان بن عيينة، قال: ((حج علي بن الحسين عليه السلام، فلما أحرم واستوت به راحلته اصفرَّ لونه، وانتفض ووقعت عليه الرعدة، ولم يستطع أن يلبي فقيل له: ما لك لا تلبي؟ فقال: **أخشى أن أقول لبيك، فيقول لي: لا لبيك**، فقيل له: لابدَّ من هذا فلما لَبّى غُشِي عليه، وسقط من راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجَّه))[2].

وعن مالك بن أنس قال: ((... ولقد حججت معه - الإمام الصادق عليه السلام - سنة فلما استوت به راحلته عند الإحرام كان كلما هم بالتلبية انقطع الصوت في حلقه، وكاد أن يخر من راحلته، فقلت: قل يا بن رسول الله، ولابدَّ لك من أن تقول فقال عليه السلام: **يا ابن أبي عامر كيف أجسر أن أقول: لبيّك اللهم لبيّك، وأخشى أن يقول عز وجلّ لي: لا لبيّك ولا سعديك**))[3].

هذه هي أحوال أولياء الله خائفون، مشفقون، وجلون لا يطمئنون إلى أعمالهم بل يعملون الصالحات، ولكن يبقى الوجل مسيطر على قلوبهم خشية عدم القبول.

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٢٦٩/٧، ابن كثير، البداية والنهاية: ٢٣/٩.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٦/٤٧.

فعن أبي الجارود قال: ((سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[1]، يقول: **يعطون ما أعطوا وقلوبهم وجلة** ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[2] **علي بن أبي طالب عليه السلام لم يسبقه أحد**))[3]

تلك هي العناصر التي لابد من توفرها في المؤمن؛ لكي يكون مؤهلاً وقادراً على السبق إلى الفضيلة والمسارعة إلى الخيرات وإلا فلا...

فبدون الخشية من الله، والإشفاق من عذابه، والإيمان بآياته، والوقوف بين يديه خائفاً وجلاً راجياً لا يمكن أن يضع الإنسان نفسه في مضمار المتسابقين لنيل الفضائل، وفعل الخيرات.

الثاني عشر: الإيثار (وإيثار التفضل):

الإيثار ضد الاستئثار فهناك بون واسع بين المؤثر والمستأثر، فالأول يتجاوز مصالحه الذاتية، ومنافعه الخاصة، ويقدم مصلحة الآخرين، ومنافعهم عليها، وأما المستأثر، فهو الذي يحتكر الخيرات والمنافع لنفسه، ويمنع الآخرين عنها...

والإيثار صفة كريمة، وفضيلة رفيعة دونها كل فضيلة إذا كانت في سبيل الله تعالى وذلك؛ لأنها تنم عن روح متسامية عن الطمع والشح والجشع، وبعبارة أخصر الإيثار هو سحق الإنيّة والأنانية والذاتية المقيتة والعبور منها إلى خدمة الآخرين في سبيل الله تعالى.

---

(١) المؤمنون: ٦٠.

(٢) المؤمنون: ٦١.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٥/٣٣٥.

ولنستعير بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام لنقف على فضيلة هذه الخصلة حسب ما ذكرها الآمدي في غرر الحكم فالإيثار ((**أعلى مراتب الإيمان**))، و((**أشرف الكرم**))، و((**أعلى المكارم**))، و((**أفضل العبادة**))، و((**أحسن الإحسان**)) بل ((**غاية الإحسان**)) ثم ((**إنها سجية الأبرار وشيمتهم**))، ولا يستحق الإنسان الفضيلة إلا بها[1] وهي تكشف عن جواهر الكرماء؛ ولهذا كان المؤثرون على أنفسهم هم المفلحون ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2] والإمام السجاد عليه السلام في هذا المقطع يتوسل إلى الله أن يعينه على نفسه، ويُحَلِّيه بالإيثار، وهذا الإيثار فوق درجة السخاء التي يتحلى بها كثير من الناس، إنه يطلب من الله أن يزينه بملكة الإيثار أي أن يجعله متفضِلاً لا متفضَلاً عليه، وفرق كبير بين من يتفضل على الآخرين مبادرة وابتداء دون انتظار جزاء، ولا شكراً، وبين من يُدعى إلى الفضل فيأتيه، ويفعله، وينتظر الشكر عليه، ونحن نرى في حياتنا أن الأغلب من الناس لا يحسنون إلا إذا أحسن إليهم، والقلة القليلة - وهي أندر من الكبريت الأحمر - من يؤثر أن يكون متفضلاً غير مفضول عليه.

((صور من الإيثار))

تتعدد صور الإيثار بتعدد صور التضحية والمواقف الشريفة في تجاوز الذات فهناك إيثار الآخرة على الدنيا، وإيثار بالنفس والتضحية بها، وإيثار بالمال، وإيثار بالجاه والموقع... ونحن ننقل ما يتوفر لنا من صور:

١- (بات علي بن أبي طالب عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله فأوحى الله

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٩٥.

(٢) التغابن: ١٦.

تعالى إلى جبريل وميكائيل: **إني آخيت بينكما، وجعلت عُمْر أحدكما أطول من الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟** فاختار كلاهما الحياة وأحباها، فأوحى الله إليهما: **أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب، إني آخيت بينه، وبين نبيٍّ محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوِّه**، فكان جبريل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه ينادي: بخٍ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ** ﴾[1]))[2].

٢- قال حذيفة العدوي: ((انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي، ومعي شيء من ماء وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به وبه رمق، فقلت: أسقيك؟ فأشار إليَّ أن نعم، فإذا هَمَّ أن يشرب، فإذا رجل يقول: آه فأشار ابن عمي إليَّ أن انطلق إليه به، فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه فأشار هشام أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات))[3].

٣- وقيل: ((أهدي إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي أحوج مني إليه، فبعث إليه به، فلم يزل يبعث به الواحد إلى الآخر حتى تداوله سبعة أبيات حتى رجع إلى الأول))[4].

---

(١) البقرة: ٢٠٧.

(٢) ابن طاووس، الطرائف: ٢٧.

(٣) ابن عابدين، تكملة رد المحتار: ٢/٥٦٤.

(٤) الواحدي النيسابوري، أسباب نزول الآيات: ٢٨١.

الثالث عشر: ترك التَعْيير:

التعيير كالتحقير، وهو تذكير الإنسان بعيوبه، وكشف أسراره بهدف الانتقاص، والاحتقار، والفضح، وتصغير الشأن، وإسقاط القدر، وهتك الحرمة... وهو عمل قبيح مذموم، نهى عنه الشارع المقدس، وعده من قبائح الأفعال التي تهتك حرمة فاعلها كما يهتك حرمة الآخرين؛ وذلك لأن فيه توهين، بل إهانه للمؤمن، وحرمة المؤمن عند الله أشد حرمة من الكعبة؛ ولذا فإن إهانته كبيرة من الكبائر هذا أولاً، وثانياً: لأنه كشفُ قبيح مستور، وهذا العمل بحد ذاته قبيح؛ لأن فيه إشاعة للفاحشة، وثالثاً: إن تذكير الإنسان بذنوبه وسيئآته قد يدفعه للإصرار على الذنب، وإعادة فعله، في حين أن تذكير الإنسان بحسناته قد يدفعه إلى فعل الخير، وإصلاح نفسه، وقد وقفت الشريعة المقدسة من هذا العمل موقفاً حديّاً شديداً، وبيَّنت أخطاره على الإنسان فرداً ومجتمعاً ومن تلك الأخطار:

١ - إنّ تتبع عورات المؤمنين وحفظها بأي طريقة كانت لغرض التعيير والتعنيف يقرّب العبد إلى الكفر، وليس هناك خطر أكبر، ولا أفظع من هذا الخطر.كيف لا وهو يبعد الإنسان عن الله تعالى، ويقربه إلى الكفر فعن زرارة عن أبي جعفر وأبي عبد الله ﮊ قالا: ((**أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يؤاخي الرَّجلُ الرَّجلَ على الدين فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعنّفه بها -ليعيره بها- يوماً ما**))[1] .

وفي حديث آخر عن أبي جعفر ﮐ قال: ((**أبعد ما يكون العبد من الله أن يكون الرَّجل يواخي الرَّجل، وهو يحفظ [عليه] زلاّته؛ ليعيّره بها يوماً ما**))[2] .

---

(١) ثقة الإسلام الكليني: الأصول من الكافي: ٣٥٥/٢، باب من طلب عثرات المؤمن، الحديث: ٣.

(٢) المصدر نفسه.

ومن خلال هذه الأحاديث الواضحة الشريفة تتضح خطورة هذا المسلك الوبيء الذي يُخرج الإنسان من الإيمان إلى الكفر، والأمرُّ من ذلك إذا وقع ذلك باسم الدين والإسلام، والدفاع عن المقدسات، حيث ترى كيف يتتبع البعض كلمات البعض ومواقفهم وحركاتهم، ثم يسجلها؛ ليطعن بها أخاه من أجل أهداف تافهة من على منبر الإسلام، وباسم الحفاظ على عقائده ومبادئه وأحكامه مدفوعاً وراء أهوائه، واقعاً ضحية خداع النفس الأمارة بالسوء، وأسيراً في شباك الشيطان، ورحم الله العبد الصالح الذي عرف مكائد النفس، فخالفها وزكّاها ذلك هو الإمام الخميني تدّس حيث يقول: ((فما اكثر ما يبتعد الإنسان عن الله باسم الله، واسم الخدمة لخلق الله، ويساق نحو نفسه وآمالها، لذا كانت مراقبة النفس ومحاسبتها في تشخيص طريق الأنانيّة عن طريق الله من جملة منازل السالكين))[١] .

وما نراه اليوم من مهاترات، وافتراءات، وتهم، وطعون وصلت حد التكفير والتضليل، بل والقتل، والتهجير، وسلب الأموال، وهتك الحرمات باسم الدين والجهاد[٢] خير شاهد على ما نقول، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإلى الله المشتكى من ذلك...

٢- هتك الستر في الدنيا والآخرة: فما من أحد هتك أستار المؤمنين، وعمل على إسقاطهم في عيون الآخرين إلا هتك الله ستره، وفضحه على رؤوس الأشهاد فقد ورد عن رسول الله ﷺ إنه ((صلى بالناس ثم انصرف مسرعاً حتى وضع يده على باب المسجد ثم نادى بأعلى صوته: **يا معشر من آمن بلسانه، ولم يخلص**

---

(١) الإمام الخميني: موعد اللقاء: ٩١.

(٢) هذا ما يحدث على اتباع أهل البيت في العراق اليوم وفي ساعات كتابة هذه السطور في رمضان المبارك سنة ١٤٢٧.

الإيمان إلى قلبه لا تتبعوا عورات المؤمنين، فإنه من تتبع عورات المؤمنين تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في جوف بيته))[١].

وفي حديث آخر قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**كان بالمدينة أقوام لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس، فأسكت الله عن عيوبهم الناس، فماتوا ولا عيوب لهم عند الناس، وكان بالمدينة أقوام لا عيوب لهم فتكلموا في عيوب الناس فأظهر الله لهم عيوباً لم يزالوا يعرفون بها إلى أن ماتوا))**[٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تطلبوا عثرات المؤمنين فإنَّ من تتبع عثرات أخيه تتبع الله عثراته، ومن تتبع الله عثراته يفضحه ولو في جوف بيته))**[٣].

أما كيف يهتك الستر بذلك؟ فمما لا شك فيه أن هناك ذنوباً كثيرة تهتك ستر الإنسان، وتفضحه، وتظهر معايبه أمام الناس؛ وذلك لأن المخالفات الشرعية تخرج الإنسان إلى دائرة الضوء الكاشف، ويظهر على حقيقته النفسية المتستر عليها كما ورد عن الإمام السجاد عليه السلام في حديث طويل في بيان آثار الذنوب قال: ((**... والذنوب التي تهتك العصم: شرب الخمر، واللعب بالقمار، وتعاطي ما يضحك الناس من اللغو والمزاح، وذكر عيوب الناس، ومجالسة أهل الريب))**[٤].

الذنوب إذن تكشف حقيقة الإنسان، وتهتك عنه كل الستور، وتبدي سوءاته

---

(١) الشيخ الصدوق، عقاب الأعمال: ٢٤١.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢١٣/٧٥.

(٣) ثقة الإسلام الكليني: الأصول من الكافي: ٣٥٥/٢.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٧٥/٧٣.

فإن الله تعالى جعل على الإنسان جنن تستر عوراته، وكل ذنب يهتك جزءاً منها جاء عن الصادق عليه السلام إنه قال: ((**إن لله تبارك وتعالى على عبده المؤمن أربعين جُنّة فمتى أذنب ذنباً كبيراً رفع عنه جُنّة فإذا اغتاب أخاه المؤمن بشيء يعلمه منه انكشفت عنه تلك الجُنَن، ويبقى مهتوك الستر، فيفتضح في السماء على ألسنة الملائكة، وفي الأرض على ألسنة الناس، ولا يرتكب ذنباً إلا ذكروه، ويقول الملائكة الموكلون به: يا ربنا قد بقي عبدك مهتوك الستر، وقد أمرتنا بحفظه؟ فيقول عز وجل: ملائكتي لو أردت بهذا العبد خيراً ما فضحته فارفعوا أجنحتكم عنه فو عزتي لا يؤول بعدها إلى خير أبداً**))(١) .

ومعنى هتك العصم هي انكشاف ما يكنه الإنسان في مضمرات نفسه، وبروز ما يفعله سراً من المخالفات التي يتستر بها عن أعين الناس، وكما يقول المحدث المجلسي، قوله: ((**التي تهتك العصم**)): ((المراد به إما رفع حفظ الله وعصمته عن الذنوب بالتخلّية بينه وبين الشيطان والنفس، وإما يرفع ستره الذي ستره به عن الملائكة والثقلين كما في الأخبار إن الله تعالى يستر عبده بستر حتى إذا تمادى في المعاصي، يقول تعالى ارفعوا الستر عنه، فيفضحه ولو في جوف بيته، وتلعنه ملائكة السماء والأرض، والحمل على الأول أولى؛ ليكون كشف الغطاء تأسيساً))(٢)

٣- إن من تتبع عثرات المؤمنين؛ ليسقطهم عن أعين الناس أخرجه الله من ولايته وأدخله في ولاية الشيطان، وهذا الخطر دونه كل خطر؛ لأن الله تعالى يرفع عنه رعايته وعنايته، وتدبيره، ويخلي بينه وبين الشيطان يعبث به كيف يشاء يستفزه ويحتنكه، ويستحوذ عليه حتى يصبح أسيراً له فعن أبي عبد الله عليه السلام: ((**من روى**

---

(١) الشيخ المفيد، الاختصاص: ٢٢٠.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٥٣/٨٧.

على مؤمن رواية يريد بها شينه، وهدم مروّته؛ ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان))(١) .

الرابع عشر: الإفضال على غير المستحق :

قال العلامة السيد علي خان المدني في رياض السالكين: ((قوله عليه السلام: **والإفضال على غير المستحق**، عطف على التعيير، أي وترك الإفضال على غير المستحق... والمراد بغير المستحق هنا: من لا يستوجب الإفضال عليه، ولم يكن أهلاً له. وإنما سأل عليه السلام ترك الإفضال عليه؛ لأنه من الخلق المذموم، إذا كان إسرافاً وتبذيراً ووضعاً للمعروف في غير أهله ومحله، وقد تطابق على ذم ذلك العقل والنقل.

أما العقل؛ فلأنه وضع الشيء في غير موضعه، وهو خروج عن العقل، وأما النقل، فاحسن ما يؤثر في ذلك ما رواه ثقة الإسلام في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال من جملة كلام خاطب به رهطاً من الشيعة: **من كان فيكم له مال فإياه والفساد؛ فإن إعطاءه في غير حقّه تبذير وإسراف، وهو يرفع ذكر صاحبه في الناس ويضعه عند الله، ولم يضع امرئ ماله في غير حقه، وعند غير أهله إلا حَرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودهم، فإن بقي معه منهم بقية ممّن يظهر الشكر له، ويريه النصح فإنما ذلك ملق منه وكذب، فإن زلّت بصاحبهم النعل، ثم احتاج إلى معونتهم ومكافاتهم فألأم خليل، وشر خدين، ولم يضع امرئ ماله في غير حقه وعند غير أهله،الا لم يكن له من الحظ فيما أتى إلا مَحْمَدَة اللئام، وثناء الأشرار مادام عليه منعماً مفضلاً، ومقالة الجاهل ما أجوده، وهو**

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٣٥٨/٢.

عند الله بخيل فأي حظ أبور وأخسر من هذا الحظ؟ وأي فائدة معروف أقل من هذا المعروف؟ فمن كان منكم له مال فليصل به القرابة، وليحسن به الضيافة، وليفك به العاني، والأسير، وابن السبيل، فإن الفوز بهذه الخصال مكارم الدنيا والآخرة))[١].

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام: **((وليس لواضع المعروف في غير حقه، وعند غير أهله من الحظ إلا مَحْمَدَة اللئام، وثناء الأشرار، ومقالة الجهال مادام منعماً عليهم ما أجوده وهو عن ذات الله بخيل))**[٢]، بل في بعض الروايات أن وضع المعروف في موضعه دلالة على التوفيق والرعاية الإلهية، ومقياس للسعادة والشقاء كما في حديث المفضل بن عمر قال: ((قال أبو عبد الله عليه السلام: **يا مفضل إذا أردت أن تعلم إلى خير يصير الرجل أم إلى شر انظر أين يضع معروفه، فإن كان يضع معروفه عند غير أهله فاعلم أنه ليس له في الآخرة من خلاق))**[٣].

وفي رواية أخرى قال عليه السلام: **((يا مفضل إذا أردت أن تعلم أشقياً الرجل أم سعيداً فانظر بره ومعروفه إلى من يصنعه؟ فإن صنعه إلى من هو أهله فاعلم أنه إلى خير يصير وإن كان يصنعه إلى غير أهله فاعلم أنه ليس له عند الله خير))**[٤].

والسرّ في منع اصطناع المعروف لغير أهله، وغير مستحقه إن هذا المعروف يذهب هباءاً وهدراً بلا فائدة تذكر، وهو يدخل في باب الإسراف والتبذير الذي

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الفروع من الكافي: ٣١/٤-٣٢ ح/٣.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ١٤٢.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٣١/٤.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٤١٧/٧٤.

يرفضه العقل والنقل، أما العقل فواضح ذلك منه، وأما النقل فقد جاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**أربعة يذهبن ضياعاً... ومعروف عند من لا يشكر له**))(١) وفي رواية أخرى: ((**ومعروف تصطنعه إلى من لا يشكره**))(٢)، وفي رواية ثالثة: ((**والمعروف على من ليس بأهله**))(٣).

وهناك أحاديث أخرى مخالفة للطائفة المتقدمة، حيث أنها تؤكد على بذل المعروف إلى أهله وإلى غير أهله، ويمكن الجمع بين الطائفتين: أن تُحمل الطائفة الأولى على القطع واليقين بعدم الاستحقاق، والثانية تُحمل على حالة الشك عند إرادة اصطناع المعروف، هل هذا هو موضعه أولاً ؟ فيحمل على الصحة، ويضع المعروف عند طالبه فإن تبيّن العكس، فإن كان الفاعل من أهله فلا يندم على ما فعل، ومن تلك الأحاديث ما روي عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**اصنع المعروف إلى من هو أهله ، وإلى من ليس أهله، فإن لم يكن هو من أهله فكن أنت من أهله**))(٤).

وفي حديث آخر عن معاوية بن عمار قال: ((قال أبو عبد الله عليه السلام: **اصنعوا المعروف إلى كل أحد فإن كان أهله وإلا فأنت أهله**))(٥).

قال الشيخ الغفاري معلقاً على الحديث: ((**محمول على ما إذا لم يعلم قطعاً**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٦٧/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٤٧/٧١.

(٣) المصدر نفسه: ٤١٠/٧٤.

(٤) ثقة الإسلام الكليني، الفروع من الكافي: ٢٧/٤.

(٥) المصدر نفسه.

أنه ليس من أهله ومَنْ حاله مجهول))[(١)] .

ولهذا ينبغي لمن يصطنع المعروف أن يدرس الشخص الذي يريد أن يصنع له معروفاً من حيث حالته النفسية، وتوجهاته الفكرية، وصفاته الأخلاقية، وعاداته الاجتماعية، فإذا عرف أن ذلك الشخص ممن يؤثر فيه المعروف تأثيراً إيجابياً فعله وإلا وضعه في غيره.

الخامس عشر: القول بالحق وإن عز :

القول بالحق معنى شامل لكل ما يجب أن يقال عند الحاجة والضرورة لإثبات حق، أو دفع باطل، أو ردع ظالم، أو نصرة مظلوم، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو بيان لحقيقة شوهت، أو حكم حُرِّف عن واقعه.... والقائل به لابد وأن يكون عارفاً بالحق والباطل، مميزاً بينهما، قوي القلب، صادق النية متحدياً للظلم صراحة، ورافضاً للباطل قطعاً لا يخاف في الله لومة لائم، وهو خير دلالة على الشجاعة المبدئية، والصراحة الرسالية؛ لأن قائله ((لا يصانع، ولا يضارع، ولا يتبع المطامع)) ثم إن القول بالحق درجة عالية من درجات الجهاد في سبيل الله، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **((إن الحق أحسن الحديث والصادع به مجاهد))**[(٢)]

فهو جهاد؛ لأنه تحدي لأهواء النفس الأمارة بالسوء، والتي تطلب الراحة والدعة والسكون في الوقت الذي يعرضها القول بالحق للمتاعب والمصاعب والمكاره، وربما للشهادة، وهو جهاد؛ لأنه وقوف بوجه الظالمين والطغاة، ونصرة للحق والعدل، وإعلاء لكلمة الله تعالى بإيضاح حقيقة الدين، وبهذا صدع الرسول

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الفروع من الكافي: ٢٧/٤.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٧٩/٦.

الأمين ﷺ فقال:

((**أحب الجهاد إلى الله عز وجلّ كلمة حق تقال لإمام جائر**)) .

((**أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر**)) .

((**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر وأمير جائر**))[(١)] .

ولكي يكون لكلمة الحق دور فاعل، ولئلا تضيع، وتذهب هباءاً بلا فائدة لابد من مراعاة شروطها في الهدف، والأداء، والوقت، وأهم تلك الشروط أن يقصد بها المؤمن وجه الله من دون أي ضميمة كطلب شهرة، أو سمعة، أو اندفاع لذاتية، أوأنانية؛ وذلك لأن قيمة الكلمة بقيمة دوافعها التي قيلت من أجلها والإسلام أراد من قائل الحق أن يقول لله، وفي الله، وفي سبيل الله، وإلا فلا قيمة للكلام إذا لم يقصد قائله رضا الله بامتثال أمره، ولا شك أن (من انتصر بالله عز نصره) .

ثم لابد من مراعاة ظروف القول، بحيث يختار الوقت المناسب؛ لأن الكلمة إذا قيلت في غير وقتها المناسب ضاعت، وفقدت قيمتها واعتبارها، وقد جمع أحد الشعراء شروط نظم الكلام ببيتين من الشعر قائلاً:

((أوصيك في نظم الكلام بخمسة   إن كنت للموصي الشفيع مطيعاً

لا تغفلن سبب الكلام ووقته   والكيف والكم والمكان جميعا))

وعلى ذلك أكد أهل البيت ﷺ، وعلى هذا جرت سنتهم وآدابهم يقول الإمام الصادق ﷺ: ((**لا تتكلم بما لا يعنيك، ودع كثيراً من الكلام فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً، فرب متكلم تكلم بالحق بما يعنيه في غير موضعه فتعب**))[(٢)] .

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال: ٦٤/٣، والحديثين المتقدمين عليه.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٦٥/٧٨.

وفي وصية الإمام الحسين عليه السلام لابن عباس: ((**لا تتكلمنّ فيما يعنيك حتى ترى للكلام موضعاً، فرب متكلم قد تكلم بالحق فعيب**))[١].

إذن لابد لقائل الحق أن ينتهز الفرصة المناسبة لإيصال كلمة الحق؛ لتؤدي دورها في القلوب والنفوس، وتغير الواقع، وتؤثر تأثيراً طيباً، يقول تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وآله: ﴿**وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**﴾[٢].

((وجوب القول بالحق))

لما كان قول الحق سبيلاً من سبل الهداية والإصلاح، ووسيلة لتعبيد الناس لله تعالى، والأخذ بأيديهم إلى ساحل النجاة من خلال إيضاح وبيان العقائد الحقة والأحكام الإلهية والأخلاق القويمة... وردع للظالم، ونصرة للمظلوم؛ لهذا أكدت الرسالة الإسلامية، على وجوبه إذا توفرت ظروفه المناسبة، فعن أبي ذر الغفاري قال: ((أوصاني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أقول الحق وإن كان مراً))[٣] وفي وصية أخرى له: ((**قل الحق وإن كان مراً**))[٤].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد: ((**يا كميل قل الحق على كل حال**))[٥] وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((**اتق الله، وقل الحق، وإن كان فيه هلاكك**))[٦].

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٢٧.

(٢) النساء: ٦٣.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٨٨/٦٩.

(٤) المصدر نفسه : ٧٥/٧٧.

(٥) المصدر نفسه: ٢٧١.

(٦) المصدر نفسه: ٣١٩/٧٨.

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: ((**أتقى الناس من قال الحق فيما له أو عليه**))[١] وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((**عليكم بتقوى الله في الغيب والشهادة وكلمة الحق**))[٢].

من كل ذلك نستوحي أهمية القول بالحق، ومكانته في الإسلام، ويتبين لنا خطورة تركه، أو التهاون به، أو عدم التأني فيه.

((آثار قول الحق))

مما لاشك فيه أن المجتمع الذي يكثر فيه القائلون بالحق، والصادعون فيه لابد وأن يسود فيه الخير، والصلاح، والهدى، وحينئذ يزدهر، ويتقدم، ويصبح مثلاً وأسوة للأجيال، والعكس صحيح، فما انتشر الضلال، وعم الفساد إلا حين سكت الناس عن قول الحق.

وإذا كان البعض يظن أن قول الحق يُضيِّق عليه مسالك العيش، ويسد عليه أبواب الرزق فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ((**قول الحق يزيد في الرزق**))[٣] هذا إضافة إلى ما وعد الله به من الأجر الجزيل، والثواب العظيم، فقد قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: ((**لا يتكلم الرجل بكلمة حق يؤخذ بها إلا كان له مثل أجر من أخذ بها**))[٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**ما من رجل ينعش بلسانه حقاً، فعمل به إلا جرى**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٨٨/٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ٩٢/٧٧.

(٣) المصدر نفسه: ٣١٤/٧٦.

(٤) المصدر نفسه: ١٩/٢.

عليه أجره إلى يوم القيامة، ثم وفاه ثوابه يوم القيامة))[١] .

السادس عشر: استقلال الخير واستكثار الشر :

((... واستقلال الخير وإن كثر من قولي وفعلي، واستكثار الشر وإن قل من قولي وفعلي)) .

إن من أخطر المخاطر على حياة الإنسان الدنيوية والأخروية أن ينظر إلى ما يعمله من الخير بعين الإعجاب والاستكثار، وأن يستصغر شرور الأعمال، وينظر إليها بعين الاستهانة والتسامح، والعلة في ذلك: أنه إذا نظر إلى أعماله من الخير بعين الاستكثار فلابد أن يصاب بالعجب، وليس هناك من مرض يحبط عمل الإنسان، ويوقف عجلة تكامله كالعجب؛ لأنه أوسع سبل الشيطان إلى نفس الإنسان، بل إن الشيطان ليؤسَر الإنسان به، ويستحوذ عليه؛ لسهولة التسلل إلى أعماق نفسه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يحذر من وساوس الشيطان خصوصاً في هذا الجانب، يقول ﷺ لشمعون بن لاوي بن يهود من حواري عيسى بن مريم عليه السلام **((... وأما أعداؤك من الجن فإبليس وجنوده... وإذا أتاك، وقال لك ما أكثر إحسانك!؟ يريد بذلك أن يدخلك العجب فقل: إساءتي أكثر من إحساني، وإذا أتاك فقال لك: ما أكثر صلاتك!؟ فقل: غفلتي أكثر من صلاتي، وإذا قال لك:كم تعطي الناس؟ فقل: ما آخذ أكثر مما أعطى، وإذا قال لك: ما أكثر من يظلمك!؟ فقل: من ظلمته أكثر، وإذا أتاك فقال: كم تعمل؟ فقل: طال ما عصيت ...))**[٢] .

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال: ٦٤/٣.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٢٣/١.

كل ذلك ليحتاط المؤمن من خطرات الشيطان ووساوسه؛ ولئلا يقع فريسة في شباكه،كما أن نظرة الاستقلال لأعمال الخير عند الإنسان من قبل نفسه تشعره بالتقصير في أداء حقوق الله تعالى، وهذا الشعور يدفعه إلى مواصلة العمل والجد في الخير والمعروف؛ لأن العاقل إذا شعر من نفسه بالتقصير فلابد أن يعمل على سد ذلك النقص، وإكمال ذلك القصور، يقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لبعض ولده: ((**يا بني عليك بالجد لا تخرجنّ نفسك عن حد التقصير في عبادة الله عز وجل وطاعته،فإن الله لا يعبد حق عبادته**))[1].

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: ((**قال لي أبو جعفر عليه السلام يا جابر لا أخرجك من النقص ولا التقصير**))[2].

وهو دعاء يستبطن في طياته تربية معينة يعمل الأئمة عليهم السلام على تركيزها في نفوس أوليائهم، وقد وردت روايات كثيرة تؤكد ذلك نذكر منها:

عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: ((قلت لأبي عبد الله عليه السلام الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق، ثم يعمل شيئاً من البر، فيدخله شبه العجب به، فقال: **هو في حاله الأولى، وهو خائف أحسن حالاً منه في حال عجبه**))[3].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: ((**سيئة تسوؤك خير عند الله من حسنة تعجبك**))[4].

((والقاعدة التي نستخلصها من هذه الأحاديث هي أن الإنسان ينبغي أن لا

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٣٥/٧١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٣١٢/٧٢.

(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٤٦.

يفرح بحسناته، ولا يستكثرها، ويندم على سيئاته مهما صغرت... وهذه القاعدة تحتاج إلى تأمل كثير، ولا شك أن السيئة قبيحة على كل حال، والحسنة حسنة وهذه قضية حتمية، ولكن لماذا السيئة خير من الحسنة هنا؟ هذه القاعدة من أسرار هذا الدين وفهمها مفتاح لكثير من القضايا الأساسية في الإسلام، هناك ما عدى السيئة والحسنة افرازان نفسيان لهما، فالسيئة لها إفراز في حالة السلام والصحو، والحسنة لها إفراز في حالة المرض، أما إفراز السيئة في حالة السلامة فهو الندم والوجل بحيث أن المسيء يستاء من نفسه، وهذا دليل على الصحة النفسية، ويعمل الحسنة فتعجبه، وتسره ويشعر بالنشوة والانتفاخ، فهذا دليل الانحراف النفسي هذان الافرازان هما قانون يعكس الحسنة والسيئة. إفراز السيئة هو الندم والإحساس بالخجل بين يدي الله هذا الإفراز أحسن من إفراز الحسنة التي تسبب للإنسان انتفاخ وإعجاب بنفسه وعمله، وإنما يكون إفراز السيئة حسناً؛ لأن الإحساس بالعمل السيئ وبالذنب والمعصية بحيث يستقبح من نفسه ويخجل منها، وهذا الإحساس يقع في دائرة التقصير عن أداء حقوق الله، وأما الإحساس بالابتهاج والسرور في عمل الحسنات بحيث يصيبه الإعجاب حتى يدل على الله، وقد يمن به على الله، فيخرجه عن دائرة الإحساس بالتقصير ودائرة الشعور بالتقصير هي دائرة العبودية لله تعالى، وما يخرج الإنسان عن دائرة العبودية لله يخرجه عن التضرع والخشوع والخوف والإخبات))[1] .

ولهذا نرى أولياء الله تعالى رغم كثرة عبادتهم وإخلاصهم وتجردهم لله تعالى يستشعرون التقصير في حق الله تعالى فلا يستكثرون الكثير من أعمال البر

---

(١) ملخص من محاضرة لسماحة العلامة الشيخ محمد مهدي الآصفي في العجب.

والإحسان ولا يرضون من أنفسهم بالقليل، يقول الإمام السجاد عليه السلام مناجياً ربه: ((**وما قدر أعمالنا في جنب نعمك؟ وكيف نستكثر أعمالاً نقابل بها كرمك؟**)).

ولنقرأ دعاء الاستقالة له عليه السلام، ولنتأمل في حرارته، وتضرعه، واستقلال عمله مهما بلغ، يقول عليه السلام مناجياً ربه: ((**يا إلهي لو بكيت إليك حتى تسقط أشفار عيني، وانتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك حتى تنتشر قدماي، وركعت لك حتى ينخلع صلبي، وسجدت لك حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلت تراب الأرض طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك حتى يكل لساني ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياء منك ما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي**))[(١)].

وهذا التأوه والتضرع الذي يفتت الجبال الرواسي ناتج من معرفة الأمام عليه السلام لله تعالى. فهذه المعرفة تجعله ينظر إلى أعماله كلها فلا يراها شيئاً؛ لأن الإنسان كلما ازدادت معرفته بالله استصغر أعماله في الخير واستقلها من نفسه مهما بلغت.

وكما يستقل المؤمن أعمال الخير التي فعلها فإنه يستكثر الخير والمعروف من غيره فهو ينظر إلى أعماله فيراها حقيرة صغيرة، وينظر إلى أعمال الآخرين فيستكثرها ويوقر عامليها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**ما تم عقل امرئ حتى يكون فيه خصال شتى... يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقل كثير المعروف من نفسه**))[(٢)].

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لم يُعبد الله عز وجلّ بشيء أفضل من العقل، ولا يكون المؤمن عاقلاً حتى تجتمع فيه عشر خصال:**

---

(١) الصحيفة السجادية الكاملة: الدعاء السادس عشر.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١/١٤٠.

... يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقل كثير الخير من نفسه))[1] وفي الوقت الذي يستقل خيراته فإنه لا يستهين بعمل من أعمال الخير مهما كان صغيراً، بل يفعله رجاء رحمة الله تعالى يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **((افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئاً فإن صغيره كبير، وقليلة كثير، ولا يقولَنَّ أحدكم إن أحداً أولى بفعل الخير مني فيكون والله كذلك إن للخير والشر أهلاً فمهما تركتموه منهما كفاكموه أهله))**[2] .

وقال الإمام الصادق عليه السلام لعلي بن يعقوب في جملة وصايا له: **((... ولا تستقل قليل الخير فإنك تراه غداً بحيث يسرّك، ولا تستقل قليل الشر فإنك تراه غداً بحيث يسوؤك))**[3] .

فعمل الخير الذي قد تراه صغيراً وقليلاً فهو عند الله كبيراً؛ لأن الله تعالى لا يضيع عنده شيء إذا كان فاعله صادقاً، يقول تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾[4] .

وأما استكثار الشر فإنه يحمي الإنسان من الوقوع في صغائر قد تجتمع عليه وتتحول إلى كبائر. كما أن التحفظ من فعل الصغائر يحمى الإنسان من الوقوع في الكبائر؛ ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وفي كل مناسبة يحذِّر من صغائر الذنوب فيقول: **((إن الله عز وجلّ كتم ثلاثة في ثلاثة: كتم رضاه في طاعته، وكتم سخطه في معصيته، وكتم وليه في خلقه، فلا يستخفنَّ أحدكم شيئاً من الطاعات فإنّه لا**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٠٨/١.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: الكلمات القصار: ٤٢٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الزلزلة: ٧-٨.

يدري في أيها رضا الله، ولا يستقلنَّ أحدكم شيئاً من المعاصي فإنه لا يدري في أيها سخط الله ولا يزرأنَّ[1] أحدكم بأحد من خلق الله،فانّه لا يدري أيهم ولي الله))[2] .

وعن سماعة قال: ((سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: **لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب، فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً))**[3] .

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: **((إن رسول الله صلى الله عليه وآله نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: ائتوا بحطب فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب قال: فليأت كل إنسان بما قدر عليه، فجاءوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هكذا تجتمع الذنوب، ثمَّ قال: إياكم والمحقرات من الذنوب فإن لكل شيء طالباً، ألا وإن طالبها يكتب ما قدَّموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين))**[4] .

وفي هذا من الدروس والعبر ما لا يحيط به بيان، ونستفيد من ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله أراد أن يربي أصحابه على هذا المنهج القويم؛ ليتركز في أنفسهم خوف الله تعالى ويجعلهم يَتوَقون أصغر الذنوب.

---

(١) (زرى عليه زريا) من باب رمى و (زراية) بالكسر عابه وأستزأ به.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٤٧/٧٥.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢٨٧/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٢٨٨.

السابع عشر: دوام الطاعة: (وأكمل ذلك لي بدوام الطاعة)

كلما تقدم من بيان في حِلْيَة الصالحين وزيّنة المتقين يبقى ناقصاً،ما لم يُسْنَد باستمرارية الطاعة بلا انقطاع، ولا فتور وفق الأحكام الشرعية، مع الحذر من الغفلة والتواني بعيداً عن الرياء ،.وطلب السمعة والشهرة، مع استشعار الرقابة والهيمنة الإلهية ، ومحاولة تجنب الانشغال بالدنيا الزائلة، والأخذ منها بحد الكفاف ورد في الحديث أن الله تعالى قال لرسوله الكريم ﷺ في حديث الإسراء والمعراج: ((**يا أحمد إن أحببت أن تكون أورع الناس فازهد في الدنيا وارغب في الآخرة،** فقال: **يا إلهي كيف ازهد في الدنيا وأرغب في الآخرة،** قال: **خذ من الدنيا خفّاً من الطّعام والشراب واللباس، ولا تدّخر لغد، ودُم على ذكري** فقال: **يا ربّ وكيف أدوم على ذكرك؟** فقال: **بالخلوة عن الناس، وبغضك الحلو والحامض، وفراغ بطنك وبيتك من الدنيا**))[1] .

وواضح من معنى الحديث أن الدوام على الطاعة هو الانشغال بما أمر الله والاجتناب عما نهى، وعدم الانشغال بإفراط في ملاذ الحياة الدنيا، واستمرارية الطاعة ولو كانت قليلة تحفظ الإنسان من السقوط والانزلاق، وذلك باستحضار الحقيقة الإلهية، والشعور بالمعية الإلهية، وتذكّر رقابته وهيمنته جل وعلا على طول الوقت؛ ومن هنا كان أئمة الهدى عليهم السلام يحثون على دوام الطاعة، ولو كانت قليلة يقول الإمام الباقر عليه السلام: ((**أحب الأعمال إلى الله عز وجلّ ما داوم عليه العبد وإن قل**))[2] .

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٢/٧٧.

(٢) ثقة الإسلام الكليني: الأصول من الكافي: ٨٢/٢ .

وقال عليه السلام: ((**ما من شيء أحب إلى الله عزّ وجل من عمل يداوم عليه، وإن قلّ**))[١] إن دوام العمل ولو كان قليلا يجعل نفس الإنسان مفعمة بذكر الله، وقلبه طافح بحبه، وهذا أشد ما يطرد إبليس، ويسود وجهه، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**فإن أردتم أن تديموا على إبليس سُخنة عينه، وألم جراحاته فدوموا على طاعة الله وذكره والصلاة على محمد وآله، وإن كنتم على غير ذلك كنتم أسراء إبليس فيركب أقفيتكم بعض مردته**))[٢] ثم إن دوام الطاعة، وإن قل يجعل النفس حية نشطة متطلعة إلى رحمة الله تعالى، وقد فضلت أحاديث أهل البيت قلة الطاعة مع اليقين على كثرتها على غير يقين، يقول أبو عبد الله الصادق عليه السلام: ((**العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير اليقين**))[٣] وعن أمير المؤمنين عليه السلام إنه قال: ((**قليل مدموم عليه خير من كثير مملول منه**))[٤]

وقد أوضح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله آثار الدوام على الطاعة بقوله: ((**وأما المداومة على الخير فيتشعّب منه ترك الفواحش، والبعد من الطيش، والتحرّج، واليقين وحب النجاة، وطاعة الرحمن، وتعظيم البرهان، واجتناب الشيطان، والإجابة للعدل، وقول الحق؛ فهذا ما أصاب العاقل بمداومة الخير فطوبى لمن ذكر ما أمامه،وذكر قيامه،واعتبر بالفناء**))[٥] .

---

(١) ثقة الإسلام الكليني: الأصول من الكافي: ٨٢/٢ .

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٣/٩٤.

(٣) المصدر نفسه: ٢١٤/٧١.

(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة:٩٠/١.

(٥) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١١٨/١-١١٩.

الثامن عشر: لزوم الجماعة:

اللزوم لغة هو ملازمة الشيء، والثبات عليه، وطول المكث معه، وأما اصطلاحا فهو السير معها فيما هي عليه من عقيدة، وفكر، وسلوك صحيح وإسنادها بالقول والفعل، وبالتعاون، والتأزر، والتناصح؛ لتحمل المسؤولية التي حمّلها الله تعالى المؤمنين لإعلاء كلمته، من خلال بناء الجماعة المسلمة المؤمنة وجعلها تعيش في مناخ توحيدي إيماني أخوي، وبصفوف متراصة يشد بعضها البعض الآخر.

والمقصود بالجماعة هم الذين يجمعهم فكر واحد، وعقيدة واحدة، وهدف واحد. فإذا كان الفكر صحيحا، والعقيدة صافية سليمة، والهدف واضح بيِّن،فسيكون الالتزام واعيا ،وحينئذ لا يخالف الملتزم الحق، ولا يختلف فيه وبذلك تكون الجماعة المعتنقة له، والملتزمة به هي جماعة الإسلام الحقة، وهي الجماعة التي أمر رسول الله ﷺ بملازمتها، وتوسل الإمام السجاد عليه السلام بالله تعالى أن يوفقه للزومها، تلك هي جماعة المسلمين، أو أمة الحق، وإن كانت قليلة فقد سئل رسول الله ﷺ: ((ما جماعة أمتك؟ قال: **من كان على الحق وإن كانوا عشرة**))[1].

وفي حديث آخر: جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: ((أخبرني... وعن الجماعة وعن الفرقة، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ... **والجماعة أهل الحق، وإن كانوا قليلاً، والفرقة أهل الباطل وإن كانوا كثيراً**))[2]، وأهل الحق جماعة وإن قلوا؛ ((**لأن القليل من المؤمنين كثير**)) كما قال رسول الله ﷺ: لتماسكهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الصف الواحد المتراص، والمترابط الذي لا ينفصل بعضه عن

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٦٦/٢.

(٢) المصدر نفسه.

البعض الآخر لمتانة نسيجه، وقوة شكيمته، وسلامة وسطه ((هـذا الوسـط الخـاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش لـه؛ فيحيـا فيـه هـذا التصـور، ويتـنفس أنفاسـه الطبيعية في طلاقة وحرية، وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه...

هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الإيمان والأخوة والإيمان بالله كي يتوحد تصورها للوجود، والحياة، والقـيم، والأعمـال والأحـداث والأشياء، والأشخاص، وترجع إلى ميزان واحد تُقَوّم بـه كـل مـا يعـرض لهـا فـي الحياة وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عنـد الله، وتتجـه بولائهـا كلـه إلـى القيـادة القائمة على تحقيق منهج الله في الأرض... والأخوة في الله كي يقـوم كيانهـا علـى الحب والتكافل اللّذين تختفي في ظلالهما مشاعر الأثرة، وتتضـاعف بهمـا مشـاعر الإيثار. المنطلق في يسر، المندفع في حرارة المطمئن الواثق المرتاح))[١] .

تلك هي الجماعة التي من فارقها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه. وهذا هـو الخطر الذي دُونَه كل خطر؛ ولهذا جاء تحذير رسول الله صلى الله عليه وآله مـن فـراق الجماعـة قاطعاً في ذلك فقد روي الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه عليه السلام أنه قال: ((**قـال رسول الله صلى الله عليه وآله: من فارق جماعة المسلمين فقد خلع ربقة الإسـلام مـن عنقـه، قيل يا رسول الله وما جماعة المسلمين؟ قال: جماعة أهل الحـق وإن قلـوا**))[٢] وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**من خلع جماعة المسلمين قـدر شـبر خلـع ربـق الإسلام من عنقه ...**))[٣] .

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٢٩/٢.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٦٧/٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢٦٧/٢.

ومفارقة الجماعة هي الانفصال عنها فكرياً، وسلوكياً، ومخالفة مسارهم الشرعي والسير في منهج غير منهج التوحيد والعدل.

وتلك هي الجماعة التي تجب نصيحتها، والإخلاص لها، ومؤازرتها، فقد قال رسول الله ﷺ: ((**الدين نصيحة، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه وللائمة في الدين، ولجماعة المسلمين**))[1] وواضح أهمية النصيحة لجماعة المسلمين من خلال عطفها على النصيحة – ويقصد فيها الإخلاص – لله ولرسوله... فكما يجب أن يخلص المرء في عمله لله، ولرسوله، وللائمة الذين تجب طاعتهم، يجب أن يخلص في تعامله مع جماعة المسلمين؛ ولهذا جعل ﷺ مفارقتها وخلافها كبيرة، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((**إن النبي قال: ثلاث موبقات: نكث الصفقة، وترك السنة، وفراق الجماعة...**))[2] بل شددت بعض الروايات وأكدت على أن من رغب عن تلك الجماعة، وفارقها، وزهد فيها سقطت عدالته ، وجازت غيبته فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: ((**... ومن رغب عن جماعة المسلمين سقطت عدالته، ووجب هجرانه وإن رفع إلى إمام المسلمين أنذره وحذّره ومن لزم جماعة المسلمين حرمت غيبته، وثبتت عدالته ...**))[3] .

وهذه الرواية إشارة إلى مصداق من مصاديق مفارقة الجماعة وهي عدم حضور صلاة الجماعة... وفيها دلالة عظيمة تدل على وجوب ملازمة الجماعة المؤمنة والتحذير عن التفرق عنها ولعل هذا ما أشار إليه تعالى بقوله:

---

(١)المحدث المجلسي، بحار الأنوار : ٦٧/٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ٦٨/٢٧.

(٣) المصدر نفسه : ٣٥٤/٨٣.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١].

السر في هذا التأكيد على ملازمة الجماعة المسلمة، أو جماعة أهل الحق هو أن الإسلام وفق منهجه العقائدي والتشريعي يهدف بناء أمة تدعوا إلى الخير وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. هذا من جانب، ومن جانب آخر إن الفرد لا ينمو وفق التصور الإسلامي نمواً صحيحاً إلا في وسط مناخ اجتماعي سليم مفعم بالإيمان والأخوة والتحابب في الله ولله.

((من هم جماعة أهل الحق؟))

كل إنسان يمكن أن يدعي أنه صاحب الحق، ولا يوجد إنسان عاقل إلا وأحب أن ينسب إلى تلك الجماعة، ولا أحد يقول إني على باطل... ولهذا لابد أن نحدد بدقة من هم جماعة أهل الحق الذين تجب ملازمتهم، ومؤازرتهم ومناصرتهم ومواصلة العمل معهم؟ هل هم كل جماعة ادعت الإسلام والإيمان، ورفعت رايته ودعت إليه؟ وهل هناك دلائل تدل على ذلك؟ وما هي الموازين التي تحدد هذه الجماعة؟ وهل هناك مصاديق جسدت ذلك قولاً وفعلاً، قلباً وقالباً؟

إذا أردنا أن نعطي جواباً شافياً ووافياً لتلك التساؤلات فلابد أن نرجع إلى ما صدع به القرآن الكريم في تحديد معالم وسمات جماعة أهل الحق، وما نطق به الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من بيانات لذلك. فلنتأمل فقط في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[٢] ولا شك أن الله تعالى بهذا التصريح الواضح البيّن لا يقصد المدح والثناء فقط، وإنما يريد أن يوجه أنظار الأمة

---

(١) آل عمران: ١٠٥.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

إلى من طهرهم واختارهم لحمل رسالته؛ لتتوجه إليهم، ولتأخذ دينها عنهم ولتتمسك بسيرتهم، وتأخذ بسننهم، وحتى المدح والثناء، وبيان مقامهم الشامخ لم يكن مقصوداً لذاته، إنما يقصد منه شد الأمة إلى مسيرتهم والاهتداء بهديهم لأنهم يمثلون الإسلام بكل أبعاده الروحية والمادية... وعلى هذا جاءت بيانات رسول الله ﷺ واضحة صريحة بوجوب التمسك بهم والاهتداء بهديهم؛ لأنهم سفن النجاة، ومنار الهدى. فعن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله عز وجل حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**))[١] .

وفي حديث آخر: ((**فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهما فهم أعلم منكم، ثم أخذ بيد علي رضى الله عنه، فقال: من كنت أولى به من نفسه فعلي وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه**))[٢] .

وفي حديث ثالث قوله ﷺ: ((**وإني سائلكم عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله عز وجلّ سبب طرفه بيد الله عز وجل وطرفه بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلوا، ولا تبدّلوا، وعترتي أهل بيتي فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يرد عليَّ الحوض**))[٣] .

ونحن إذا تأملنا قوله ﷺ: ((**لا تقدموهما**))، و((**لا تقصروا عنهما**))، فإن عدم التقدم عليهما، وعدم التأخر عنهما هو عبارة عن الملازمة بكل أبعادها خصوصاً إذا ضممنا إليها قوله ﷺ: ((**فاستمسكوا**)) وعرفنا أن التقدم عليهم هلاك، والتأخر عنهم

---

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد: ١٦٣/٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٤.

(٣) المصدر نفسه.

هلاك، والتمسك بهم نجاة، وقد أوضح أمير المؤمنين عليه السلام ذلك بقوله: ((**انظروا أهل بيت نبيكم فألزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا**))(١) .

وقال عليه السلام في خطبة أخرى: ((**هم عيش العلم، وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم. لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام. بهم عاد الحق إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته. عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل**))(٢) .

وفي كتابه لأهل مصر حين ولى عليهم محمد بن أبي بكر، قال عليه السلام: ((**واعلموا - عباد الله - أنكم إذا اتقيتم ربّكم، وحفظتم نبيكم في أهل بيته فقد عبدتموه بأفضل ما عبد، وذكرتموه بأفضل ما ذكر، وشكرتموه بأفضل ما شكر، وأخذتم بأفضل الصبر، وجاهدتم بأفضل الجهاد، وإن كان غيركم أطول صلاة منكم، وأكثر صياماً إذا كنتم أتقى لله، وأنصح لأولياء الله من آل محمد صلى الله عليه وآله وأخشع**))(٣) .

وبهذا يتبين لنا بدون أدنى ريب أو شك أن جماعة أهل الحق هم أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام الذين أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، وكل من

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: خطبة: ٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٩.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦٨/٦.

والاهم بوعي وصدق وإخلاص، وتجرد لله تعالى، واهتدى بهديهم، وأتمر بأوامرهم وانتهى عن نواهيهم قولاً وفعلاً، ظاهراً وباطناً فهو معهم. اللهم وفقنا لذلك يا أرحم الراحمين.

التاسع عشر: (رفض أهل البدع ومستعملي الرأي المخترع):

يؤكد اللغويون أن الابتداع هو اختراع، أو ابتكار شيء ليس له مثال سابق يقول الفراهيدي: ((هي إحداث شيء ليس له من قبل خلق أو ذكر ولا معرفة))[١].

ويقول الراغب عن الإبداع: ((هو إنشاء صفة بلا احتذاء أو اقتداء))[٢].

وفي مجمع البحرين: ((البدعة بالكسر فالسكون الحدث في الدين، وما ليس له أصل في كتاب ولا سنة، وإنما سميت بدعة؛ لأن قائلها ابتدعها هو بنفسه والبدع بالكسر والفتح جمع بدعة))[٣].

وأما في المصطلح الشرعي فإن البدعة هي: إحداث عقيدة، أو حكم، أو رأي لا أصل له في كتاب الله، ولا سنة رسوله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، وإدخال ما استحدث في الدين وجعله جزءاً منه، والدعوة إليه باعتباره دين الله الذي شرعه لعباده. وبعبارة أخصر البدعة إدخال ما ليس من الدين في الدين، ويظهر من بعض النصوص الحديثية أن البدعة تقابل السنة، وقد سأل رجل الإمام علي عليه السلام فقال: ((أخبرني عن السنة، والبدعة؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **السنة ما سن رسول الله ﷺ والبدعة ما أحدث بعده**))[٤].

---

(١) الخليل الفراهيدي: كتاب العين: ٥٤/٢.

(٢) الراغب الأصفهاني: مفردات غريب القرآن: ٣٢.

(٣) الشيخ الطريحي: مجمع البحرين: ٢٩٨/٤.

(٤) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار: ١٥٥.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**عمل قليل في سُنة خير من عمل كثير في بدعة**))[١].

وفي حديث آخر: ((**ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة**))[٢].

وفي حديث ثالث: ((**لا يذهب من السنة شيء حتى يظهر من البدعة مثله وتظهر البدعة حتى يستوفي البدعة من لا يعرف السنة فمن أحيا ميتاً من سنتي قد أميتت كان له أجرها، وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن أبدع بدعة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها لا ينتقص من أوزارهم شيئاً**))[٣].

من كل ما تقدم من الأحاديث الشريفة يتضح لنا أن البدعة تأتي قبال السنة فمن جاء ببدعة فقد رفض في قبالها سنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ومن أحيا سنة أميتت فقد رفض البدع التي أحدثت، وقد سأل رجل أمير المؤمنين عليه السلام فقال: ((يا أمير المؤمنين ومن أهل البدعة؟ ومن أهل السنة؟ فقال عليه السلام: **إذا سألتني فافهم عني، ولا عليك أن تسأل أحداً بعدي... وأما أهل البدعة فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ورسوله العاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا...**))[٤].

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال: ٢١٩/١، فصل في البدع، المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٦١/٢.

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال: ٢١٩/١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٢٢.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٥٧/٣٢.

((الموقف الشرعي من الابتداع))

لما كانت البدع أفكاراً، وآراءً، أو عقائداً، وأحكاماً يخترعها أصحاب النفوس الخاضعة للأهواء والمصالح الذاتية مع تغليفها، وسترها بستار التدين ونسبتها إلى الدين فهذا العمل بحد ذاته يمثل أعظم خطر يهدد الإسلام؛ لأنه عملية تحريفات مبطنة لعقائده ومبادئه وأحكامه وباسمه!! ولهذا حذّر الرسول الأكرم ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام من ذلك تحذيراً شديداً قبل وقوعه، واعتبروا كل ابتداع باسم الدين خروجاً عليه، وتجاوزاً لحدوده. فعندما نستقرئ الأحاديث الواردة عنهم عليهم السلام نجد أنهم إضافة للتحذير وقفوا بشدة إزاء كل بدعة، بل كانوا يراقبون سير الأمة، وما يطرح فيها من أفكار وآراء فيحاكمونها، ويفندونها ويفضحون أصحابها، ويأمرون بالبراءة منها، بل وصفوهم بأقذع الأوصاف، يقول الرسول الأكرم ﷺ:

((أهل البدع كلاب أهل النار))[(١)] .

((أهل البدع شر الخلق والخليقة))[(٢)] .

((إياكم والبدع فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة تسير إلى النار))[(٣)] .

((الأمر المفظع، والحمل المضلع، والشر الذي لا ينقطع، إظهار البدع))[(٤)] .

هذا نمط من التحذير والتقريع لأهل البدع، وهناك نمط آخر وهو: المنع من مجالسة أهل البدع، وزيارتهم، ومرافقتهم، ووجوب سبهم، ولعنهم، وإظهار البراءة منهم؛ لئلا يطمعوا بإضلال الناس، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام : ((**قال رسول الله**

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال: حديث رقم: ١١٢٥.

(٢) المصدر نفسه: حديث رقم: ١١٢٦.

(٣) المصدر نفسه: حديث رقم: ١١١٣.

(٤) المصدر نفسه: حديث رقم: ١٠٩٣.

عليه السلام إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم، وأكثروا من سبهم والقول فيهم، والوقيعة، وباهتوهم كي لا يطمعوا في الفساد في الإسلام ويحذرهم الناس، ولا يتعلمون من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات، ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة))[١] .

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله عن أبيه عن علي عليه السلام قال: ((**من مشى إلى صاحب بدعة فوقره فقد مشى في هدم الإسلام**))[٢] .

وفي حديث ثالث: ((**من تبسم في وجه مبتدع فقد أعان على هدم دينه**))[٣].

وهناك طائفة أخرى من الأحاديث الشريفة أكدت أن أهل البدع لا يقبل الله توبتهم. ولعل السر في عدم قبول توبتهم لما أحدثوه من ضلالات تركت آثارها في الوسط الاجتماعي، واستمرت تلك الضلالات تواجه حركة التوحيد الإلهي، فقد رفع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: ((**أبى الله لصاحب البدعة بالتوبة قيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: قد أشرب قلبه حبها**))[٤] فكأن تلك البدعة قد تملكته وأصبحت جزءاً من شخصيته فلا يمكن أن يطهر بالتوبة، وليس هناك أشد من هذا حيث أن هذا المبتدع تحول إلى عنصر فاسد مفسد لا يمكن إصلاحه؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**إن الله احتجب - احتجز- التوبة عن كل صاحب بدعة**))[٥] وفي حديث آخر: ((**أبى الله لصاحب البدعة بالتوبة**))[٦] .

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٥٠٨/١١.

(٢) سفينة البحار: ٦٣/١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٥٤/١.

(٥) المتقي الهندي، كنز العمال: حديث رقم: ١١١٦.

(٦) الشيخ الصدوق، علل الشرائع: ٤٩٢.

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((**كان رجل في الزمن الأول طلب الدنيا من حلال فلم يقدر عليها، وطلبها من حرام فلم يقدر عليها، فأتاه الشيطان فقال له: يا هذا إنّك قد طلبت الدنيا من حلال فلم تقدر عليها، وطلبتها من حرام فلم تقدر عليها. أفلا أدلّك على شيء تكثر به دنياك، ويكثر به تَبَعُك؟ قال: بلى قال: تبتدع ديناً، وتدعو إليه الناس. ففعل فاستجاب له الناس، وأطاعوه وأصاب من الدنيا،ثم إنّه فكر، فقال: ما صنعت؟ ابتدعتُ ديناً، ودعوتُ الناس، ما أرى لي توبة إلا أن آتي من دعوته إليه فأردّه عنه، فجعل يأتي أصحابه الّذين أجابوه، فيقول لهم: إن الذي دعوتكم إليه باطل، وإنّما ابتدعته، فجعلوا يقولون له: كذبت وهو الحقّ، ولكنك شككت في دينك فرجعتَ عنه. فلما رأى ذلك عمد إلى سلسلة فوتّد لها وتداً ثم جعلها في عنقه، وقال: لا أحلّها حتى يتوب الله عزّ وجلّ عليَّ فأوحى الله عز وجلّ إلى نبي من الأنبياء: قل لفلان: وعزّتي لو دعوتني حتى تنقطع أوصالك ما استجبت لك حتى تردَّ من مات على ما دعوته إليه فيرجع عنه**))(١).

وهكذا تتبين لنا خطورة البدع والمبتدعة على الإسلام والمسلمين، وبذلك يتضح لنا سر توسل الإمام زين العابدين عليه السلام بأن يوفقه الله لرفض أهل البدع ومستعملي الرأي المخترع لعنهم الله تعالى.

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٩٧/٢.

((موقف الأئمة الأطهار عليهم السلام من المبتدعة))

كما ابتلي رسول الله صلى الله عليه وآله بالكذابين والوضاعين في حياته وبعد وفاته من الذين دخلوا الإسلام؛ ليكيدوا له، ولا سيما من علماء اليهود والنصارى ككعب الأحبار، وتميم الداري، ووهب بن منبة، وعبد الله بن سلام وغيرهم، حيث أنهم عندما فشلوا في إيقاف حركة الإسلام ابتكروا أسلوباً آخر أخطر على الإسلام من الحرب الدموية ألا وهو تحريف أحكامه، وإفساد عقائده، وتشويه حقائقه بدس الأساطير والخرافات والأحاديث الإسرائيلية، والتي عانى منها علماء المسلمين أشد المعاناة، ولا زالوا يعانون حيث أدخلت هذه الأساطير في معظم كتب الحديث... ومثل هذا الابتلاء تعرض له كذلك أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام، حيث ظهر في حياتهم رجال ممن يَدعي الانتساب إليهم، وراحوا ينسبون إليهم أقوالاً ومبتدعات ويرفعونهم إلى مقام الربوبية والخالقية، والرازقية. ومن هؤلاء المغيرة بن سعيد وبنان، وصائد النهدي، وحمزة بن عمارة الزبيدي والحارث الشامي، وعبد الله بن الحارث، ومحمد بن أبي زينب الملقب بأبي الخطاب[١] وغيرهم، وقد وقف الأئمة عليهم السلام من هؤلاء موقفاً حدياً قاطعاً أعلنوا فيه براءتهم منهم، ومما نسبوه إليهم، بل أمروا بلعنهم، وسبهم، ووصفوهم بأقذع الأوصاف، فعن بن أبي عمير عن المفضل بن مزيد قال: ((قال أبو عبد الله عليه السلام وذكر أصحاب أبي الخطاب والغلاة، فقال لي: **يا مفضل لا تقاعدوهم، ولا تؤاكلوهم، ولا تشاربوهم، ولا تصافحوهم، ولا تؤاثروهم))**[٢].

وكان عليه السلام يظهر تأثره وانزعاجه من هؤلاء، ويؤكد على وجوب ردّهم

---

(١) الشيخ الطوسي: اختيار معرفة الرجال: ٥٧٧/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٥٨٦.

وتفنيد أقاويلهم، فعن بن أبي عمير عن عبد الصمد بن بشير عن مصادف قال: ((لما أتى القوم الذين أتوا بالكوفة دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فأخبرته بذلك، فخر ساجداً وألزق جؤجؤه بالأرض وبكى، وأقبل يلوذ بإصبعه ويقول: **بل عبد الله قن داخر مراراً كثيرة، ثم رفع رأسه ودموعه تسيل على لحيته، فندمت على إخباري إياه**))(١) ويتعجب الراوي من الحالة التي أبداها الإمام عليه السلام، ومدى تأثره دون أن يدرك خطورة الأمر الذي أخبر الإمام به، فقال له: ((جعلت فداك وما عليك أنت من ذا؟ فقال عليه السلام: **يا مصادف إن عيسى لو سكت عما قالت النصارى فيه لكان حقاً على الله أن يصم سمعه ، ويعمي بصره، ولو سَكَتٌّ عما قال فيَّ أبو الخطاب لكان حقاً على الله أن يصم سمعي ويعميْ بصري**))(٢).

وفي حديث آخر أشد لهجة يقول أبو عبد الله عليه السلام: ((**لا والله لا يأويني وإياه سقف بيت أبداً. هم شرٌّ من اليهود، والنصارى، والمجوس، والذين أشركوا**))(٣).

وأكثر من ذلك كان يلعنهم صراحة على رؤوس الأشهاد فيقول: ((**لعن الله أبا الخطاب، ولعن من قتل معه، ولعن من بقي منهم، ولعن الله من دخل قلبه رحمة لهم**))(٤).

ومن كل ذلك يتبيّن لنا مدى خطورة الأمر الذي كان الأئمة عليهم السلام يحاربونه وخطره يتمثل في تشويه حقيقة الدين الإلهي بإفساد عقائد الناس بنقل الربوبية من

---

(١) الشيخ الطوسي: اختيار معرفة الرجال: ٥٧٧/٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٥٩٠.

(٤) المصدر نفسه: ٥٨٤.

الله إلى عباده؛ ولهذا وجدنا الإمام الصادق ﭺ يلصق صدره إلى الأرض باكياً ومظهراً عبوديته لله تعالى، ومُطلِقاً أشد اللعنات على هؤلاء الذين نسبوا إليه الربوبية من دون الله تعالى.

والعمل الخطير الذي كان يقوم به هؤلاء وضع الأحاديث على أئمة الهدى ﭺ، وبثها في وسط الشيعة؛ لِتروج وتُحَرف بها أحكام الله، وتُفسَد بها عقائد المسلمين. فعن هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله ﭺ يقول: ((**كان المغيرة بن سعيد يتعمد الكذب على أبي، ويأخذ كتب أصحابه، وكان أصحابه المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتب من أصحاب أبي فيدفعونها إلى المغيرة، فكان يدس فيها الكفر والزندقة، ويسندها إلى أبي ثم يدفعها إلى أصحابه، ويأمرهم أن يبثوها في الشيعة. فكل ما كان في كتب أصحاب أبي من الغلو فذاك ما دسه المغيرة بن سعيد في كتبهم**))(١).

وإذا كان خطر هذا الأمر بهذه المثابة مع وجود الإمام المعصوم ﭺ واقفاً بقوة وحزم ضد هذا التوجه، فما حالنا اليوم حيث أخذ البعض يلتقط من هذه الأحاديث وينقب عنها؛ ليبرزها على منابر الحسين ﭺ مروجاً لحالة الغلو بقصد أو بغير قصد، لا سيما ممن لا خبرة له بعلم الحديث، وتمييز السليم من السقيم ممن تطفل على المنبر الحسيني ظلماً وعدواناً، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وإلى الله المشتكى مما يعاني منه حملة رسالة الله من الذين أُعدوا للدفاع عن مثل تلك الأساطير، ونشرها في الوسط الإسلامي؛ لتشويه حقائق الإسلام،وهذا ما اصطلحوا عليه في دوائر الاستخبارات بحرب الدين بالدين تجنبا لإثارات حساسية المسلمين، ولا شك أن هذا الأسلوب من أخطر الأساليب في إفساد عقائد

---

(١) الشيخ الطوسي: اختيار معرفة الرجال: ٢/٤٩١.

المسلمين وهو إسلوب يهودي قديم استطاعوا أن يُحرفوا عقائد الناس وبه أوجدوا التثليث في المسيحية أوجـدها شائول اليهودي، والذي عرف فيما بعد باسم بولس الرسول الذي ادعى أنه رأى السـيد المسـيح ذات ليلـة، وجـاءهم بانجيـل جديـد، واخترع إلُوهية المسيح [١].

(١) راجع المسيح الدجال لسعيد أيوب: ٥٠-٥٣.

٣

أسباب
الجفاف الروحي

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

((الحديد: ١٦-١٧))

في هذه الآية عتاب مؤلم، وإشعار بحالة تقصير في التفاعل مع الوحي الإلهي وضعف في التلقي الواعي له، وتحسيس بما ستؤول إليه حالة المؤمن إذا لم يستيقظ من غفلته ،وبأنه سيصاب بالقسوة، والجفاف الروحي،والتردي الاخلاقي نتيجة الإعراض عن ذكر الله، والذي، سينتهي بالمؤمن إلى خمود جذوة الإيمان، وبها سيكون القلب خالياً من النور الإلهي، فلا خشوع، ولا خضوع، ولا تأثر إيجابي ومعلوم أن خمود جذوة التفاعل الروحي مع ذكر الله: دعاء وقرآناً ينتهي بالإنسان إلى الموت الشعوري،فلا فرق بين الخمود الروحي، وبين الموت، فنحن نشاهد بالوجدان كم من صاحب علم، وفكر، وكلام كثير، ولكن لا نجد في كلامه حياة، ولا حركة ولا حرارة، والسبب في ذلك أن الطاقة الإيمانية، أو الجذوة الروحية قد تكون خامدة؛ فلا تفجّر الفكر، ولا تبعث فيه الروح، وحينئذ يصبح جثة هامدة لا حراك فيها، وعلى العكس حين تتقد جذوة الإيمان ((في نفس الداعية تتحول إلى

شعلة ملتهبة من النشاط، والحركة تبعث الحياة والحركة في كل شئ في المجتمع، وفي الفرد وفي كل شئ حتى في الكتاب والورق والقلم الذي يمسكه بيده، والكلمات التي ينطق بها، وكذلك الإيمان يمنح الحياة والحركة في نفس الداعية، ويحوله من آلة جامدة إلى شعلة ملتهبة من النشاط،ومن الجهاد، ويمنح فيضاً من الدفع الدائم والزخم المستمر لهذه الشخصية في مجالات العمل، وحقول الدعوة، ومسؤولية التغيير الجذري لحياة هذه الأمة، وسلوكها))[1].

إن للإنسان مُحَرِكَين هما العاطفة والفكر، ولكل منهما تأثير في حياته،وقد يمكن أن يعمل كل منهما منفرداً عن الآخر، ولكن هذا العمل سيكون عملاً غير نافع، وغير مُجدي، وقد يكون ضاراً؛ لأن العاطفة بدون فكر تكون عاطفة ساذجة هابطة هوجاء، غير موجهة لما ينفع الإنسان، والفكر كذلك إذا انفصل عن العاطفة سيكون جافاً قاسياً لا يحرك حتى حامله، ولهذا مزج الإسلام في حركته؛ لتغيير المجتمع البشري بين العاطفة والفكر؛ لكي يوجه الفكرُ العاطفةَ، ويجعلها تياراً محركاً، منظماً، وموجهاً؛ ولتفجر العاطفةُ طاقات الفكر فتعطيه زخماً ،وحرارة وحماسة متفجرة ((لهذا يعلن الإسلام عن ضرورة ازدواج الفكر والعاطفة، واجتماع العقيدة، وما تتطلبه من ألوان الانفعال والإحساس؛ حتى تدب الحياة في العقيدة وتصبح مصدر حركة وقوة دفع، وليست مجرد فكرة عقلية لا يخفق، ولا يستجيب لها الحس، ولا تتدفق بالحياة))[2] ولذلك ازدوجت في شخصية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله الفكر والعاطفة، فتفجرت تياراً يكتسح ما في النفوس من أدران، وما في المجتمع من عقبات فأوجد مناخاً إيمانياً رائعاً في مجتمع يسوده الجهل،

---

(١) ثقافة الدعوة الإسلامية: ١٢/٤.

(٢) السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، رسالتنا: ٣٤.

والتعصب، والعنف ونقله من إنسان لا يتعدى نظره ناقته، وفرسه، وعشيرته، إلى إنسان يتطلع إلى فتح جميع المجتمعات البشرية، وإيصال الدعوة إليها . نعم أوجد رسول الله ﷺ بأخلاقه العظيمة، وبمبادئه الرصينة، وبحكمته الدقيقة، وبرحمته الإلهية مناخا اجتماعياً سليما فألف به بين المتنافرين والمتحاربين فجعل منهم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، تلك هي النعمة التي من الله بها على عباده ؛ لينقذهم من هاوية أشرفوا على الوقوع فيها: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[1] وتلك هي رحمة الله التي تجسدت بشخصية رسول الله ﷺ يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[2].

حقائق نفسية واجتماعية :

ثم إن في الآية إشارات مهمة إلى حقائق نفسية واجتماعية وهي:

الأولى: إن الله عند ما أنزل رسالته أراد من عباده أن يتلقّوها بوعي وقوة تفاعل كي ترتقي بهم إلى معارج الكمال، وتنقلهم من حالة الجفاء إلى الرقة، ومن القسوة إلى الليونة، ومن حالة الإعراض إلى حالة التفاعل.

وعملية الترقي لا تتم إلا بالتفاعل الوجداني مع الذكر الإلهي حيث يسمو الذكر الإلهي بالإنسان إلى أرقى مدارج القرب الإلهي، وبذلك تتفتح مشاعره، ويرقَ قلبه، وتزكو نفسه، وتتسع مداركه... وهكذا حتى يتخلّق بخلق الله تعالى، ويصبح

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

إسلاماً متحركاً في الأرض،يُذكِّر بالله تعال في كل حركة وسكون،وهذا لا يتم إلا لمن جَدَّ في معرفة الله معرفة واعية، وفهم أحكام الله فهماً دقيقاً ،وطبقها على نفسه، أي اتسم بالإيمان، والعلم، والعمل، وعرف أسرار النفس البشرية داءها ودواءها وعالجها بنور المعرفة، وطهرها بماء الإخلاص حتى تصبح تحس بالمعيَّة الإلهية، أين ما حلت، وأين ما إترحلت.

الثانية: في الآية الكريمة دعوة للإنسان المؤمن كي يضع حداً لتقصيره وتوانيه في امتثال أوامر الله تعالى، وبتلك الدعوة قرعت عليه أبواب نفسه، وهزت أوتار ضميره، واقتحمت عليه مشاعره؛ ليراجع نفسه ، ويوبخها، ويقرعها، ويحاسبها وينفض عنها غبار الغفلة، والنسيان، والإعراض ،والتمادي في إتباع الأهواء.

الثالثة: والآية بعد هذا بيان إجمالي دقيق لحياة القلوب، والأرواح ،والنفوس والتي لا يسعد الإنسان إلا بإصلاحها، ومعلوم أن منتهى غاية الإنسان هي نيل الراحة النفسية بالاطمئنان، والخلاص من هموم القلق واضطراباته، ولا يوجد إنسان يتحرك في الحياة إلا من أجل تحقيق الراحة، يقول الإمام الخميني قدس سره: ((اعلم إن من الفطريات الإلهية التي فطرت عليها العائلة البشرية كافة. هي فطرة حب الراحة. فلو أنك في كل أدوار التمدن، والتوحش، والتدين، والعناد رجعت إلى هذا الإنسان: الجاهل، والعالم، والوضيع، والشريف، والمدنين، والبدوي، وسألته: لم كل هذا التعلق المتنوع والأهواء الشتى، وما الغاية من تحمل كل هذه المشقات والصعوبات، والمعاناة في الحياة؟ فإنهم جميعاً وبكلمة واحدة، وبلسان الفطرة الصحيح يجيبون قائلين: بأن كل ما يتوخونه إنما هو لراحتهم، والغاية النهائية والمرام الأخير، وأقصى ما يتمنونه هو الراحة المطلقة الخالية من كل تعب ونصب))[1].

---

(١) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً:١٨١.

وقد يتصور البعض أن الراحة في إشباع النفس بالللذائذ التي تحقق مستوى معيناً من الراحة الوقتية، وهذه ليست براحة حقيقة؛ لأن جميع لذائذ الدنيا متبوعة بالألم و((ليس من الممكن أن تعثر على راحة غير مشوبة بالألم . إن جميع نِعم هذا العالم يصاحبها العناء والعذاب المضني، وما من لذة إلا وفيها ألم . إن العذاب والتعب، والألم، والحزن، والهم، والغم تملأ أرجاء الأرض))(١) فلا اطمئنان في الحياة إلا بذكر الله تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٢).

إن الراحة المطلوبة لا تتحقق بكل لذائد الدنيا المادية ؛ لأنه ما من لذة إلا ويحتاج تحصيلها إلى عناء ومشقة، والتمتع بها مؤقت محدود، إضافة إلى ما يتبعه من آثار سلبية على البدن والروح؛ لذلك لا يحصل الاطمئنان إلا إذا انفتح القلب على الله تعالى، وانشرح الصدر للإسلام، فرضي بقضاء الله وقدره ، وسلم له جميع أمره ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾(٣) ومن هنا أن نجد الآية الكريمة تتوجه بالعتاب المقرع إلى الذين لا تخشع قلوبهم لذكر الله تعالى .

الرابعة: إن قسوة القلب هي شقاء، وعناء ،وعذاب للإنسان، وطرح لإنسانيته بل هي موت محقق؛ لأنها لعنة وطرد من ساحة القدس الإلهي ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾(٤) ولهذا ينبغي أن نتأمل في عوامل قسوة القلب فإن القلب كائن حي نابض يتأثر بالعوامل الخارجية والداخلية، والآية

---

(١) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً:١٨١.

(٢) الرعد: ٢٨.

(٣) لقمان: ٢٢.

(٤) المائدة: ١٣.

أشارت بشكل مجمل إلى عوامل قسوة القلب، وهي طول الأمد أي طول عمر الإنسان مع استمرارية الغفلة ، والإعراض، وسوء العمل،وطول الأمل، والانشغال عن الله.

أسباب قسوة القلب :

الإنسان إنسان بقلبه، إن صلح القلب صلح كل وجوده، وإن فسد فسد كل وجوده، وأعظم شهادة يقدم بها الإنسان على الله تعالى هي سلامة القلب من الأمراض الفكرية، والأخلاقية، والسلوكية، والقلب السليم هو الذي طهر من كل رجس، ورين، وامتلأ بحب الله تعالى،وحب أوليائه،وطفح بالرحمة على خلقه يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام:((**أشعر قلبك الرحمة لجميع الناس، والإحسان إليهم ...**))[1] وأخطر ما يصيب القلب من الأمراض هي القسوة؛ لأنها طرد من رحمة الله تعالى ولعنة منه على الإنسان، وعذاب دائم له ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾[2] وأبعد الناس عن الله القلب القاسي؛ ولهذا ينبغي للمؤمن أن يحافظ على سلامة قلبه من هذا الوباء الخطير، ونحن إذا تتبعنا الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام نجد أنها أشارت إلى أسباب القسوة وحذرت منها وأهمها:

١- **الإعراض عن ذكر الله:** فإن أهم ما يبعث على قسوة القلب هو الإعراض عن ذكر الله، ونسيان رقابته، فعن علي بن جعفر عن أخيه عن أبيه عليه السلام قال: ((**أوحى الله عز وجلّ إلى موسى: يا موسى لا تفرح بكثرة المال، ولا تدع ذكري على كل حال فإن كثرة المال تنسي الذنوب، وإن ترك ذكري يقسي**

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٧.

(٢) الزمر: ٢٢.

القلوب))[1].

وفي رواية أخرى:((**يا موسى لا تنسني على كل حال... فإن نسياني يقسي القلوب))**[2] وإنما يقسو قلب الإنسان؛ لأنه يبتعد عن الله.

٢- كثرة الكلام في غير ذكر الله تعالى: فإن هناك ترابطاً بين الجنان واللسان وبهما تكمل إنسانية الإنسان، يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: ((**المرء بأصغريّه بقلبه ولسانه**)) وما يصدر من اللسان يترك أثرا على القلب، فمن كثر كلامه بذكر الله رق قلبه، ومن اشتغل بغير ذكر الله تعالى قسى قلبه؛ لأن الاشتغال بغير ذكر الله تعالى يبعد الإنسان عن الله تعالى، قال الإمام الصادق عليه السلام: ((**كان المسيح عليه السلام يقول لأصحابه: ...ولا تكثروا الكلام في غير ذكر الله فإن الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون**))[3].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسو القلب إن أبعد الناس من الله القلب القاسي**))[4].

٣- طول الأمل: في كثير من الأحيان تتوارد على الإنسان خواطر تجعله يخرج عن واقعه، ويعيش آمالاً تجره إلى أوهام فيصاب بالغرور، ويبقى يلهث وراء الآمال الوهمية، فلا يجد إلا السراب أمامه، فإذا استمر على ذلك انشغل قلبه بتصورات لا تنتهي تنسيه نفسه، وتجره إلى نسيان ذكر الله تعالى، وهذا أشد ما يقسي القلب فقد روي ((فيما ناجى الله عز وجلّ به موسى عليه السلام: **يا موسى لا**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٠/٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ٧٧/٣٥.

(٣) المصدر نفسه: ١٤/٣٢٤.

(٤) المصدر نفسه: ٧١/٢٨١.

تُطَول في الدنيا أملك فيقسو قلبك والقاسي القلب بعيد مني))[١] .

٤- عدم ذكر الموت: إذا استغرق الإنسان في حب الدنيا أنسته نفسه وسيطرت عليه من جميع جوانبه ،واصبحت قطب الرحى في حياته يدور حيثما تدور ولهذا نجد في الأحاديث الشريفة حثاً كثيراً على تذكر الموت؛ ليردع الإنسان عن الانغماس في أهوائه، فإن الإنسان حينما يتذكّر سكرات الموت، وضغطة القبر وأهوال القيامة ذكراً إيمانياً واعيا فإن هذا الذكر يرقّق القلب، ويذلل الإنسان لله تعالى،يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**أحيّ قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوّه باليقين ونوّره بالحكمة، وذلّلهُ بذكر الموت، وقرِّره بالفناء، وبصرّه فجائع الدنيا ...**))[٢] .

فذكر الموت إذاً يُوقِف توقان النفس، وانطلاقها إلى عالم الأوهام والتصورات الخيالية، وهذا ما يؤكده أمير المؤمنين بأن القلب يذل ويتراجع إذا وعى حقيقة الفناء، وتبصَّر بفجائع الدنيا. كما روي عن عيسى عليه السلام أنه قال: ((**بحق أقول: إن الدابّة إذا لم تركب وتمتهن تَصعَّبت، وتغير خلقها كذلك القلوب إذا لم تُرقَق بذكر الموت وبنصب العبادة تقسو وتغلظ**))[٣] .

وخلاصة الكلام: كل ما يلهي ويشغل عن ذكر الله تعالى: كاللهو، واللعب والغناء،واللغو،ومحادثة النساء خارج الإطار الشرعي، والانغمار بحب المال والأولاد والمساكن... وما شاكل ذلك يؤدي إلى قسوة القلب، وهي من أشد العقوبات للإنسان، يقول الإمام الباقر عليه السلام: ((**إن لله عقوبات في القلوب والأبدان ضَنَكٌ في**

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٣٢٩/٢.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٣١.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٢٥/١٤.

المعيشة، ووهن في العبادة، وما ضُرب عبدٌ بعُقوبَة أعظم من قسوة القلب))[(١)] .

أسباب الجفاف الروحي:

كل مؤمن يود لو استطاع أن يُفرِّغَ قلبه لله، ويتوجه بكل كيانه له تعالى ولكن مع انشغال الإنسان بالدنيا ومتعلقاتها يصبح هذا الأمر عسيراً؛ ولهذا نجد الإمام السجاد عليه السلام يشكو إلى الله تعالى من هذه الحالة ففي دعاء السحر، يقول: ((**اللّهمَّ إني كُلَّما قلتُ قد تهيَّأتُ، وتعبَّأتُ، وقمتُ للصَّلاة بين يديْكَ، وناجيْتُك ألقيتَ عليَّ نُعاساً إذا أنا صَلَّيتُ، وسَلَبْتَني مناجاتك إذا أنا ناجيْتُ! ما لي كلّما قلتُ قد صلحت سريرتي، وقرُب من مجالس التَّوّابين مجلسي، عرضت لي بليّة أزالت قدمي، وحالت بيني وبين خدمتك سيدي لعلّك عن بابك طردتني، وعن خدمتك نحَّيْتَني! أو لعلك رَأَيْتَني مستخفّاً بحقك فأقصيتَّني! أو لعلّك رأيتني معرضاً عنك فقليتني! أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني! أو لعلك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني! أو لعلك فقدْتني من مجالس العلماء فخذلتني! أو لعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيستني! أو لعلك رأيتني آلفَ مجالس البطّالين فبيني وبينهم خلّيتني! أو لعلك لم تحب أن تسمع دعائي فباعدتني! أو لعلك بجرمي وجريرتي كافيتني! أو لعلك بقلة حيائي منك جازيتني!))**[(٢)] .

ففي هذا النص الشريف يوضح الإمام عليه السلام أسباب الجفاف الروحي ويعرضها على الله بقلب متوجع متفجع، ثم يسأل من الله الرحمة والقبول، وهذه

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٧٦/٧٨.

(٢) الصحيفة السجادية الجامعة، دعاء السحر: ٢٢٢.

الأسباب وإن لم تكن على نحو القطع والجزم، وإنما يسوقها على نحو الاحتمال وهي:

١- لعل حالة الجفاف الروحي جاءت نتيجة **عدم صلاحية الإنسان للوقوف على باب الله**؛ لأنه غير مؤهل لذلك، ولا مقبول عند الله؛ بل مطرود عن ساحة القدس الإلهية؛ لعدم زكاة نفسه! أي أن ظرفه النفسي والقلبي لم يعد صالحاً لتلقي الفيوضات الإلهية.فهو كالأرض السبخة التي لا يجْدِيها الماء نفعا،وإنما تزداد،به خشونة وملوحة، وعفونة.

٢- الاستخفاف بحق الله: ((**أو لعلك رأيتني مستخفاً بحقك فأقصيتني**)) الاستخفاف بحق الله هو عبارة عن عدم الاهتمام بأوامر الله ونواهيه، والتهاون بها وهذا أشد ما يبعد الإنسان عن الله، ويحجبه عن المثول في الحضرة القدسية؛ لأن ((**أشد الذنوب ما استخف به صاحبه**))(١) .

ومعنى الاستخفاف: ((كيفية للقول المعرب عن الذم والضرر المستحق، ولا يكون كذلك إلا بالقصد، وقد ينفرد منهما فيقع بأفعال الجوارح كالتعظيم، كرفع الصوت على الغير للاستعلاء عليه والإعراض عن حديثه، وترك القيام لمن جرت العادة بالقيام له فما فوق ذلك، لعلمنا بكون الفاعل مستخفا بكل واحد من هذه الأفعال كالقول))(٢) .

فالاستخفاف إذن هو عدم الاعتناء بأوامر الله ونواهيه، والتجرؤ على ارتكاب المحرمات. فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((... **ومن استخف بحقه واستحلَّ ما حرم الله عليه من العمل الذي نهاه الله عنه فيه، أدخله الله عز وجل النار** ...))(٣) .

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٦٤/٧٣.

(٢) أبو الصلاح الحلبي، الكافي: ٤٦٢.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢٩/٢.

إذن كل عمل تُخالَف فيه أوامر الله، وتُرتَكَب فيه نواهيه، فهو استخفاف بحق الله تعالى، فقد قال ﷺ: ((**ألا ومن استخف بفقير مسلم فقد استخف بحق الله، والله يستخف به يوم القيامة ...**))(١).

٣- الإعراض عن ذكر الله: ((أو لعلك رأيتني معرضاً عنك فقليتني))
الإعراض عن الله هي حالة صدود متعمدة ينغلق فيها القلب فلا يُقْبل على الله تعالى، وهذه الحالة أسوأ من الثانية، ولذا فهي تسبب البعد عن الله تعالى، والبغض للمعرض عنه تعالى؛ لأن الإعراض أشد الظلم وأقبحه ،يقول تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا** ﴾(٢).

بل إن الإعراض عن ذكر الله تعالى يحمّل الإنسان أثقل الأوزار، وأشدّ الآثام لأن ﴿ **مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا** ﴾(٣).

ويعيش حالة الضنك المشقي في الدنيا والآخرة يقول تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾(٤).

٤- عدم الصدق والإخلاص: ((أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني))، فلا يقبل الله عملاً صدر من الإنسان كذباً أو رياءً؛ ولذا يرفض العمل والعامل.

٥- عدم الشكر: ((أو لعلك رأيتني غير شاكرٍ لنعمائك فحرمتني))، لقد أنعم الله على بني الإنسان نعماً لا تُعَدّ، ولا تحصى، وأراد منهم أن يشكروه ؛

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٨/٧٢.

(٢) الكهف: ٥٧.

(٣) طه: ١٠٠.

(٤) طه: ١٢٤.

ليزيدهم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وعندما لا يشكر الإنسان هذه النعم فإنه يُعَرِّضُ نفسه للحرمان منها، والعكس بالعكس، وحينئذ يكون عدم الشكر سبباً من أسباب الجفاف الروحي، وذلك لأن الشكر من المخلوق للخالق ارتباط به بجميع أنواع الارتباط قلباً ولساناً وجوارحاً منشدة كلها إلى الله، فإذا فُقد الشكر فُقد هذا الارتباط، وتحقق الجفاف .

٦- عدم التواجد في مجالس العلماء: ((**أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني**)) لا شك أن العلماء بالله في كل حركة من حركاتهم، وسكنة من سكناتهم يُذَكِّرون بالله تعالى، فالتواجد في مجالسهم كتواجد في ظل شجرة وارفة مثمرة على ساقية صافية ينساب ماؤها، والجالس تحتها يتغذى من ثمرها ، ويشرب من مائها، ويتفيأ بظلالها كذلك التواجد في مجالس العلماء العارفين بالله، فإن رؤيتهم تُذَكِّر بالله، ومنطقهم يهدي إلى الله، وسلوكهم يحفز على الالتزام بشريعة الله.

وهذه الحقيقة كنا نعيشها يوم كنا نتواجد في مجالس السيد الشهيد الصدر الأول، والشيخ محمد أمين زين الدين، والشيخ عبد الحسين آل خليفة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وأنا بالذات بمجرد أن ألقاهم أزداد خشوعاً لله، فيرقّ قلبي ويتوجه إلى الله وأصفيائه، ولكن اليوم ومع الأسف الشديد نرى البعض من العلماء فنتذكر الدنيا لا الآخرة، وقد حدّد رسول الله صلى الله عليه وآله صفات العالم الذي ينبغي أن نجلس إليه بقوله: ((**لا تجلسوا إلا عند كلِّ عالم يدعوكم من خمس إلى خمس: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الرهبة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن الغش إلى النصيحة**))[1] .

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٨٨/٧٤-١٨٩.

٧- الغفلة: ((**أو لعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيستني**))، الغفلة حالة انشغال وانصراف عن الله يعطّل إدراك الإنسان، وينسيه نفسه، ويبعده عن الله، لأنه بمثابة حاجب يحجبه عن الله تعالى فهو كالسكران لا يعي ما يقول، ولا يدري ما يفعل، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**سكر الغفلة والغرور ابعد إفاقة من سكر الخمور**))[١].

ويقول عليه السلام: ((**كفى بالغفلة ضلالاً**))[٢]... وأدق تصوير لحالة الغفلة ما صوره القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[٣] فالغفلة حالة ركود عقلية في جانب نافع؛ لفساد في الحس، وانصراف إلى جانب ضار، وهذا الانصراف يعطّل الحواس عن عملها المراد منها، وهو التوجّه إلى ما فيه ارتقاء إلى سلم الكمال فيعطّل القلب عن وعي الحقائق الكونية - لا سيما إذا تلبدت عليه أدران الآثام - والبصر عن رؤية الرشد والمنافع، ودفع المضار، والسمع عن التوجه إلى الكلمة الحقة... فالحواس موجودة، ولكنها منصرفة إلى ما يضرّها ويبعدها عن رشدها وتكاملها، فهي تبصر ولكن غير الحقيقة، وتسمع ولكن تسمع الباطل، وتفكر ولكن في أمر غلبت فيه الشهوة، وسيطرت عليه الغرائز فكأنما العقل مغطى والقلب لاه، ومن هنا حذرت أحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام من هذه الحالة الخطيرة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((**إن كنتم للنجاة طالبين فارفضوا الغفلة واللهو، وألزموا الاجتهاد والجد**)).

(١) الآمدي: تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الأعراف: ١٧٩.

((**من غلبت عليه الغفلة مات عقله**)) .

((**إياك والغفلة والاغترار بالمهلة فإن الغفلة تفسد الأعمال ...**))[(١)] .

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: ((**وإياك والغفلة ففيها تكون قساوة القلب**))[(٢)] .

٨- التواجد في مجالس البطّالين: ((**أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليّتني**)) البطّالون أناس يفتقدون الهدفية في حياتهم، فتراهم فارغي الفكر والروح يعيشون على هامش الحياة لا يدرون كيف يقضون أعمارهم، وقد أحسن أحد الكتّاب حين سماهم (فئة المتسكعين) قال: ((وهذه الفئة من لصوص الوقت يرغبون في قتل الوقت؛ ذلك أنهم لا يجدون شيئاً يضيّعون فيه الوقت إلا الزيارات والجلوس إلى الآخرين يتحدثون عن هذا،وذلك من خلق الله. إنهم يتسكعون ولكن تسكعهم لا يكون وحدهم، بل يرغبون في التسكع مع غيرهم فهم يجرون الآخرين إلى طريق التسكع،فإذا ما تململ من يُضيّعون وقته، فإنه يجد منهم وسائل التجريح المتباينّة، فهم تارة يتهمونه بالكبرياء الفارغة، وتارة يتهمونه بالبخل وافتقاد روح الشرقيين المعطاءة،وتارة ثالثة يصفونه بأنه شخص غير اجتماعي، وإنه لا يجيد الجلوس إليهم أو الخوض في الأحاديث الشائقة معهم))[(٣)] .

إنّ الإسلام أكّد على ضرورة اختيار الجليس الصالح، ونهى عن مجالسة غيره إذا لم يرج إصلاحه، ولهذا ينبغي للمؤمن أن يحدد نوعية الشخص الذي يريد أن يجالسه، ومدى فائدة هذه المجالسة، وما نوعيّة الأحاديث التي تطرح فيها. فإذا حدد الإنسان هذه الأمور فحينئذ تصبح تلك المجالس ذات هدف ثمين، ونتاج

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٦.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٦٤/٧٨.

(٣) يوسف ميخائيل، الشخصية الناجحة: ٢٤٢.

قيم، شريطة أن يكون الهدف منها نيل رضا الله تبارك وتعالى،ولهذا نجد في آثار الحكماء توجيه عظيم، روي عن لقمان أنه قال لابنه: ((**يا بني اختر المجالس على عينيك، فإن رأيت قوماً يذكرون الله عز وجل فاجلس معهم،فإنّك إن تك عالماً ينفعك علمك ويزيدوك علماً، وإن كنت جاهلاً علّموك، ولعل الله أن يظلّهم برحمة فتعمّك، وإذا رأيت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإنك إن تك عالماً لا ينفعك علمك وإن تك جاهلاً يزيدوك جهلاً ، ولعل الله أن يظلهم بعقوبة فتعمّك معهم**))[1] .

وذكرُ الله هنا كل عمل يرضاه الله، ويحبه فهو ذكر بالمعنى الأعم لا بالمعنى الأخص... وكأن الحديث يشير إلى أن من تجالسهم إما هم أكثر منك علماً فتنتفع منهم، وإما اقل منك فتفيض عليهم، وإما مساوين لك فتحاورهم،وبهذا تكون المجالسة عملية تنمية وتعميق ثقافي، وأما مجالسة البطّالين الذين لا يأخذون ولا يعطون، فإنها ضياع للوقت، وخسارة للعمر، مع ما يصاحبها من آثام وذنوب ؛ ولذا قال بعض الصادقين: ((**الجلساء ثلاثة جليس تستفيد منه فالزمه ، وجليس تفيده فأكرمه، وجليس لا تفيد ولا تستفيد فاهرب عنه**))[2] لأن مجالسته ضياع في ضياع، والمجالس يجب أن تكون مدارس تُجلى فيها القلوب، وتُزكى فيها النفوس تلك المجالس محافل الذكر الإلهي التي تدور الأحاديث فيها؛ لرفع كلمة الله تعالى بإحياء دينه، يقول الإمام الرضا عليه السلام: ((**من جلس مجلساً يحيى فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب**))[3]، وحتى مجالسة العلماء ليس كل عالم تجوز مجالسته،

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٠١/١.

(٢) المصدر نفسه : ٢٠٣/١.

(٣) المصدر نفسه :١/ ١٩٩.

وإنما العالم الذي يُذكِّر بالله تعالى مجلسُه ومحضره ((**ويستفاد منه علم الدين والدنيا**))[١] .

٩- عدم تفريغ القلب لله تعالى: ((**أو لعلك لم تحب أن تسمع دعائي فباعدتني**)) قد يشتغل الإنسان بالدعاء ، ولكن قلبه منصرف إلى غير الله تعالى فهذا الداعي لا يُقبل دعاؤه، ولا يُرفع منه شيء؛ لأنه لقلقة لسان فارغة، والدعاء ما لم يكن صادراً عن قلب طاهر زكيٍّ فارغ من غير الله لا يمكن أن يُقبل عند الله تعالى، إلا إن المصيبة الكبرى هنا أن هذا الدعاء لا يكن عبثاً فقط،بل قد يبعد الإنسان عن الله تعالى؛ ولهذا ينبغي للمرء إذا دعى الله تعالى أن يتوجه بإخلاص وتفرغ، وتجرد عن سوى الله تعالى بحيث لا يرى مؤثراً في الوجود إلا الله...

١٠- ارتكاب الذنوب: ((**أو لعلك بجرمي وجريرتي كافيتني**)) إن أكثر ما يبعد الإنسان عن الله تعالى هو ارتكاب الذنوب؛ لأنها تترك أثراً وحجاباً على صفحات القلب تحجبه عن قبول النور ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢] إن الذنوب قيود تقيد روح الإنسان عن السياحة في رحاب الله تعالى، وتوقف حركته إلى الله، وتلبد على قلبه الأقذار والأدران، فتنقلب عنده المقاييس، وينتكس، يقول أبو عبد الله الصادق عليه السلام: ((**ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، إن القلب ليواقع الخطيئة، فما تزال به حتى تغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله**))[٣] .

١١- قلة الحياء من الله تعالى: ((**أو لعلك بقلة حيائي منك جازيتني**))، إن المؤمن يعتقد أنه بعين الله تعالى، ولا تفارقه بحال، والله تعالى معه أينما كان، وفي

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار:١/ ١٩٧.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢٦٨/٢.

أي حال كان، هذا الإحساس بالرقابة، والشعور بالمعيّة الإلهية يجعله شديد الحياء من الله تعالى... فإذا ضعف هذا الشعور تضعف حالة الحياء،وحينئذ تضعف بالمقابل روحية الإنسان، ويجف وجدانه...

ولابد أن نشير بشكل موجز إلى معنى الحياء وأهميته في حياة الإنسان الروحية...

قال المحدث المجلسي: ((الحياء ملكة في النفس توجب انقباضها عن القبيح وانزجارها عن خلاف الآداب خوفاً من اللوم))[١] وقيل: ((الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم))[٢] فالحياء سمة كريمة من سمات النفس الزكية بل من أعلاها درجة؛ لأنه قرين الإيمان، ولا ينفك عنه بحال. إذا رحل أحدهما من النفس رحل الآخر معه. ورد في الحديث الشريف: ((**الحياء والإيمان مقرونان في قرن فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه**))[٣].

وفي حديث آخر: ((**لا إيمان لمن لا حياء له**))[٤] وهو خير دليل على حياة الضمير، ونقاء الفطرة، وزكاة النفس، وسلامة القلب... إنك إذا رأيت شخصاً وقحاً لا يبالي بما يقول، وما يقال فيه، لا يمنعه وازع عن ارتكاب الذنوب، والتخلق بذمائم الأخلاق فاعلم أنه ميت الضمير، ملوث النفس، بليد الشعور، فلا ترجو منه خيراً؛ لأنه قد سلبت منه أسمى أخلاق دين الله وهو الحياء. قال أبو عبد الله عليه السلام: ((**لا حياء لمن لا إيمان له**))[٥].

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧١/٣٢٩.

(٢) الشيخ الطريحي، مجمع البحرين: ١/١١٣.

(٣) المصدر نفسه:٣٣١.

(٤) بحار الانوار : ٧١/٣١١.

(٥) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٢/١٠٦.

وأعظم الحياء هو الحياء من الله تعالى؛ لان هذه الصفة تملك على الإنسان كل كيانه ووجوده في جوارحه وجوانحه، فهو أمر خلقي معنوي يربي الإنسان على طاعة الله تعالى، فعن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: استحيوا من الله حق الحياء، قالوا: وما نفعل يا رسول الله؟ قال: فان كنتم فاعلين فلا يبيتن أحدكم إلا وأجله بين عينيه، وليحفظ الرأس، وما حوى والبطن، وما وعى، وليذكر القبر والبلا، ومن أراد الآخرة فليدع زينة الحياة الدُّنيا**))[1].

وقيل للنبي صلى الله عليه وآله: أوصني قال: ((**استحِ من الله كما تستحي من الرجل الصالح من قومك**))[2].

ثم إن الحياء أقسام خمس: روي عن الإمام الصادق عليه السلام: ((**الحياء خمسة أنواع: حياء ذنب، وحياء تقصير، وحياء كرامة، وحياء حب، وحياء هيبة، ولكل واحد من ذلك أهل، ولأهله مرتبة على حده**))[3].

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٧١/٣٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٣٦.

(٣) مصباح الشريعة.

٤

الزيارة
تعهد والتزام ودعاء
في مشاهد المطهرين

((إن لكلٍّ إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد، وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم، وتصديقاً بما رغبوا فيه، كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة))[1].

((الإمام الرضا عليه السلام))

مشروعية الزيارة :

لقد تواترت الأحاديث والروايات في استحباب زيارة قبور الرسل والأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام لاسيما قبر خاتم الرسل صلى الله عليه وآله، وقبور آله الطاهرين، وثبت بالطرق الصحيحة أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان يزور البقيع، وشهداء أُحُد، وعلى هداه سار أهل بيته عليهم السلام وأصحابه المخلصين، بل يكاد هذا الأمر أن يكون مجمعاً عليه عند جميع المسلمين، ولم يشذ عن ذلك إلا ابن تيمية، ومن سار على نهج الوهابية، فقد روى ابن سعد في الطبقات بسنده إلى بن أبي مليكة قال: ((رحت من منزلي، وأنا أريد منزل عائشة فتلقتني على حمار فسألت بعض من كان معها قال: زارت

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الفروع من الكافي: ٥٦٧/٤، كامل الزيارات: ٢٣٧، وعلل الشرايع:٤٥٩/٢، عيون أخبار الرضا: ٢٩٢/١، من لا يحضره الفقيه:٥٧٧/٢، تهذيب الأحكام: ٧٩/٦.

قبر أخيها عبد الرحمن))[1].

وعلق شيخ الإسلام تقي الدين السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٥٦هـ على الرواية، فقال: ((ومقصودنا أن زيارة ما عدا قبر النبي مما يثاب الشخص على فعله وقد يتأكد بحسب بعض الأحوال فزيارة القريب آكد من غيره، وتَطَلب لمعنى فيه مختص به؛ وهو القرابة، وزيارة غير القريب أيضاً مستحبة؛ للاعتبار، والترحم والدعاء؛ وذلك في كل المسلمين))[2].

ثم قال: ((وإذا زار قبراً معيّناً، يكون مؤدياً للسنة بما تضمنه من زيارة جنس القبور، ولا نقول: إن زيارة ذلك القبر المعيَّن بخصوصه سُنَّة، حتى يرد فيها فضل خاص، أو نعرف صلاحه فإن زيارة جميع الصالحين قربة كما يقولون: إن الصلاة في المسجد مطلوبة، ولا نقول الصلاة في مسجد بعينه مطلوبة، إلا في الثلاثة التي شهد الشرع بها، ويقوم ما هو الأفضل منها كالمسجد الحرام عن غيره))[3].

وقد جاء في استحباب زيارة القبور أحاديث كثيرة عن طريق أهل السنة فضلاً عما ورد في كتب الشيعة، ونحن نذكر بعضاً من تلك الأحاديث على ما جاء في كتب أهل السنة لإبطال مبتدعات الوهابية الضالة الذين كَفَّروا من يزور القبور ورموا كل من يزور قبر رسول الله صلى الله عليه وآله بالشرك فضلاً عمن يزور القبور الأخرى: فعن عائشة أنها قالت: ((كلما كان ليلتها من رسول الله صلى الله عليه وآله يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: **السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**))[4].

---

(١) شيخ الإسلام تقي الدين السبكي المصري الشافعي: شفاء السقام في زيارة خير الأنام:١٩٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٩٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) النووي، شرح صحيح مسلم: ٤١/٧، ط/دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٧م و١٤٠٧هـ

وقال النووي: ((ويستحب للرجال زيارة القبور لما روى أبو هريرة قال: زار رسول الله ﷺ قبر أمه فبكى، وأبكى مَن حوله...، ثم قال: **فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت، والمستحب أن يقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين ،وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**، ويدعو لهم لما روت عائشة: أن النبي ﷺ كان يخرج إلى البقيع فيقول: **السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد**))(١) .

ومن حديث طويل عن عائشة أيضاً، قالت: قال ﷺ: ((**فإن جبريل آتاني حين رأيتِ فناداني، فأخفاه منك، فأجبته، فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك**... فقال: **إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم** ...))(٢) .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((**زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**))(٣) .

وعن عائشة: ((**إن رسول الله ﷺ رخص في زيارة القبور**))(٤) .

وفي حديث آخر: ((**إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها تذكركم الآخرة**))(٥) .

وعن ثوبان: إن رسول الله ﷺ قال: ((**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، واجعلوا زيارتكم لها صلاة عليهم، واستغفاراً لهم**))(٦) .

---

(١) محيي الدين النووي، المجموع: ٣٠٩/٥.

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم: ٤٤.

(٣) سنن ابن ماجة: ٥٠٠/١، باب ما جاء في زيارة أهل القبور.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الهيثمي، مجمع الزوائد: ٥٨/٣.

(٦) المصدر نفسه: ٥٩.

وهذا غيض من فيض من الأحاديث الواردة في هذا الباب إضافة إلى ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، ويؤكد المؤرخون والمحدثون: أن فاطمة الزهراء عليها السلام كانت تزور قبر عمها حمزة ترمه، وتصلحه وقد تَعْلَمَنَهُ بحجر[1] فقد روي الحاكم عن علي عليه السلام: أن «**فاطمة كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة فتصلي عنده وتبكي**»[2].

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: أن «**فاطمة عليها السلام كانت تزور قبور الشهداء بين اليومين والثلاثة فتصلي هناك، وتدعو وتبكي حتى ماتت**»[3].

إذن كل هذه الأحاديث، والسيرة العملية لرسول الله صلى الله عليه وآله تدل دلالة واضحة أن زيارة القبور بصورة عامة عمل مستحب ومشروع، ولا غبار عليه، خلافاً لما أفتى به ابن تيمية الذي خالف جميع المسلمين.

وقد أورد السبكي خمسة عشر حديثاً استدل بها على مشروعية زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وآله وأبطل بها مبتدعات ابن تيمية بعد أن حقق أسانيدها، ونحن نذكر هذه الأحاديث ففيها الكفاية في دحض مفتريات ابن تيمية، قال صلى الله عليه وآله:

«**من زار قبري وجبت له شفاعتي**»[4].

«**من زار قبري حلت له شفاعتي**»[5].

«**من جاءني زائراً لا يعمله حاجة إلا زيارتي كان حقاً عليّ أن أكون له**

---

(١) ابن أبي شيبة، وفاء الوفا: ١١٢/٢.

(٢) د.محمد بيومي مهران، السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام: ١٣٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) رواه الدارقطني والبيهقي وغيرهما، راجع تحقيق السند في شفاء السقام: ٦٥-٦٦.

(٥) رواه الإمام أبو بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق البزاز في مسنده، راجع شفاء السقام: ٨١.

شفيعاً يوم القيامة))[١] .

((من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي))[٢] .

((من حج البيت، ولم يزرني فقد جفاني))[٣] .

((من زار قبري)) أو**((من زارني))**، **((كنت شفيعاً له))** أو **((شهيداً))**[٤] .

((من زارني متعمداً كان في جواري يوم القيامة))[٥] .

((من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي))[٦] .

((من حج حجة الإسلام، وزار قبري، وغزا غزوة وصلّى عليَّ في بيت المقدس، لم يسأله الله عز وجلّ فيما افترض عليه))[٧] .

((من زارني بعد موتي فكأنّما زارني وأنا حي))[٨] .

((من زارني في المدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً)) وفي رواية: **((من زارني محتسباً إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة))**[٩] .

((ما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر)) وعن أنس: **((من زارني ميتاً فكأنّما زارني حياً، ومن زار قبري وجبت له شفاعتي يوم**

---

(١) رواه الدار قطني في أماليه والطبراني في معجمه الكبير: ٢٩١/١٢، ١٣١٤٩.

(٢) رواه الدار قطني في سننه ورواه غيره أيضاً.

(٣) رواه ابن عدي في الكامل: ٢٤٨٠/٧.

(٤) رواه أبو داود الطّيالیسي: ١٢/١، وانظر منحة المعبود: ٢٢٨/١.

(٥) رواه أبو جعفر العقيلي: ٣٦١/٤، ١٩٧٣.

(٦) في تلخيص الحبير: ٤١٥/٧، ورواه الدار قطني، وفي طريق آخر بلفظ (وفاتي) بدل (موتي).

(٧) رواه الحافظ أبو الفتوح اليعقوبي في الجزء الثاني من فوائده.

(٨) رواه أبو الفتوح سعيد بن محمّد بن إسماعيل اليعقوبي في جزء له فيه فوائد.

(٩) تفصيل سند الحديث في شفاء السقام:١١٠-١١٢.

القيامة ، وما من أحد من أمتي له سعة، ثم لم يزرني فليس له عذر))[١] .

((**من زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيداً**)) أو قال: ((**شفيعاً**))[٢] .

((**من لم يزر قبري فقد جفاني**))[٣] .

((**من أتى المدينة زائراً لي، وجبت له شفاعتي يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين بُعث آمناً**))[٤] .

هذه الأحاديث قد رواها السبكي في شفاء السقام، وحققها سنداً، واستدل بها متناً على مشروعية زيارة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وقد رويت معظم هذه الأحاديث عن طرق أهل البيت عليهم السلام مع اختلاف طفيف في متونها، ونذكر بعضها تأييداً وتيمناً بها:فعن هارون عن ابن صدقة،عن الصادق أن النبي صلى الله عليه وآله قال: ((**من زارني حياً وميتاً كنت له شفيعاً يوم القيامة**))[٥] .

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أتى مكة حاجاً، ولم يزرني إلى المدينة جفوته يوم القيامة، ومن جاءني زائراً وجبت له شفاعتي، ومن وجبت له شفاعتي، وجبت له الجنة**))[٦] .

---

(١) تفصيل سند الحديث في شفاء السقام: ١١٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ١١٤.

(٤) لاحظ وفاء الوفى للسمهودي: ١٣٤٨/٤، والدرة الثمينة: ٣٩٧، ورفع المنارة للممدوح المحمود: ٣٢٧-٣٢٩.

(٥) المحدث المجلسي بحار الانوار: ١٣٩/١٠٠.

(٦) المصدر نفسه : ١٣٠/١٠٠.

وقال رسول الله ﷺ: **((من أتاني زائراً كنت شفيعه يوم القيامة))**[١].

وعنه ﷺ: **((من زارني في حياتي، وبعد موتي كان في جواري يوم القيامة))**[٢].

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: **((قال رسول الله ﷺ: من زارني بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي، وكنت له شهيداً وشافعاً يوم القيامة))**[٣].

والأحاديث في ذلك متواترة، وقد ذكر صاحب البحار سبعاً وثلاثين حديثاً إضافة إلى أحاديث أخرى فيما يجب أن يعمل في مسجد الرسول ﷺ وبيان ثوابه وإعطاءه بعداً تربوياً وفكرياً وروحياً وأخلاقياً.

حكمة زيارة القبور:

لم تكن زيارة القبور مجرد تسلية للنفس، أو قضاء للوقت، وإنما هي عملية تربوية يتذكر فيها الإنسان الذين عايشهم، وكانوا معه يأكلون، ويشربون، ويعملون و... والآن هم تحت الجنادل تأكل لحومهم ديدان الأرض، وبهذا التفكير يعمق الإنسان إيمانه بيوم الدين، ويركز الخوف من الله في نفسه، ويلقنها دروساً تربوية رائعة، ويوحي لها بالفناء والرحيل عن هذه الدنيا، فيا له من درس عميق الدلالة! هذا ما كان رسول الله ﷺ يفعله فتراه يخرج آخر الليل إلى البقيع، ويقول: **((السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وآتاكم ما توعدون غداً، مؤجلون وإنا إن شاء**

---

(١) المحدث المجلسي بحار الانوار: ١٠٠/ ١٤٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٤٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٤٣.

الله بكم لاحقون))[١] .

وهكذا كان أولياء الله يحاسبون أنفسهم، ويلقنّونها الدروس والعبر، يقول الزهري: ((سمعت علي بن الحسين سيد العابدين عليه السلام يحاسب نفسه، ويناجي ربه ويقول: **يا نفس حتّام إلى الدنيا غرورك؟ وإلى عمارتها ركونك؟ أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك ، ومن وارته الأرض من ألافك؟ ومن فجعت به من إخوانك، ونقل إلى البلى من أقرانك؟** .

[من الطويل]

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها ... محاسنهم فيها بوال دواثر
خلت دورهم منهم وأقوت عراصهم ... وساقتهم نحو المنايا المقادر
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها ... وضمتهم تحت التراب الحفائر

كم تخرمت أيدي المنون من قرون بعد قرون؟ وكم غيّرت الأرض ببلاها؟ وغيّبت في ثراها ممن عاشرت من صنوف الناس وشيعتيهم على الأرماس؟ .

وأنت على الدنيا مكب منافس ... لخطّائها فيها حريص مكاثر
على خطر تمسي وتصبح لاهياً ... أتدري بما لو عقلت تخاطر
وإن امرءاً يسعى لدنياه دائباً ... ويذهل عن أخراه لاشك خاسر))[٢]

هذا جزء من رواية طويلة للإمام زين العابدين عليه السلام رواها بن عساكر في تاريخه تعبر عن طريقة تربوية إيجابية للنفس، لتحد من طموحها الدنيوي، وطول

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم: ٧/ ٤٤.

(٢) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق: ١٧/٢٤٩-٢٥٣.

أملها إذن لم تكن زيارة القبور عملية عبثية، ولا المقصود منها عبادة الموتى كما صورتها الوهابية الضالة.

والحكمة الأخرى لزيارة القبور هي: التواصل الإنساني مع الميت، وفاءاً لبعض حقوقه حيث انقطعت علاقته بالدنيا فينبغي لمحبيه وعارفيه الدعاء والترحم والاستغفار له كما ثبت عن رسول الله ﷺ في زيارته لأهل البقيع قال السبكي: ((**وهذا مستحب في حق كل ميت**))[١].

فقد روى بن عباس قال: ((قال رسول الله ﷺ: **ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه وردّ عليه السلام**))[٢].

كما أن الزيارة لقبر الميت رحمة له، ورقّة وتأنيساً له، فقد روي عن النبي ﷺ انه قال: ((**آنس ما يكون الميت في قبره إذا زاره من كان يحبّه في دار الدنيا**))[٣].

ومن حكمة الزيارة للقبور لاسيما الأنبياء والمرسلون وأوصياؤهم استلهام الدروس والعبر من حياتهم الشريفة، يقول تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤].

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٥].

---

(١) السبكي، شفاء السقام في زيارة خير الأنام: ١٩١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) هود: ١٢٠.

(٥) يوسف: ١١١.

فالإنسان المؤمن الواعي الكادح إلى الله عندما يقف أمام قبور العظماء يستعيد في ذهنه سيرة هذا العظيم، ويستلهم من حياته الصبر على مواصلة السير والسلوك إلى الله، ولعل أهم ما في زيارة القبور هو هذا الدرس العظيم حيث يقتدي بهم ويتأسى بسيرتهم، وبهذا أمرنا الله تعالى بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ ... لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[(١)].

وقال لنبيه صلى الله عليه وآله بعد أن ذكر عدداً من الأنبياء والمرسلين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[(٢)].

ولا شك أن المؤمن عندما يقف على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله أو قبر أي نبي، أو وصي نبي يستحضر تعاليمه وهداه، وهذا أكثر تأثيراً في النفس مما لو كان تصوراً مجرداً بعيداً عنه فالاستغفار عند أضرحتهم، والدعاء فيها، يولد الرقة، ويفيض الدمعة،ويرسّخ العِبرة،وما أجمل ما استدل به السبكي على شرعية زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وآله من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[(٣)].

يقول: ((دلت الآية على الحث على المجيء إلى الرسول صلى الله عليه وآله والاستغفار عنده واستغفاره لهم، وذلك وإن كان ورد في حال الحياة، فهي رتبة له صلى الله عليه وآله لا تنقطع بموته تعظيماً له.

---

(١) الممتحنة: ٤-٦.

(٢) الأنعام: ٩٠.

(٣) النساء: ٦٤.

فان قلت: المجيء إليه في حال الحياة؛ ليستغفر لهم، وبعد الموت ليس كذلك؟ .

قلت: دلت الآية على تعليق وجدانهم الله تعالى توّاباً رحيماً بثلاثة أمور: المجيء، واستغفارهم، واستغفار الرسول.

فأما استغفار الرسول: فإنه حاصل لجميع المؤمنين؛ لأن رسول الله ﷺ استغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[1].

ولهذا قال عاصم بن سليمان - وهو تابعي - لعبد الله بن سرجس الصحابي: استغفر لك رسول الله ﷺ؟ .

فقال: نعم، ولك، ثم تلا هذه الآية. رواه مسلم))[2] .

فقد ثبت أحد الأمور الثلاثة؛ وهو استغفار رسول الله ﷺ لكل مؤمن ومؤمنة فإذا وجد مجيئهم واستغفارهم تكمّلت الأمور الثلاثة الموجبة لتوبة الله ورحمته... فقد ثبت على كل تقدير أن الأمور الثلاثة المذكورة في الآية حاصلة لمن يجيء إليه ﷺ مستغفراً في حياته، وبعد مماته.[3]

وتواصل الحث والتأكيد حتى أصبحت الزيارات شعاراً من شعارات الشيعة ووسيلة يتقربون بها إلى الله تعالى فلم تكن الزيارة للتسلية والترفيه، وليست عملاً دنيوياً بل هي عبادة روحية وبدنية يراد بها التقرب إلى الله تعالى بتكريم عباده

---

(١) محمد: ١٩.

(٢) صحيح مسلم: ٨٦/٧، كتاب الفضائل، باب إثبات خاتم النبوة، وفي طبعة (١٨٢٣/٤) وانظر الشمائل للترمذي: ٢٢.

(٣) السبكي، شفاء السقام في زيارة خير الأنام الطبعة الرابعة عام ١٤١٩هـ: ١٨١-١٨٢.

الصالحين كما أنها لم تكن مجرد تكريم لإنسان ميت، وإنما هي عمل عبادي خالص لله تبارك وتعالى ذات أبعاد تربوية، وعقائدية، وفكرية تبني شخصية الزائر، وتشده إلى مسيرة المزور وعقيدته.

فوائد رسالية اجتماعية:

من كل ما تقدم يمكننا أن نذكر بعض فوائد الزيارة وهي:

١- تجديد الصلة بالإسلام من خلال الإقرار بعهود يلزم الإنسان بها نفسه أمام روح المزور الذي يعتقد قدسيته، ورد في مقطع من زيارة أئمة أهل البيت عليهم السلام ((**وأشهد الله تبارك وتعالى - وكفى بالله شهيداً- أني بكم مؤمن، ولكم تابع في ذات نفسي، وشرائع ديني، وخواتيم عملي، ومنقلبي ومثواي**)).

ونحن نرى في هذا إقرار وتعهد بالالتزام أمام الله تعالى، والإيمان والاتباع والسير على نهج الأئمة الطاهرين، فالزيارة تعهد، والتزام، بل إلزام الزائر لنفسه بأمور يفرضها عليها، ويلقنها بها، ويوحي لها بوجوب الالتزام بأوامر الله والانتهاء عن نواهيه.

٢- الزيارة تأكيد للميثاق الإلهي، والتعهد في التمسك والحفاظ على دينه والسير على نهجه، ورد في مقطع من الزيارة: ((**اللهم اجعلني في مقامي هذا ممن تناله منك صلوات ورحمة ومغفرة، اللهم اجعل محياي محيا محمد وآل محمد ومماتي ممات محمد وآل محمد**))... ((**اللهم إني أشهدك بالولاية لمن واليتَ، ووالته رسلك وأشهد بالبراءة ممن برئتَ منه، وبرئتْ منه رسلك**))

وهنا دلالة أخرى على أن الزيارة عقد وميثاق مع الله تبارك وتعالى بالولاية لأوليائه، والبراءة من أعدائه، والولاية لأولياء الله تعالى، والبراءة من أعداء الله

عصب الحياة الرسالية، وقطب رحى التوحيد ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[1].

٣- تحولت الزيارة وفق توجيهات الأئمة الطاهرين عليهم السلام وتأكيداتهم على شيعتهم بالتحلي بأخلاقهم، والحضور عند أضرحتهم، وتلاوة نصوص الزيارات التي أنشؤوها هم إلى محطات هداية روحية، وسياسية، واجتماعية تبث الوعي الفكري، والبناء الروحي، وهذه المحطات مفتوحة الأبواب على طيلة أيام السنة تغذي الزائرين بالعزم، والإرادة، والبصيرة النيرة.

٤- إن الزيارة تسلط الأضواء على الجهود التي بذلها المزور على مختلف الأصعدة، وبيان لعظمة الرسالة التي ضحى من أجلها، ودعوة صريحة للالتزام بما التزم به، ودعوة إلى ما دعى إليه سواء كان في العبادات، أو المعاملات، أو الأخلاق ولهذا تكرر المقطع التالي في مختلف الزيارات: ((**أشهد أنك أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر ، وجاهدت في الله حق جهاده**)) .

وفي زيارة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ((**وأشهد أنك قد بلغت عن الله ما حملك، وحفظت ما استودعك، وحلّلت حلال الله، وحرّمت حرام الله، وأقمت أحكام الله، وتلوت كتاب الله، وصبرت على الأذى في جنب الله، وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين، وأشهد أنك مضيت على ما مضى عليه آباؤك الطاهرون، وأجدادك الطيبون الأوصياء الهادون المهديون لم تؤثر عمى على هدى ولم تمل من حق إلى باطل، واشهد أنك نصحت لله ولرسوله ولأمير المؤمنين، وانك أديت الأمانة، واجتنبت الخيانة، وأقمت الصلاة، وآتيت الزكاة**

---

(١) التوبة: ٧١.

وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وعبدت الله مخلصاً مجتهداً محتسباً حتى أتاك اليقين فجزاك الله عن الإسلام وأهله أفضل الجزاء، وأشرف الجزاء)).

وفي هذا النص شهادات ثلاث سلط فيها الضوء في كل واحدة منها على جهود الإمام التي بذلها، لتبليغ أحكام الله، وحفظ رسالته تعالى من خلال التأكيد على عقائد الإسلام، وأحكامه وأخلاقه في موقف تنتاب الإنسان فيه الرقة والخشوع، والضراعة، والتوسل بالله تعالى، وفي مثل هذه المواقف لابد أن تترسخ تلك المفاهيم في النفس، وتتحول إلى قوة تحد بوجه أعداء الله تعالى.

كما نلاحظ أن النص لم يسلط الضوء على شخص الإمام ذاته، إنما سلطه على شخصية الإمام الرسالية من خلال بيان جهود الإمام في تبليغ رسالة الله وحفظها من يد المحرفين، وإقامة أحكام الله، وتلاوة كتابه، والصبر على الأذى في سبيله، والجهاد في الله حق جهاده، والاستمرار على نهج الهدى الذي سلكه آباؤه الطاهرون، والتضحية لله، وأداء الأمانة، واجتناب الخيانة، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإخلاص في عبادة الله... وهكذا تكون الزيارة إبرازا وإظهارا لما دعى إليه الإسلام من عقائد وأحكام، وأخلاق.

٥- ثم إن الزيارة تربط الإنسان بالمزور،ومن خلاله تُوصله بخط الأنبياء،والمرسلين، وتشعره بأنه حلقة في سلسلة رتل الأنبياء والمرسلين، فهي عملية تواصل شعوري ووجداني بمسيرة الأنبياء والمرسلين والأئمة الأطهار عليهم السلام.

((وبذلك يقرر الحقيقة... حقيقة الأصل الواحد، والنشأة الضاربة في أصول الزمان. ويضيف إليها لمحة لطيفة الوقع في حس المؤمن. وهو ينظر إلى سلفه في الطريق الممتدة من بعيد فإذا هم على التتابع هؤلاء الكرام: نوح، إبراهيم موسى عيسى، محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- ويستشعر أنه امتداد لهؤلاء

الكرام، وأنه على دربهم يسير. إنه سيستروح السير في الطريق، مهما يجد فيه من شوك ونصب، وحرمان من أعراض كثيرة.وهو برفقة هذا الموكب الكريم على الله. الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ))[(١)] .

وهذه الحقيقة نجدها ناصعة في الزيارة المعروفة بزيارة وارث للإمام الحسين عليه السلام ((**السلام عليك يا وارث علم الأنبياء ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث إسماعيل ذبيح الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله ...الخ**)) .

وهكذا تكون الزيارة عملية تواصل شعوري ووجداني برسالة الله على طول خط التاريخ في مسيرة رسل الله تعالى، ونصبهم شعورياً رموزاً، ونماذج للاقتداء، والاحتذاء،والتأسي بهم في المجالات كافة، وهذا معنى أكد عليه القرآن الكريم في عملية توجيه الرسول صلى الله عليه وآله وإعداده، ومن هنا وردت الكثير من الآيات لحثه صلى الله عليه وآله على الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وعلى ذكرهم وتمثلهم الذهني من أجل الاقتداء بهم عملياً من قبيل قوله تعالى:

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[(٢)] .

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾[(٣)] .

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۝ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٧/ ٢٧٤.

(٢) ص: ١٧.

(٣) ص: ٤١.

﴿ذِكْرَى الدَّارِ ۞ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ۞ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ۞ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾[(١)].

٦- إن الزيارة -لا سيما زيارة الحسين عليه السلام- تشتمل على إدانة صريحة لكل الطغاة والمنحرفين عن خط الإسلام في كل زمان ومكان، وهذا المعنى واضح صريح في نصوص الزيارات الواردة عنهم عليهم السلام، والتي يبرز فيها عنصر التولي لأولياء الله والتبري من أعداء الله بشكل جلي صريح ففي زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله من قرب يقول الزائر بعد السلام على النبي صلى الله عليه وآله: ((**يا رسول الله إني أتقرب إلى الله بما يرضيك وأبرء إلى الله مما يسخطك، أنا موال لأوليائك، ومعاد لأعدائك**))[(٢)]

وفي زيارة الزهراء سيدة نساء العالمين صلوات الله عليها، وعلى أبيها، وبعلها، وبنيها، يقول الزائر: ((**السلام عَلَيْكِ يا بنت نبي الله... أُشهد الله ورسله وملائكته أنّي راض عمّن رضيت عنه، وساخط عمّن سخطت عليه، متبرّئ ممن تبرأت منه، موال لمن واليت، معاد لمن عاديت، مبغض لمن أبغضت، محب لمن أحببت، وكفى بالله شهيداً، وحسيباً، وجازياً، ومثيباً...**))[(٣)].

وفي زيارة أئمة البقيع عليهم السلام ينبغي للزائر أن يقول: ((**وأنا أُشهد الله خالقي وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسله، وأشهدكم أني مؤمن بكم، مقر بفضلكم معتقد لإمامتكم، مؤمن بعصمتكم، خاضع لولايتكم، متقرب إلى الله سبحانه بحبكم وبالبراءة من أعدائكم**))[(٤)].

---

(١) ص: ٤٥-٤٩.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٧١/١٠٠.

(٣) المصدر نفسه:١٩٥، ومفاتيح الجنان: ٣١٨.

(٤) المصدر نفسه: ٢٠٨.

وفي زيارة أمير المؤمنين عليه السلام يقول الزائر: ((**يا مولاي... أتيتك زائراً معترفاً بحقك، موالياً لمن واليت، عدواً لمن عاديت، سلماً لمن سالمك، حرباً لمن حاربك متقرِّباً بمحبّتك، وولايتك إلى الله، والسلام عليك، وعلى ضجيعيك آدم ونوح ورحمة الله وبركاته**))(١) .

وفي زيارة الحسين عليه السلام ليلة القدر: ((**أشهد أن الذين خالفوك وحاربوك والذين خذلوك، والذين قتلوك، ملعونون على لسان النبي الأمي، وقد خاب من افترى، لعن الله الظالمين لكم من الأولين والآخرين، وضاعف عليهم العذاب الأليم، أتيتك يا مولاي يا بن رسول الله زائراً عارفاً بحقك، موالياً لأوليائك معادياً لأعدائك، مستبصراً بالهدى الذي أنت عليه، عارفاً بضلالة من خالفك ...**))(٢) .

والأكثر صراحة من ذلك ما ورد في زيارة عاشوراء والتي تمثل إدانة صريحة لكل قوى الطاغوت على طول خط التاريخ إلى يوم القيامة: ((**يا أبا عبد الله إني أتقرب إلى الله وإلى رسوله، وإلى أمير المؤمنين، وإلى فاطمة، وإلى الحسن وإليك بموالاتك، وبالبراءة ممن قاتلك، ونصب لك الحرب وبالبراءة ممن أسس أساس الظلم والجور عليكم، وأبرء إلى الله، وإلى رسوله ممن أسس أساس ذلك وبنى عليه بنيانه، وجرى في ظلمه وجوره عليكم، وعلى أشياعكم، برئت إلى الله وإليكم منهم، وأتقرب إلى الله، ثم إليكم بموالاتكم وموالاة وليكم، وبالبراءة من أعدائكم والناصبين لكم الحرب، وبالبراءة من أشياعهم واتباعهم. إني سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم، وولي لمن والاكم،**

---

(١) الشيخ عباس القمي، مفاتيح الجنان: ٣١٩.

(٢) المصدر نفسه: ٤٤٤.

وعدو لمن عاداكم))[1].

ومن خلال هذه النصوص الواضحة الصريحة يتضح لنا أن الزيارة تحريك ثوري ضد قوى الطاغوت، وتحشيد لكل قوى الإيمان؛ لتقف سداً منيعاً في وجه امتداد قوى الكفر والشرك والنفاق وهكذا ((كانت الزيارات يوماً في عهد الأئمة عليهم السلام مواصلة للثورة التي قام بها الإمام الحسين عليه السلام أو القضية التي حملها آباؤه وأبناؤه الطاهرون... وإصراراً على الاستمرار على النهج، وعلى الولاء للحق كانت (الزيارات) بيعاً وشراءً للأنفس والأموال في سبيل الله تعالى، وكانت تظاهرة وتعظيماً لشعائر الله في الأرض، واستهداء بمصابيح الهدى الزاهرة في ليل الانحراف الداجي، والأيام الصعبة السوداء، فليس على هذا من عجب أن رأينا زيارة سيد الشهداء عليه السلام تفضل في النصوص على الكثير من الأعمال والمستحبات الخطيرة))[2].

بناء على هذا الفهم تكون زيارة أهل البيت عليهم السلام عملية إعداد روحي، وبناء فكري، وترابط اجتماعي، وتصعيد ثوري...؛ لتحد قوى الطاغوت، وبهذا نستطيع أن نفسر الحث المتواصل من قبل أئمة أهل البيت عليهم السلام لزيارة قبورهم وبالخصوص زيارة قبر الحسين عليه السلام واستنكارهم على شيعتهم إذا أحسوا منهم التقصير، أو التماهل عن زيارة الحسين عليه السلام، فعن سدير قال: ((قال لي أبو عبد الله: **يا سدير تزور قبر الحسين عليه السلام في كل يوم ؟** قلت: لا قال: **ما أجفاكم،** قال: **تزوره في كل جمعة؟** قلت: لا، قال: **تزوره في كل شهر؟** قلت: لا، قال: **فتزوره في كل سنة؟** قلت: قد يكون ذلك. قال: **يا سدير ما أجفاكم بالحسين عليه السلام أما علمت أن**

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٩٤/١٠١.

(٢) الشهيد الشيخ حسين معن، نظرات حول الإعداد الروحي: ٢٦٧.

لله ألف ملك شعثا غبراً يبكون ويرثون لا يفترون زواراً لقبر الحسين عليه السلام **، وثوابهم لمن زاره))**[١].

وعن أبان بن تغلب قال: ((قال لي جعفر بن محمد عليه السلام: **متى عهدك بقبر الحسين** عليه السلام؟ قلت: لا والله يا بن رسول الله ما لي به عهد منذ حين، قال: **سبحان ربي العظيم وبحمده، وأنت من رؤساء الشيعة تترك الحسين لا تزوره!! من زار الحسين كتب الله له بكل خطوة حسنة، ومحى عنه بكل خطوة سيئة، وغفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، يا أبان لقد قتل الحسين صلوات الله عليه، فهبط على قبره سبعون ألف ملك شعث غُبر يبكون عليه، وينوحون عليه إلى يوم القيامة))**[٢].

وعن محمد بن مسلم في حديث طويل فقال: ((قال لي أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام: **هل تأتي قبر الحسين** عليه السلام؟ قلت: نعم على خوف ووجل، فقال له: **ما كان من هذا أشد فالثواب فيه على قدر الخوف، ومن خاف في إتيانه آمن الله روعته يوم يقوم الناس لرب العالمين، وانصرف بالمغفرة، وسلمت عليه الملائكة، وزاره النبي** صلى الله عليه وآله**، ودعا له، وانقلب بنعمة من الله، وفضل لم يمسه سوء، واتبع رضوان الله))**[٣].

فلو لم يكن لزيارة الحسين عليه السلام تأثير بالغ في النفوس، وتغير للواقع النفسي والاجتماعي لما كان كل هذا التأكيد على زيارته.كما أننا من خلال ذلك نستطيع أن نفسر الموقف المتشدد من قبل حكومات الطاغوت على امتداد الزمن على زوار

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٠١/٦.

(٢) المصدر نفسه: ٧.

(٣) المصدر نفسه.

الحسين عليه السلام من قتل وسجن، وتشريد،وقطع الأيدي، وفرض الضرائب على من يزور الحسين عليه السلام، ولما لم ينفع كل ذلك هدموا قبر الحسين عليه السلام وأجروا عليه الماء بل حرثوا أرضه وزرعوها كما عمل هارون العباسي ((فقد أمر بهدم القبر المطهر وكرب موضعه، وقص شجرة السدر التي كانت بجوار القبر من جذورها، ومنع من إقامة المآتم والمناجاة سواء على القبر، أو في بيوت الشيعة.

وفي سنة ٢٣٦هـ أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي عليه السلام، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يبذر ويسقى موضع قبره، وان يمنع الناس من إتيانه فنادى [عامل صاحب الشرطة] بالناس في تلك الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه في المطبق ...))[1] .

وفي العصر الحديث تعرض قبر الحسين عليه السلام إلى هجمات الوهابيين، وحاولوا هدمه ففي سنة ١٢١٦هـ ((تعرضت كربلاء والحرم الحسيني لهجمة بربرية قامت بها الجماعة الوهابية بقيادة سعود بن عبد العزيز، الذي أستغل ذهاب معظم أهالي كربلاء إلى النجف الأشراف لزيارة ضريح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في يوم الغدير... فقد شقوا طريقهم إلى الأضرحة المقدسة وأخذوا يخربونها، فاقتلعت القُضب المعدنية والسياج ثم المرايا، ونهبت النفائس والحاجات الثمينة... والسجاد الفاخر والمعلقات الثمينة والأبواب المرصعة، وجميع ما وجد من هذا الضرب فسحبت إلى الخارج))[2] .

فعلوا كل هذه الفظائع بعد أن هدموا قبور الأئمة الأربعة في البقيع، وإلى اليوم فهو هدف لهجوم الظالمين كان آخرها رميه بالمدافع الثقيلة من قبل الأوباش

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: حوادث عام ٢٣٦هـ.

(٢) تحسين آل شبيب، مرقد الإمام الحسين عبر التأريخ: ١٦٦.

البعثيين سنة ١٩٩١ م.

كل هذا؛ لأن الزائر للحسين عليه السلام عن إيمان، ووعي مجرد أن يدخل ضريحه المطهر فإنه يستلهم منه التحرر الثوري، والحماس الرسالي، وتتعبأ نفسه بالرفض لكل الطواغيت، لأن الحسين عليه السلام ثورة في قبره يبعث في النفوس العزة، والإباء والثورة، والرفض لكل أشكال الطاغوت؛ ولهذا: ((نلاحظ من خلال بعض هذه النصوص أن من أهداف الأئمة عليهم السلام أن يخلقوا تياراً اجتماعياً لزيارة الإمام الحسين عليه السلام وكان هذا مرتبطاً بأهداف الثورة ونجاحها)) .

٧- تأكيد الشعور بالإئتمام والاقتداء: يقول الشهيد الشيخ حسين معن قدس سره: ((ونلاحظ أيضاً أن زيارة المشاهد ليست فقط محاولة لخلق جو إيماني... وإنما هي أيضاً استشعار لوجود القدوة... وتمثل معانيها الخيرة في الفكر، والروح والسلوك في العطاء والجهاد، تأكيداً للشعور بالإئتمام والاقتداء))(١) .

فالمؤمن عندما يزور الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أو أحد أهل بيته إنما يؤكد إيمانه بنهجه وإقتداءه بسيرته، وامتثاله لأمره، متقرباً بذلك لله تعالى، فقد ورد في مقطع من أحد زيارات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: ((**الحمد لله الذي وفقني للإيمان بك والتصديق بنبوتك، ومَنَّ عليَّ بطاعتك، واتباع ملتك، وجعلني من المحبين لدعوتك وهداني لمعرفتك، ومعرفة الأئمة من ذريتك**))(٢) .

وفي مقطع آخر من زيارة أخرى لرسول الله صلى الله عليه وآله: ((**السلام عليك يا حجة الله على الأولين والآخرين... تسليم عارف بحقك، معترف بالتقصير في قيامه بواجبك غير منكر ما انتهى إليه من فضلك، موقن بالمزيدات من ربك مؤمن**

---

(١) الشيخ حسين معن، نظرات حول الإعداد الروحي: ٢٦٨.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٧١/١٠٠.

بالكتاب المنزل عليه، محلل حلالك، محرم حرامك... بابي أنت وأمّي يا رسول الله زرتك عارفاً بحقك، مقراً بفضلك، مستبصراً بضلالة من خالفك وخالف أهل بيتك، عارفاً بالهدى الذي أنت عليه، بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي وولدي ومالي... الخ))(١) .

وبهذا تكون الزيارة تدعيم لإيمان الإنسان بالله تعالى، وتصعيد لحركته في كدحه إلى الله من خلال شعوره بالإئتمام، وإقتدائه بالرسول أو الإمام، وهذا هو أهم ما تُبنى به شخصية المؤمن.

٨- يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين قدس سره: ((**وقد نشأ بسبب هذه النصوص الخاصة بزيارة الحسين عليه السلام، أو تلك التي حث فيها الأئمة عليهم السلام على زيارة النبي صلى الله عليه وآله أو قبور الأئمة الآخرين، أو غيرهم من الصالحين والصالحات مناخ ثقافي اجتماعي شيعي بالنسبة إلى الزيارة بوجه عام، وزيارة الحسين عليه السلام بوجه خاص،كون تياراً بشرياً جارفاً يتعاظم باستمرار من جميع الأعمار والأوطان يزور في جميع الأوقات، وفي جميع الحالات))**(٢) .

متى تترك الزيارة أثرها في نفس الزائر؟

لا يمكن أن تترك الزيارة أثرها إلا إذا توفرت في المؤمن الزائر شروط عديدة نذكر أهمها:

١- الإيمان بدور المزور في قوة علاقته بالله عز وجلّ، وكونه من عباده الصالحين، أو من أوليائه المخلصين، أو أنبيائه المرسلين، فإذا كانت الزيارة عن

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٠٠/ ١٨٤.

(٢) محمد مهدي شمس الدين، ثورة الحسين في الوجدان الشيعي: ٦٩.

إيمان عميق، واعتقاد سليم، ويقين قاطع لا تردد فيه تركت في نفس الزائر أعمق الآثار الطيبة، حيث يرجع الزائر ونفسه طافحة بالنور، والبصيرة، والعزيمة، والرجاء خاضعاً خاشعاً متوسلاً بالله عز وجلّ قائلاً: ((**اللهم إني تعرضت لزيارة أوليائك رغبة في ثوابك، ورجاء لمغفرتك، وجزيل إحسانك، فأسألك أن تصلي على محمد وآله الطاهرين، وأن تجعل رزقي بهم داراً وعيشي بهم قاراً، وزيارتي بهم مقبولة وحياتي بهم طيبة، وأدرجني إدراج المكرمين واجعلني ممن ينقلب من زيارة مشاهد أحبائك منجحاً قد استوجبت غفران الذنوب وستر العيوب، وكشف الكروب إنك أهل التقوى والمغفرة**))[١] .

وبعد زيارة عاشوراء يقول الزائر: ((**انقلبت يا سيدي عنكما تائباً حامداً لله شاكراً راجياً للإجابة غير آيس ولا قانط**))[٢] .

٢- المعرفة الواعية المعمقة بدور المزور، ومعرفة أبعاد شخصيته الرسالية وموقفه من الحياة الدنيا، وهذا الشرط هو الشرط الأساسي في تأثير الزيارة في نفس الزائر ، وبهذا وردت أحاديث كثيرة نذكر منها: فعن بن عباس قال: ((دخلت على النبي ﷺ والحسن على عاتقه والحسين على فخذه يلثمهما ويقبّلهما ويقول: **اللهم والِ من والاهما ، وعاد من عاداهما**، ثم قال: **يا ابن عباس كأني به وقد خضبت شيبته من دمه يدعو فلا يجاب ، ويستنصر فلا ينصر**، قلت: فمن يفعل ذلك يا رسول الله؟ قال: **شرار أمتي ما لهم لا أنالهم الله شفاعتي**، ثم قال: **يا ابن عباس من زاره عارفاً بحقه كتب له ثواب ألف حجة وألف عمرة ...**))[٣] .

---

(١) الشيخ عباس القمي: مفاتيح الجنان بعد زيارة العباس.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المحدث المجلسي: بحار الأنوار: ٢٨٦/٣٦.

وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): ((**من زار أمير المؤمنين عارفاً بحقه غير متجبر، ولا متكبر كتب الله له أجر مائة ألف شهيد، وغفر الله له ...**))[١].

فعن الصادق (عليه السلام) قال: ((**من أتى الحسين عارفاً بحقه كتبه الله في أعلى العليين**)) وفي رواية أخرى ((**في عليين**))[٢].

٣- تجاوز الجانب الذاتي إلى الجانب الرسالي: ونقصد بذلك أن يتوجه المؤمن في الزيارة لا لقضاء مصلحة شخصية ذاتية تتعلق به؛ وإنما يزور ليعمق إيمانه بالمُرْسِل، والرسالة، والرسول، ولكن مع الأسف الشديد أن الجانب الذاتي في الزيارة هو الغالب لدى معظم الزائرين كما نراه عند الأغلب من الناس. يروي العارف الطهراني عن شيخه السيد هاشم الحداد إنه كان يقول: ((أرى الناس في جميع المشاهد المشرفة يلصقون أنفسهم بالضريح، ويتضرعون باكين بالدعاء فيقولون: أضف إلى خرق لباسنا المتهرئ؛ ليصبح أثقل ،وليس هناك من يقول: خذ هذه الخرقة مني؛ ليخف كاهلي؛ وليصبح ردائي أبسط والطف وأرق!))[٣].

٤- التخلق بخلق المزور ما لم يتخلق الزائر بأخلاق من يزوره، أو يحاول على الأقل أن يكتسب شيئاً من خلقه فلا تعد زيارته ذات جدوى... ولهذا ينبغي للزائر أن يقف على سيرة من يزوره من أولياء الله عز وجل أو أنبيائه ورسله، ليحاول أن يحيا حياته ويموت موته بالسير على هداه.

((**اللهم اجعلني في مقامي هذا ممن تناله منك صلوات ورحمة ومغفرة، اللهم اجعل محياي محيا محمد وآل محمد، ومماتي ممات محمد**

---

(١) المحدث المجلسي: بحار الأنوار: ١٧٦/٥٩.

(٢) المصدر نفسه: ٧٠/١٠٠.

(٣) محمد حسين الطهراني، الروح المجرد: ٢٦١.

وآل محمد ﷺ))[١].

٥- أن يبذل جهده في تخليص نيته من كل شائبة غير التقرب إلى لله تعالى وتحصيل رضاه، وليحاول في جعل كل خطوة يخطوها، وكل كلمة ينطق بها خالصة لوجه الله، وهذا الشرط من أهم الشروط التي تحقق للإنسان السمو والرفعة بالقرب من الله تعالى فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى وعلى هذا جاء التأكيد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام فعن أبى عبد الله عليه السلام قال: **((من زار قبر الحسين وهو يريد الله عز وجلّ شَيَعَه جبريل وميكائيل وإسرافيل حتى يرد إلى منزله))**[٢].

وقال عليه السلام: **((من زار قبر الحسين لله، وفي الله أعتقه الله من النار، وآمنه يوم الفزع الأكبر، ولم يسأل الله حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا أعطاه))**[٣].

٦- رعاية الأدب في لقاء رسول الله ﷺ أو أحد خلفائه وأوصيائه في التواضع والاحترام، والخشوع، والحب، والشوق، فلقاؤه عند قبره كلقائه حياً؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: **((من زارني بعد وفاتي كمن زارني في حياتي))**[٤].

وفي حديث آخر: **((من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي))**[٥].

وفي حديث ثالث: **((من زارني بعد موتي فكأنما زارني وأنا حي))**[٦].

---

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٠/١٠١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ١٤٣/١٠٠.

(٥) السبكي: شفاء السقام في زيارة خير الأنام: ٨٩ .

(٦) المصدر نفسه.

وعلى ضوء هذه الأحاديث المروية من طريقي السنة والشيعة يجب على الزائر لرسول الله صلى الله عليه وآله، أو أحد أهل بيته الطاهرين عليهم السلام أن يراعي أدب الزيارة واللقاء امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[(١)].

أي ((إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله تأدباً ،واحتراماً ،ومراعاة للجو الروحي الرفيع الذي يصنعه حضور رسول الله في المجلس، وللموقع الذي يمثله الرسول في ساحة الرسالة مما يفرض على الحاضرين حوله أن يغضوا أصواتهم عند الحديث معه، أو مع بعضهم البعض؛ ليحصلوا على الاستيعاب الفكري والروحي لكلماته فيما يعظهم به، أو يوجههم إليه، أو يخطط لهم من سبل، أو يفتح لهم من آفاق مما يحتاج إلى الكثير من الهدوء الذي يحتاجونه فيما يسمعون، ويتعلمون، أو فيما يريد الآخرون من الحضور أن يستمعوا إليه، ويرتفعوا به ويتعلموه من كلامه))[(٢)].

وقال العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسير قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ...الخ ﴾[(٣)]: ((وذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته وتكليمه صلى الله عليه وآله ارفع من صوته وأجهر؛ لأن في ذلك كما قيل أحد شيئين: إما نوع

---

(١) الحجرات: ٢-٣.

(٢) السيد محمد حسين فضل الله، من وحي القرآن: ١٦٥/٢١.

(٣) الحجرات: ٢.

استخفاف به وهو الكفر، وإما إساءة الأدب بالنسبة على مقامه، وهو خلاف التعظيم والتوقير المأمور به))[١] .

فكما يجب التوقير له حياً يجب التأدب عند قبره؛ لأن زيارته ميتاً كزيارته حياً[٢] وما لم يدخل الإنسان خاشعاً متأدباً متأملاً في سيرته لا يمكن أن يحصل المرجو من زيارته ﷺ ولهذا ((ينبغي للزائر أن يكون واقفاً وقت الزِّيارة كما هو الأليق بالأدب، فإذا طال فلا بأس متأدِّباً جاثياً على ركبته، غاضاً لطرفه في مقام الهيبة والإجلال، فارغ القلب مستحضراً بقلبه جلالة موقفه وأنه ﷺ حي ناظر إليه ومطلع عليه))[٣] .

وعند جمهور المسلمين ((يتوجه إلى القبر الكريم مستعيناً بالله في رعاية الأدب في هذا الموقف العظيم فيقف متمثلاً صورته الكريمة في خياله بخشوع وخضوع تامَّيْن بين يديه ﷺ... عالم بحضوره وقيامه وزيارته، وأنه يبلغه سلامه وصلاته))[٤] .

وإلى هذا المعنى تشير بعض زيارات أئمة أهل البيت عليهم السلام((**وأشهد أنك تسمع الكلام، وترد الجواب**))[٥] وفي نص آخر: ((**أشهد أنك تسمع كلامي وتشهد مقامي**))[٦] وفي نص آخر: ((**عارفاً عالماً أنك تسمع كلامي وترد**

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٠٨/١٨.

(٢) قال المحدث المجلسي في تفسير قوله تعالى﴿ لَا تَرْفَعُوٓا ﴾ : ((الآية تومئ إلى إكرام الروضات... لما روي أن حرمتهم بعد موتهم كحرمتهم في حياتهم)) بحار الأنوار: ١٢٥/١٠٠.

(٣) العلامة الأميني، الغدير: ١٣٤/٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) مفاتيح الجنان، في زيارة الحسين عليه السلام : ليلة النصف من رجب.

(٦) المصدر نفسه: بعد زيارة مولد أمير المؤمنين عليه السلام : ٣٧٨.

سلامي))(١).

وأما آداب الزيارة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام فقد تعرض لها العلماء الأعلام في كتب الزيارات، ونحن نذكر هنا ما كتبه الشهيد الأول رحمه الله في الدروس قال قدس سره: ((وللزيارة آداب:

أولاً : الغسل قبل دخول المشهد، والكون على طهارة، فلو أحدث أعاد الغسل، قاله المفيد وإتيانه بخضوع وخشوع في ثياب طاهرة.

ثانياً: الوقوف على بابه والدعاء والاستئذان بالمأثور، فإن وجد خشوعا ورقة دخل، وإلا فالأفضل له تحري زمان الرقة، لأن الغرض الأهم حضور القلب؛ لتلقي الرحمة النازلة من الرب، فإذا دخل قدم رجله اليمنى، وإذا خرج فباليسرى.

ثالثاً: الوقوف على الضريح ملاصقا له أو غير ملاصق، وتوهم أن البعد أدب وهمٌ، فقد نص على الاتكاء على الضريح وتقبيله.

رابعاً: استقبال وجه المزور واستدبار القبلة حال الزيارة، ثم يضع عليه خده الأيمن عند الفراغ من الزيارة، ويدعو متضرعا، ثم يضع عليه خده الأيسر، ويدعو سائلا من الله تعالى بحقه، وبحق صاحب القبر أن يجعله من أهل شفاعته، ويبالغ في الدعاء والإلحاح، ثم ينصرف إلى ما يلي الرأس، ثم يستقبل القبلة ويدعو.

خامساً: الزيارة بالمأثور، ويكفي السلام والحضور.

سادساً: صلاة ركعتي الزيارة عند الفراغ، فإن كان زائرا للنبي صلى الله عليه وآله ففي الروضة، وإن كان لأحد الأئمة عليهم السلام فعند رأسه، ولو صلاهما بمسجد المكان جاز... ولو استدبر القبر وصلى جاز، وإن كان غير مستحسن إلا مع البعد.

وسابعاً: الدعاء بعد الركعتين بما نقل وإلا فبما سنح له في أمور دينه ودنياه

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٩٥/١٠٠.

وليعمم الدعاء فإنه أقرب إلى الإجابة.

وثامناً: تلاوة شئ من القرآن عند الضريح، وإهداؤه إلى المزور، والمنتفع بذلك الزائر، وفيه تعظيم للمزور.

وتاسعاً: إحضار القلب في جميع أحواله مهما استطاع، والتوبة من الذنب والاستغفار والإقلاع.

عاشراً: التصدق على السدنة والحفظة للمشهد وإكرامهم وإعظامهم، فإن فيه إكرام صاحب المشهد عليه الصلاة والسلام، وينبغي لهؤلاء أن يكونوا: من أهل الخير، والصلاح ،والدين، والمروؤة ،والاحتمال، والصبر، وكظم الغيظ، خالين من الغلظة على الزائرين، قائمين بحوائج المحتاجين، مرشدي ضالي الغرباء والواردين. وليتعهد أحوالهم الناظر فيه، فإن وجد من أحد منهم تقصيرا نبهه عليه، فإن أصر زجره، فإن كان من المحرم جاز ردعه بالضرب إن لم يجد التعنيف، من باب النهي عن المنكر.

الحادي عشر: أنه إذا انصرف من الزيارة إلى منزله استحب له العود إليها ما دام مقيما، فإذا حان الخروج ودع ودعا بالمأثور، وسأل الله تعالى العود إليه.

الثاني عشر: أن يكون الزائر بعد الزيارة خيرا منه قبلها، فإنها تحط الأوزار إذا صادفت القبول.

الثالث عشر: تعجيل الخروج عند قضاء الوتر من الزيارة، لتعظيم الحرمة ويشتد الشوق، وروي أن الخارج يمشي القهقرى حتى يتوارى.

رابع عشرها: الصدقة على المحاويج بتلك البقعة، فإن الصدقة مضاعفة هنالك، وخصوصا على الذرية الطاهرة كما تقدم بالمدينة.

ويستحب الزيارة في المواسم المشهورة قصدا، وقصد الإمام الرضا عليه السلام في

رجب، فإنه من أفضل الأعمال))[(١)] .

وقال المحدث المجلسي: ((وأما تقبيل الأعتاب فلم نقف فيه على نص نعتد به))[(٢)] .

وجاء في كتاب الصلاة من تقرير بحث الشيخ النائيني قدس سره بقلم الشيخ محمد علي الكاظمي: ((ثم لا يخفى عليك أن مثل تقبيل الأعتاب المقدسة لم يكن من السجود بداهة عدم صدق السجود على ذلك فهل ترى أنه لو انكب أحد لتقبيل ابنه يقال إنه سجد لابنه نعم ما يفعله بعض العوام من وضع الجبهة والخدين على وجه الخضوع والتذلل في الأعتاب المقدسة لا يبعد صدق السجود عليه فاللازم ترك مثل ذلك. ثم إنه ربما يفرق بين وضع الجبهة ، وبين وضع سائر أجزاء الوجه، بدعوى أن في وضع الجبهة لا يحتاج إلى قصد السجود بل هو بنفسه سجود، إلا إذا قصد عنوانا يغاير السجود، وهذا بخلاف وضع سائر أجزاء الوجه فإنه يعتبر فيها القصد إلى السجود، وإلا فهي بنفسها ليست من السجود، وربما مال إلى ذلك شيخنا الأستاذ))[(٣)] .

والحمد لله رب العالمين الذي وفقنا لتحرير هذا القليل، وقد تم في ليلة الخامس عشر من ذي القعدة سنة ١٤٢٣ في مدينة قم المقدسة نسأل الله تعالى أن يتقبله منا ويجعله ذخرا لنا.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[(٤)] .

---

(١) ابن إدريس الحلي، الدروس: ٢٢-٢٤.

(٢) الشهيد الأول، الدروس: ٢٤/٢، وجواهر الكلام: ١٠١/٢، والينابيع الفقهية: ٥٠٣/٣٠، وبحار الأنوار: ١٣٦/١٠٠.

(٣) كتاب الصلاة، تقرير بحث الشيخ النائيني، بقلم الشيخ محمد علي الكاظمي: ١٥٤/٢-١٥٥.

(٤) الشعراء: ٨٨-٨٩.

المحتويات:

تمهيد ٩

الدعاء في حياة أهل البيت عليهم السلام ٩

(١)

الكمالات النفسية في أدعية أهل البيت عليهم السلام ٢٣

أولاً: الاطمئنان بالقدر الإلهي ٢٦

معنى القدر ٢٨

لوازم الاطمئنان بالقدر الإلهي ٣٣

ثانياً: الرضا بالقضاء ٣٤

معنى القضاء ٣٧

شروط تحصيل الرضا بالقضاء والقدر ٤١

آثار الرضا بالقضاء ٤٧

ثالثاً: الولع بذكر الله تعالى ٤٩
في رحاب الذاكرين.............................. ٥٢
رابعاً: النفس المحبة المحبوبة.............................. ٦٨
الحب لله وفي الله ٦٨
حب الله.............................. ٦٩
الدين هو الحب، والحب هو الدين ٧٢
لوازم الحب وآثاره.............................. ٧٥
خامساً: حب الصفوة من أولياء الله.............................. ٨٠
الحب شرط الإيمان.............................. ٨٣
حبهم أساس الإسلام.............................. ٨٥
مسؤولية حب أهل البيت عليهم السلام ٨٧
حق أهل البيت عليهم السلام ٩٠
هكذا تحدث القرآن الكريم عن الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ٩٤
وهكذا تحدث أئمة الهدى عليهم السلام ١٠٣
ماذا يجب أن نعرف عنهم عليهم السلام؟ ١١٠
الطاعة شرط الإئتمام.............................. ١١٦
ثمرات ومنافع حب أهل البيت عليهم السلام.............................. ١٢٠
كيف نملك قلوب الآخرين؟.............................. ١٢٤
السبيل إلى قلوب الناس.............................. ١٢٧
السلام حالة الدخول إلى البيت.............................. ١٣٧
لا غرارة في الصلاة ولا التسليم ويكره التجاوز.............................. ١٣٨
الذين ينبغي ترك السلام عليهم.............................. ١٣٩

رد السلام على غير المسلمين ١٤٠
آداب التحية والسلام ١٤١
معنى حسن الخلق.. ١٤٥
آثار وثمرات حسن الخلق ١٤٧
كيف يكتسب الإنسان حسن الخلق؟... ١٥١
سادساً: النفس الصابرة.. ١٦١
خصال النفس الصابرة.. ١٦٣
سابعاً: الإنسان الشكور ١٦٤
ثامناً: ذكر النعم الإلهية ١٦٧
ما هي النعم التي يذكرها الإنسان؟... ١٧٣
تاسعاً: الشوق إلى لقاء الله تعالى ١٨٠
بماذا أحببت لقاء الله؟... ١٨٢
من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ١٨٣
الاستعداد للقاء الله تعالى ١٨٤
عاشراً: خيـر الزاد.. ١٨٧
الحادي عشر: الاستنان بسنة أولياء الله... ١٩٠
الثاني عشر: مخالفة أخلاق أعداء الله ١٩٢
من أخلاق أعداء الله اليوم ١٩٤
الثالث عشر: الاشتغال عن الدنيا بحمد الله وثناءه ١٩٩
موقف الإسلام من الحياة الدنيا... ٢٠٠
الدنيا المذمومة.. ٢٠٥

(٢)

معالم الشخصية الرسالية ٢٠٩
أولاً: بسط العدل ٢١٤
أمثلة من عدل الإمام علي ؏........................ ٢١٩
ثانياً: كظم الغيظ ٢٢٥
نماذج في كظم الغيظ ٢٢٨
ثالثاً: إطفاء النائرة ٢٣٠
رابعاً: ضم أهل الفرقة........................ ٢٣١
خامساً: إصلاح ذات البين........................ ٢٣٦
سادساً: إفشاء العارفة وستر العائبة ٢٤٠
وجوب الستر على المؤمن ٢٤١
سابعاً: لين العريكة وخفض الجناح........................ ٢٤٥
الرفق واللين سبيل النجاح ٢٤٥
آثار الرفق في حياة الإنسان........................ ٢٤٦
ثامناً: حسن السيرة ٢٤٩
تاسعاً: سكون الريح ٢٥٢
في معنى السكينة........................ ٢٥٣
آثار السكينة في الحياة اليومية........................ ٢٥٥
عاشراً: طيب المخالقة ٢٥٧
الحادي عشر: السبق إلى الفضيلة ٢٦٠
العناصر اللازمة للسبق ٢٦٢
الثاني عشر: الإيثار (وإيثار التفضل) ٢٦٥

صور من الإيثار ٢٦٦
الثالث عشر: ترك التَغْيير ٢٦٨
الرابع عشر: الإفضال على غير المستحق ٢٧٢
الخامس عشر: القول بالحق وإن عز ٢٧٥
وجوب القول بالحق ٢٧٧
آثار قول الحق ٢٧٨
السادس عشر: استقلال الخير واستكثار الشر ٢٧٩
السابع عشر: دوام الطاعة ٢٨٥
الثامن عشر: لزوم الجماعة ٢٨٧
من هم جماعة أهل الحق ؟ ٢٩٠
التاسع عشر: رفض أهل البدع ومستعملي الرأي المخترع ٢٩٣
الموقف الشرعي من الابتداع ٢٩٥
موقف الأئمة الأطهار عليهم السلام من المبتدعة ٢٩٨

(٣)

أسباب الجفاف الروحي ٣٠٣
حقائق نفسية واجتماعية ٣٠٧
أسباب قسوة القلب ٣١٠
أسباب الجفاف الروحي ٣١٣

(٤)

الزيارة تعهد والتزام ودعاء في مشاهد المطهرين ٣٢٣

مشروعية الزيارة.. ٣٢٤
حكمة زيارة القبور.. ٣٣١
فوائد رسالية اجتماعية ٣٣٦
متى تترك الزيارة أثرها في نفس الزائر؟ ٣٤٦

المحتويات ٣٥٥